

فقه الحج - رؤية جديدة



د. رشيد الجراح

Certificate of Registration
CopyrightFrance

Copyright Registration Number: 9H2F1R2

CopyrightFrance.com, Website registered under number 2104 by the State Prosecutor of the High Court of Evreux (FRANCE) certifies having delivered the certificate of the original following registration

Name of the registrant: Rasheed Saleem Al-Jarrah

Title or URL of the registered document: https://www.dr-rasheed.com/

Description: Dr. Rasheed's blog documents his lifelong reflections on the Quran, offering linguistic and analytical insights without adhe ring to any specific sect. The goal is to officially archive and le gally protect his writing, ideas and stories presented in the blog.

Date / time of the registration: 15-02-2025 à 20:46

The submitted document has been time stamped by a RGS qualified Certification Authority and ETSI TS 102 023 certified.

Paris (date) 15-02-2025 - The publication manager G.E.E. :

Reminder : (code of the intellectual property, extracts) :

✔ **Point L.335-2.** All publishing of written documents, musical composition, drawing painting or any other totally or partly printed, engraved production regardless of the laws and regulations concerning author's property is a forgery and any forgery is an offence. In France, forgery of published work in France or abroad is punished by 3 years in prison and a 300.000 euros fine. Will be punished the same way selling export and import of counterfeit work.

✔ **Point L.335-3.** Is also considered a forgery offence all reproduction , representation or circulation by any mean, of piece of spiritual work by violating the author's rights, as they are set and regulated by law. Is also considered as a forgery offence the violation one of the owner of the software's rights.



3c14c5091f191db578780f4e846d7a176d3cb058592f3b129f067ba1aa063728

كلمة فريق عمل مدوّنة روح

الحمد لله الذي علّم الإنسان بالقلم، وخصّه بنعمة البيان، وجعل تدبّر كتابه العزيز سبيلًا للهداية.
أمّا بعد،

يمرّ الفكر الديني المعاصر بمنعطفٍ تاريخي يفرض إعادة تأسيس العلاقة مع النصّ المؤسِّس؛ فكثير من المفاهيم والمناهج قد ترسّخت عبر القرون حتى غدت في الوعي العام بمنزلة المسلّمات المطلقة. في خضمّ هذه الحاجة الملحة للمراجعة والتجديد، يأتي مشروع الأستاذ الدكتور رشيد سليم الجرّاح ليقدّم قراءةً مغايرة للقرآن الكريم، قراءةً لا تكتفي بحدود التفسير الموروث بل تتجاوزه نحو فهمٍ جديد يتأسّس على منهجٍ علميٍّ دقيق، يلامس روح النصّ بعمق ويقترب من منطق العقل والفطرة السليمة.

لعلّ في الاسم الذي يحمله الدكتور رشيد سليم الجرّاح إشارةً بالغة الدلالة؛ فهو بحقٍّ يُجري عمليةً جراحية للكلمة القرآنية. إنه يتعامل مع مفردات الوحي برُشدٍ متناهٍ، كأنّه يضعها تحت مجهر الفكر واللغة، فيُريك نسيجها العضوي، ويكشف عن أعصابها الصرفية وعروقها الدلالية، لتتجلّى بذلك أبعادها النفسية والمادية العميقة. هكذا تتحوّل الكلمة في مشروعه من مجرّد رمزٍ صوتي إلى كيانٍ حيٍّ نابضٍ بالمعنى، يحمل إمكانات التأويل التي تنتظر التحرير.

لقد كانت أبحاث الدكتور الجرّاح ومقالاته بمثابة أطروحات نوعية تميّزت بالعمق والجرأة الفكرية، فمثّلت دعوةً صريحةً لإعادة بناء علاقتنا التلقّائية بالوحي، لا على قاعدة التلقّي الجامد، بل على أساس الفهم المتدبّر والتحليل العلمي المحكم. وهي دعوةٌ ضرورية تُعيد إلى النصّ حيويته الجوهرية، وإلى الفكر الديني توازنه المنشود، وتُحيي مسؤولية الباحث في إعمال العقل وكسر حاجز السؤال الموقوف.

وانطلاقًا من قناعتنا الراسخة بأهمية هذا المشروع الريادي، وبضرورة حفظه وتوثيقه ليكون مرجعًا للباحثين والمهتمين، تضافرت جهود فريق المدوّنة. لقد قمنا بجمع هذه المقالات والدراسات المنشورة، ومن ثم تنظيمها وتصنيفها وتحريرها بعناية فائقة، لتصدر الآن في هذا العمل المتكامل الذي نضعه بكل تقدير بين يدي القارئ الكريم.

نحن نؤمن يقينًا بأنّ هذه الكتابات تمثّل إسهامًا محوريًا في مسار الفكر القرآني المعاصر، وأنها تفتح آفاقًا رحبة للتأمّل والمراجعة والتجديد، بما يليق بكتابٍ أنزله الله للعقل قبل التقليد، وللحياة قبل التاريخ.

إنّ هذا العمل ليس سوى نقطة انطلاق في مسارٍ نأمل أن يكون مستدامًا؛ وفاءً لصاحب هذا المشروع العلمي الرائد، وإيمانًا بما قدّمه من اجتهادٍ صادق ورؤيةٍ علمية مغايرة تستحقّ كل التقدير والاحتفاء.

فريق عمل مدوّنة الدكتور رشيد الجراح:

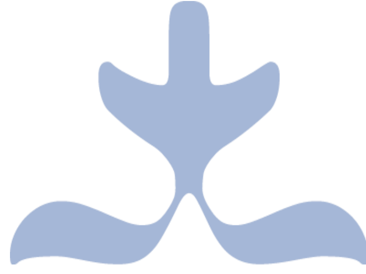
- المهندس **عامر محمد العوض، مهندس نظم المعلومات من مايكروسوفت.**
- المهندس **زكرياء مصباح، مهندس مدني.**
- الأستاذ **مصطفى عيسى، مصمم ديكور ومستشار في العقارات.**
- الأستاذ **محمد عادل الخولي، مستشار في العقارات.**
- الدكتور **يوسف فرمي، مهندس البحث والتطوير في الإلكترونيات الدقيقة والبصريات.**

للإتصال بالفريق : roohblog2025@gmail.com

الفهرس:

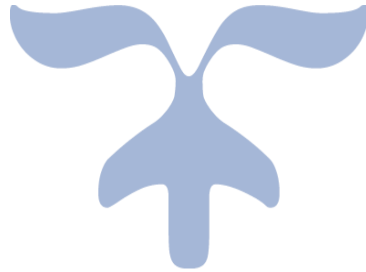
الفهرس

الفهرس



فقه الحج

الجزء الأول



فقه الحج – الجزء الأول

وردت لفظة الحج في كتاب الله في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾﴾ [البقرة: 189]
- ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ ۚ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ ۚ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 196]
- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ ۚ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾ [البقرة: 197-200]
- ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ۖ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾ فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾﴾ [التوبة: 3-6]
- ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَنْ

يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ [الحج: 27-30]

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]
- ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: 158]

وسنحاول في هذه المقالة تقديم رؤيتنا الخاصة بفقه الحج، ويتضمن ذلك مشروعيته وأحكامه، وشعائره ومناسك الحج، مستندين في ذلك على فهمنا المفترى من عند أنفسنا لما جاء في هذه الآيات الكريمة الخاصة بفريضة الحج، داعين الله وحده أن يؤتينا رشده، وأن يهدينا إلى قول الحق، فلا نفتري عليه الكذب، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

بداية، لابد من تكرار التنبيه للجميع بأن رأينا الذي سنحاول تسويقه في هذا الموضوع (كما في غيره) لا يخرج عن نطاق الاجتهاد البشري القابل للصواب والخطأ، رافضين في الوقت ذاته بكل ما أوتينا من قوة أن يتخذ الناس كلامنا هذا تشريعا ربانيا، وكأنها مسلمات ثابتة لا جدال فيها، فنحن على استعداد على التخلي عن كل ما نزعم إذا لم تثبت صحته ووجاهته بناء على ما جاء في كتاب الله من القول الفصل. لذا، نحن نطلب من القارئ الكريم أن يضرب بكلامنا هذا عرض الحائط إن هو وجد فيه ما يخالف التشريع الرباني الحقيقي. ومن هذا المنطلق، فإننا نطلب (كالعادة) من القارئ الكريم أن يقرأ كلامنا هذا بعين الناقد المتفحص وليس بعقيدة التابع المقلد، لأننا سنفتري كلاما نظن أنه غير مسبوق، يتعارض في كليته وفي كثير من جزئياته مع معظم ما جاءنا من عند سادتنا العلماء أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية منهم في بطون مؤلفاتهم الكبيرة. ولما كان الأمر – برأينا- جد خطير، فإننا سنحاول ما استطعنا إلى ذلك سبيلا التدقيق في كل التفاصيل، حتى وإن تطلب الأمر التكرار في كثير من القضايا التي سبق أن تطرقنا لها في مواضع أخرى. وهذا يتطلب بداية طرح جميع التساؤلات التي قد تخطر على بال بشر، فنحن على العقيدة التي مفادها أن التشريع الإلهي الحقيقي يستطيع الصمود أمام جميع التساؤلات. وبخلاف ذلك، فإن الكلام لا يعدو أكثر من افتراء بشري، لا يرقى إلى درجة قدسية النص الذي جاءنا مفصلا تفصيلا من رب العالمين.

وبناء على ذلك، دعنا نبدأ النقاش بالتساؤلات الأولية التالية:

⇐ ما هو الحج؟
⇐ لماذا فرض الله علينا الحج؟
⇐ من هو المكلف بأداء فريضة الحج؟
⇐ ما هو وقت الحج؟
⇐ ما هو مكان الحج؟

⇐ ما هي شعائر الحج؟
⇐ ما هي مناسك الحج؟
⇐ كيف تختلف شعائر الحج عن مناسكه؟
⇐ ما فائدة الحج أصلا؟
⇐ هل الحج موجود في شعائر الأمم التي سبقتنا كاليهود والنصارى مثلا؟
⇐ كيف يختلف الحج في الإسلام عن الحج عند الأمم السابقة؟
⇐ لماذا شرع الله لنا الحج إلى مكة على وجه التحديد؟
⇐ ما الحكمة في أن يكون البيت العتيق (على وجه التحديد) هو وجهة الحجاج؟
⇐ لماذا شرع الله الحج في أشهر معلومات؟
⇐ ما الحكمة في أن يكون الحج في مواقيت محددة؟
⇐ ما الواجب على من لم يستطع أداء فريضة الحج فعله؟
⇐ الخ.

باب: ما هو الحج؟

افتراء (1): نحن نفتري القول بأن الحج هو عبارة عن الذهاب في رحلة إلى مكان محدد، في وقت محدد، من أجل غاية محددة. ونحن نكاد نجزم الظن أن هذه الشروط جميعها متوافرة في قوله تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 27-30]
- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]
- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ

ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ﴿٢٠٠﴾ [البقرة: 197-200]

لذا، نحن نستطيع أن نستنبط الأحكام التالية:

⇐ الحج عمل يقوم به الناس
⇐ الحج عمل يقوم به الناس كحق مفروض عليهم لله (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا)
⇐ الحج عمل يقوم به الناس كحق مفروض عليهم لله في أشهر معلومات (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ)
⇐ الحج عمل يقوم به الناس كحق مفروض عليهم لله في أشهر معلومات إلى مكان محدد بذاته (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ)
⇐ الخ

إن أول المفارقات المهمة جدا التي ننطلق منها هنا هو أن الحج عمل مفروض من الله على الناس كافة، قال تعالى:

- ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 97]

فالله هو من طلب من نبيه إبراهيم أن يؤذن بالناس بالحج:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ ... ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

لذا، نحن نخالف أهل الدراية جميعا في ظنهم بأن الحج خاص بالمؤمنين والمؤمنات من المسلمين. فالحج – برأينا – فريضة على الناس كافة، لأن الحج يؤدى إلى مكان هو أصلا للناس كافة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

ولو تفقدنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أنها خاصة بكل متبع لملة إبراهيم:

- ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 95-96]

فإبراهيم هو من رفع القواعد من البيت وابنه إسماعيل:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ

﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠﴾ [البقرة: 127-130]

فالله هو من بوّأ لإبراهيم مكان البيت، وإبراهيم هو من قام بفعل تطهير البيت للطائفين والقائمين الركع السجود، وهو نفسه من طلب الله منه أن يؤذن بالناس بالحج:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧﴾ [الحج: 26-27]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الحج فريضة من الله على كل راغب في ملة إبراهيم. انتهى

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن غير المكلف بالحج هو فقط من رغب عن ملة إبراهيم. انتهى.

لذا، نحن نتجرأ على البوح بأن اليهودي المتّبع لملة إبراهيم مكلّف بالحج إلى البيت العتيق، وأن كل نصراني متّبع لملة إبراهيم مكلّف بالحج إلى البيت العتيق، وأن كل مسلم متّبع لملة إبراهيم مكلّف بأداء فريضة الحج إلى البيت العتيق. فالحج إلى البيت العتيق إذن ليس فعل مقتصر على المسلمين. ومن هذا المنطلق، نحن ندعو إلى فتح أبواب الحج للجميع مادام أنهم متبعون لملة أبينا إبراهيم.

ثانيا، لمّا كان الحج مفروضا على كل متبع لملة إبراهيم، فإننا نطالب أن يكون الحج مقتصرا على الناس منهم، لأن الآذان بالحج جاء للناس كافة:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧﴾ [الحج: 27]

ولو تفقدنا هذه الآية الكريمة، لربما صح لنا أن نقدم الافتراءات التالية:

⇐ جاء الطلب من الله نفسه بالآذان في الناس بالحج

⇐ كان إبراهيم هو من قام بفعل الآذان بالحج

⇐ كان آذان إبراهيم بالناس كافة (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ)

⇐ وجب على الرجال من الناس تلبية هذه الدعوة الكريمة (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا)

⇐ جاء حضور النساء للحج من باب التشريف وليس التكليف (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ)

⇐ جاءت تلبية هذه الدعوة من كل فج عميق (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ)

⇐ الخ.

تبعات هذا الظن

أن من أول التبعات الخطيرة لهذا الظن المفترى من عند أنفسنا يتمثل في أن التكليف بالحج لا يقع إلى على الناس. وذلك لأن الآذان بالحج قد انطلق من إبراهيم في الناس فقط:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ ...﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

ولو تفقدنا مفردة الناس في السياقات القرآنية كلها، لوجدنا أنها خاصة بالذكور فقط. فالناس هم من بلغ الحلم (أي النكاح) من الذكور، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا في باب ثلاثية المرأة)

فالناس هم من بلغوا من الذكور مرحلة الشهوة للنساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل والمسوّمة والأنعام والحرث. لتكون الافتراءات التالية هي محل اهتمامنا:

⇐ النساء لسن من الناس، لذا فهن غير مكلفات بأداء فريضة الحج
⇐ البنون (البنين) ليسوا من الناس، لذا فهم غير مكلفين بأداء فريضة الحج
⇐ الخ

الدليل

جاء الأمر من الله بأن نؤدي الأموال لليتامى إذا بلغوا مرحلة النكاح وتحصل لهم الرشد، قال تعالى:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَأۡكُلُوهَآ إِسۡرَافٗا وَبِدَارًا أَن يَكۡبَرُواْۚ وَمَن كَانَ غَنِيّٗا فَلۡيَسۡتَعۡفِفۡۖ وَمَن كَانَ فَقِيرٗا فَلۡيَأۡكُلۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِذَا دَفَعۡتُمۡ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡ فَأَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٦﴾﴾ [النساء: 6]

لمّا كانت القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث هي ما يمكن أن يقع في باب أموال اليتامى، فلا يجوز بأي حال من الأحوال أن تدفع هذه الأموال إلى أصحابها اليتامى إلى عندما يصلوا مرحلة النكاح، وتوافر عنصر الرشد فيهم:

- ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ ...﴿٦﴾﴾ [النساء: 6]

السؤال: ما علاقة هذا بموضوع البحث؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن البنين هم فئة من الذكور من الناس الذين لم يبلغوا مرحلة النكاح بعد، وهم الذين يكونوا جزءا من الشهوات. فمادام الذكر من الأولاد دون سن النكاح فهو جزء من متاع الحياة الدنيا، قال تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

وهم جزء من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ [الكهف: 46]

أما الإناث من الأولاد، فهن لسن من زينة الحياة الدنيا، بدليل قوله تعالى:

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [النحل: 58-59]

لذا، دعنا نرجع إلى الآية الكريمة قيد البحث وهي:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: 14]

بالافتراءات الخطيرة التالية:

⇐ النساء من متاع الحياة الدنيا
⇐ البنون (البنين) من متاع الحياة الدنيا
⇐ البنات لسن من متاع الحياة الدنيا

إن هذا الطرح يدعونا للعودة مرة أخرى إلى محاولة فهم المفردات القرآنية كما يجليها النص القرآني نفسه. وبهذا الصدد، نحن نجد لزاما التفريق بين المفردات التالية: الأولاد والأبناء والبنون (البنين) والرجال من جهة والبنات والنساء من جهة أخرى كما في الجدول الأولي التالي:

أولاد	
بنون (بنين)	
أبناء	
رجال	
بنات	
نساء	

طارحين التساؤلات التالية:

- ⇐ من هم الأولاد؟
- ⇐ من هم البنون (البنين)؟
- ⇐ من هم الأبناء؟
- ⇐ من هم الرجال؟
- ⇐ من هن البنات؟
- ⇐ من هن النساء؟
- ⇐ كيف تختلف كل فئة عن الفئة الأخرى؟
- ⇐ ما هي الأحكام التي يمكن أن تبنى على هذه التفريقات؟
- ⇐ الخ

أولا، الفرق بين الأولاد والأبناء

لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أنها تحذرنا من بعض أزواجنا وأولادنا، لأنهم ببساطة يمكن أن يكونوا عدوا لنا، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡۚ وَإِن تَعۡفُواْ وَتَصۡفَحُواْ وَتَغۡفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾ [التغابن: 14]

السؤال: من هم الأولاد؟ ومتى يمكن أن يكونوا عدوا لنا؟

رأينا المفترى: نحن نكاد نجزم الظن بأن مفردة الأولاد تشمل الذكر والأنثى، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

بينما لا تشمل مفردة الأبناء – بالمقابل- إلا الذكور من الذرية.

الدليل

لو حاولنا تفقد مفردة الأبناء على مساحة النص القرآني كله، لوجدنا أنها خاصة بالذكور من الأولاد، فالفصل بين الأبناء والنساء واضح في قصة بني إسرائيل مع فرعون الذي كان يقتل أبناءهم (من الذكور) ويستحيي نساءهم (من الإناث):

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾﴾ [البقرة: 49]
- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾ [البقرة: 246]
- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [الأعراف: 127]
- ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنجَىٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٦﴾﴾ [إبراهيم: 6]
- ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: 4]
- ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٢٥﴾﴾ [غافر: 25]

لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن مفردة الأبناء لا تشمل الإناث لأن التقتيل كان يقع على الأبناء (الذكور) بينما كان الاستحياء من نصيب النساء (الإناث).

وهذا الفصل (بين الطرفين) واضح أيضا في قوله تعالى:

- ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦١﴾﴾ [آل عمران: 61]

وها هم اليهود والنصارى يقولون بأفواههم بأنهم أبناء الله:

- ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: 18]

والربط واضح في الآيات الكريمة التالية بين الأبناء (الذكور) من جهة والآباء (الذكور) من جهة أخرى:

- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءٗ فَوۡقَ ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَۖ وَإِن كَانَتۡ وَٰحِدَةٗ فَلَهَا ٱلنِّصۡفُۚ وَلِأَبَوَيۡهِ لِكُلِّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٞۚ فَإِن لَّمۡ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٞ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخۡوَةٞ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُۚ مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِي بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍۗ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]
- ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾ [المجادلة: 22]

ويأتي القول الفصل من الله جليّا لا لبس فيه في الآيات الكريمة التالية بأن هؤلاء المجادلون في الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم:

- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ١٤٦﴾ [البقرة: 146]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٢٠﴾ [الأنعام: 20]

والفصل أيضا واضح لا لبس فيه بين الأبناء والأزواج في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٤﴾ [التوبة: 24]

فالذكورة واضحة جلية في الأبناء في قوله الحق:

- ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٖ مِّن قَلۡبَيۡنِ فِي جَوۡفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزۡوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنۡهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمۡۚ وَمَا جَعَلَ أَدۡعِيَآءَكُمۡ أَبۡنَآءَكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ قَوۡلُكُم بِأَفۡوَٰهِكُمۡۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ٤﴾ [الأحزاب: 4]

ويأتي التحريم المفروض على النساء في الآيات الكريمة التالية ليشمل الأبناء (لذكورتهم):

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

- ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّۗ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ شَهِيدًا ۝٥٥﴾ [الأحزاب: 55]

والآية الكريمة التالية تبين لنا ربما بما لا يدع مجالا للشك بأن الأبناء هم الذرية من الذكور، وذلك لأن لهم حلائل:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٢٣﴾ [النساء: 23]

لنصل من خلال النقاش السابق كله إلى النتيجة المفتراة من عند أنفسنا التالية: الأبناء هم الذرية من الذكور الذين يمكن أن تكون لهم زوجات وذلك لأنهم قد بلغوا مرحلة النكاح.

الأولاد	تشمل الذكور والإناث	يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِۚ
الأبناء	تشمل الذكور فقط	وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ

ثانيا، الفرق بين الأبناء والبنين (البنون)

لو تفقدنا الآيتين الكريمتين التاليتين، لوجدنا فيهما ما يدعو إلى الاستغراب وربما الدهشة، ففي حين أن الآية الأولى تبين لنا بأن البنين هم من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ۝٤٦﴾ [الكهف: 46]

وتبين الآية الكريمة الثانية التالية (كما نفهمها) بأن البنين جزء من الشهوات التي هي متاع الحياة الدنيا:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ۝١٤﴾ [آل عمران: 14]

فأن ما جاء في الآية الثالثة التالية يبين لنا أنهم ليسوا كذلك، فنحن لا ندري مقدار نفعهم لنا:

- ﴿... ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًاۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء: 11]

ليكون السؤال إذن هو: كيف يمكن أن نفهم أن البنين جزء من متاع الحياة الدنيا، وأن البنين هم جزء من زينة الحياة الدنيا، بينما نجد أن الأبناء قد لا ندري مقدار نفعهم لنا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فهم هذا التضارب الظاهري يتطلب منا الوقوف عند معاني المفردات القرآنية بالدقة المطلوبة التي ترقى إلى مكانة النص القرآني الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو تفحصنا مفردة (الابن) في النص القرآني على مساحته، لوجدنا أنها تجمع على طريقتين، فهناك الأبناء (جمع ابن) وهناك البنون جمع (ابن) أيضا.

ابن	بنون (بنين)	
ابن	أبناء	

السؤال: ما الفرق بين مفردة الابن التي جمع على بنين (في حالة النصب والجر) و بنون (في حالة الرفع) من جهة ومفردة الابن التي جمع على (أبناء) من جهة أخرى؟ لتكون التساؤلات ذات الاستحقاق في التدبر الآن هي:

⇐ من هم البنون؟
⇐ ومن هم الأبناء؟

رأينا المفترى: بداية، نحن نرفض جملة وتفصيلا أن يكون هذا مجرد تناوب لفظي لأغراض إعرابية أو شكلية، وإنما هي – برأينا- فروقات كبيرة في الشكل تؤدي أغراضا جوهرية في النص القرآني، لذا وجب الوقوف عندها وتدبرها مليّا، علّنا نحرج منها بأفهام ربما تساعدنا في فهم النص القرآني بشكل أكثر وضوحا، وتمكننا من الوصول إلى استنباطات جوهرية تمس أصول العقيدة التي نؤمن بها. فما الفرق؟

جواب مفترى: نحن نظن أن البنين (أو البنون) هم الذكور من الذرية الذين لم يبلغوا مرحلة النكاح، فهم إذن من متاع الحياة الدنيا:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

وهم جزء من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

ولكن ما أن يصل هؤلاء الذرية من الذكور (أي البنون) إلى مرحلة النكاح حتى يكونوا قادرين على الزواج فيصبحوا أبناء، فيكونون قادرين أن يتخذوا حلائل لهم:

- ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمۡ أُمَّهَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُمۡ وَعَمَّٰتُكُمۡ وَخَٰلَٰتُكُمۡ وَبَنَاتُ ٱلۡأَخِ وَبَنَاتُ ٱلۡأُخۡتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]

وفي هذه المرحلة (أي مرحلة الأبناء) يصبحوا قادرين على إحداث النفع، فيمكن أن يزيد نفعهم لنا أو أن ينقص، فلا ندري أيهم أقرب لنا نفعا، أبناؤنا أم أبناؤنا:

- ﴿... ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

فيصبح الجدول السابق (حسب فهمنا لمفردات النص القرآني هذه) على النحو التالي:

ابن	بنون (بنين)	الذكور من الذرية الذين لم يصلوا مرحلة النكاح، فيكونون جزء من زينة الحياة الدنيا	﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ ١٤﴾ [النساء: 14] ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]
ابن	أبناء	الذرية من الذكور الذين وصلوا مرحلة النكاح، فيمكن أن يزيد أو أن ينقص نفعهم لنا	...وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا

تلخيص ما سبق: يتحصل للشخص المتزوج ذرية من الأولاد، فيكونوا بنين وبنات

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]

تكون الذرية من البنين هم جزء من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

وفي حين أن الشخص الذي تحصلت له الذرية من البنين والبنات يتضايق إذا بشر بالبنات (الأنثى):

- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلۡأُنثَىٰ ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٞ ٥٨﴾ [النحل: 58]
- ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ١٧﴾ [الزخرف: 17]

إلا أنه يشعر بالسرور في حالة تحصل الذرية له من البنين لأن ذلك من متاع الحياة الدنيا:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

فيكونون هؤلاء الذرية من الذكور (أي البنون) جزءا من زينة الحياة الدنيا:

- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

لكن ما أن يصل هؤلاء البنون إلى مرحلة النكاح حتى يصبحوا ضمن فئة الأبناء القادرين على النكاح واتخاذ الحلائل:

- ﴿...وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]

ويكونوا حينئذ قادرين على إحداث النفع:

- ﴿...ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

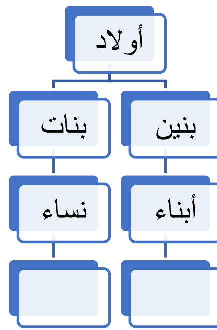
فيصبح الجدول – برأينا- على النحو التالي:

ولد	أولاد	ذكور وإناث
ابن	(بنون أو بنين)	غير بالغين
ابن	أبناء	بالغين
ابنة	بنات	غير بالغين
ابنة	نساء	وصول مرحلة المحيض

ولو حاولنا ربط ذلك بمرحلة البلوغ (سن النكاح)، يصبح الجدول على النحو التالي:

ولد	أولاد	أولاد	ذكور وإناث: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ﴾
ابن	بنين (بنون)	أبناء	ذكور: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ...﴾ ... ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ...﴾
ابنة	بنات	نساء	إناث: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَمَقۡتٗا وَسَآءَ سَبِيلًا ٢٢﴾ [النساء: 22]

والشكل التالي ربما يوضح العلاقة بين هذه الفئات:



السؤال: ما علاقة هذا بقضية الحج قيد البحث؟

رأينا: لمّا كان الحج (كسائر العبادات) هو فعل يترتب القيام به على من وصل مرحلة البلوغ (النكاح)، لذا يستحيل أن يشمل ذلك البنين والبنات، وإنما يقع على الأبناء والنساء.

السؤال: لكن هل التكليف واحد في الحالتين؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآيات الكريمة التي تبين مشروعية الحج وشعائره ومناسكه، لوجدنا أن المكلفين بذلك هم من فئة الناس فقط، قال تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 27-30]

لكن يبرز هنا سؤال مفصلي هو: هل كل الناس مكلفين بالحج؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الآذان بالحج يشمل الناس كافة، لكن التكليف بأداء هذه الفريضة لا يقع إلا على فئة محددة من الناس وهم الرجال، وتدبر عزيزي القارئ – إن شئت- الآية السابقة مرة أخرى من هذا الجانب:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

فنحن نفهم أن المكلف بأداء فريضة الحج من الناس هم المطلوب منهم تلبية هذا النداء وهم الرجال، فالذي يأتي إلى الحج هم الرجال، أليس كذلك (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا)؟

السؤال: ما معنى مفردة رِجَالًا التي جاءت في هذه الآية الكريمة؟

ثالثا، باب الفرق بين الرجال والنساء

رأينا المفترى: لقد تعرضنا لهذه المفردة في مقالات سابقة لنا، وحاولنا مخالفة أهل الدراية في ظنهم بأن المفردة تعني راجلين، أي سائرين على الأقدام، وذلك لأسباب عديدة نذكر منها:

أولا، جاءت التلبية من كل فج عميق، أليس كذلك؟ فكيف إذن سيستطيع من يسكن الأمريكيتين أو القارة الاسترالية مثلا أن يقدم إلى الحج راجلا مادام أن هناك بحارا ومحيطات مائية عملاقة تفصل بين المكانين؟ فهل يستطيع من يسكن القارة الأمريكية مثلا أن يلبي نداء الحج راجلا؟ من يدري؟!!

ثانيا، لو كان التكليف يحدد القدوم بطريقة المشي على الأقدام (راجلا)، فهذا يعني عدم مشروعية الركوب على أي وسيلة نقل، فلم إذن حج الرسول الكريم على راحلته؟ ألم يكن الأولى به (إن صح منطق سادتنا العلماء) أن يمشي على رجليه، فلا يستخدم دابته في الوصول إلى المكان المحدد (البيت العتيق) لأداء شعائر الحج؟

ثالثا، هل فعلا فهمنا معنى مفردة رجالا في النص القرآني؟ ولماذا جاء الآذان بالحج في الناس كافة بينما جاءت التلبية من قبل الرجال فقط؟

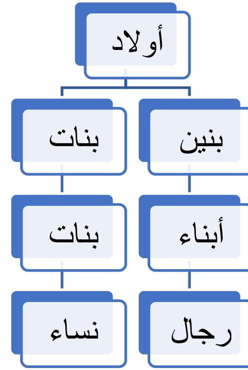
رأينا المفترى: لو حاولنا تدبر مفردة الرجال في السياقات القرآنية كلها، لوجدنا الترابط واضحا بين الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ

أَلَّا تَكْتُبُوهَاۗ وَأَشْهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعْتُمْۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفْعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمْۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿٢٨٢﴾ [البقرة: 282]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴿١﴾ [النساء: 1]
- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴿٧﴾ [النساء: 7]
- ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٣٢﴾ [النساء: 32]
- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ﴿٣٤﴾ [النساء: 34]
- ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ [النساء: 75]
- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ﴿٩٨﴾ [النساء: 98]
- ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴿١٧٦﴾ [النساء: 176]
- ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾ [الأعراف: 81]
- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ﴿٥٥﴾ [النمل: 55]
- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡهَدۡيَ مَعۡكُوفًا أَن يَبۡلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوۡلَا رِجَالٞ مُّؤۡمِنُونَ وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ [الفتح: 25]

لتكون النتيجة التي نحاول الوصول إليها هي أن مفردة الرجال (الذكور) يقابلها مفردة النساء (الإناث)، لذا وجب تصحيح الشكل التوضيحي السابق ليصبح على هذا النحو المفترى من عند أنفسنا:



وبهذا نحن نفهم أن مفردة البنات تشمل فئة من الإناث الذين لم يصلوا مرحلة المحيض (فالنكاح)، كما تشمل أيضا من وصل منهن مرحلة النكاح.

الدليل

قال تعالى:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٖۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]
- ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ١٤٩﴾ [الصافات: 149]
- ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ١٥٣﴾ [الصافات: 153]
- ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٖ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ١٦﴾ [الزخرف: 16]
- ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ٣٩﴾ [الطور: 39]

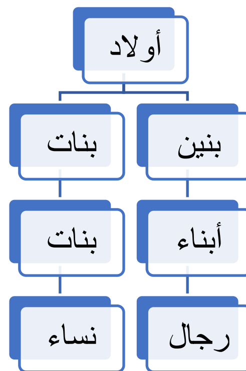
نتيجة مفتراة: نحن نظن أن مفردة البنات يقابلها البنين (البنون)، وهؤلاء هم الذين لم يبلغوا مرحلة النكاح

لكن الآيات الكريمة التالية تبيّن لنا أن مفردة البنات تقابل أيضا مرحلة الأبناء (أي من بلغ سن النكاح)، بدليل أن النكاح يمكن أن يتم على من كانت من البنات من الإناث، قال تعالى:

- ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]

- ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ٧٨﴾ [هود: 78]
- ﴿قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: 79]
- ﴿قَالَ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ ٧١﴾ [الحجر: 71]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: 50]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٩﴾ [الأحزاب: 59]
- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

نتيجة مفتراة (2): نحن نظن أن مفردة البنات يقابلها الأبناء، وهؤلاء هم الذين بلغوا مرحلة النكاح. ولتوضيح الفكرة في ذهن القارئ الكريم، فإننا ندعوه أن ينظر الجدول السابق مرة أخرى:



ليكون السؤال الآن هو: من المطلوب منهم تلبية النداء بالحج من بين هؤلاء جميعا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) أن المكلفين بالحج هم فئة الرجال فقط:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

السؤال: لم جاء التكليف خاصا بالرجال؟ وهل يستطيع كل الرجال تلبية النداء بالحج؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: بداية، نحن نظن أن النساء لسن مكلفات بتلبية النداء بالحج، كما نظن (مفترين القول من عند أنفسنا) بأن التكليف بأداء فريضة الحج لا يقع على جميع الرجال. فليس جميع الرجال مكلفين بذلك. انتهى.

السؤال: لماذا لا يقع التكليف على جميع الرجال؟ ألا يناقض هذا كل افتراءاتك السابقة؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لربما بان للقارئ الكريم ما نقصد من قولنا بأن التكليف بالحج لا يقع على كل الرجال. فالآية الكريمة (كما نفهمها) تبين لنا بأن هناك فئة من الرجال لا تستطيع أداء ما هو مطلوب منها، لذا فهي مستثناة من التكليف بغض النظر عن نوعه، قال تعالى:

- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ۝٩٨﴾ [النساء: 98]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون الهجرة (أي الانتقال من المكان الذي يتواجدون فيه):

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ۝٩٧ إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ۝٩٨﴾ [النساء: 97-98]

ولو تفقدنا الآية الكريمة الأخرى التالية، لوجدنا أن هؤلاء على وجه التحديد قد جاءهم الاستثناء من الانتقال من المكان الذي يتواجدون فيه، قال تعالى:

- ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ۝٧٥﴾ [النساء: 75]

لتصبح هناك – برأينا ثلاث فئات هم مستثنون جميعا من التكليف، وهم:

⇐ المستضعفون من الرجال
⇐ النساء
⇐ الولدان

رابعا، باب الفرق بين الأولاد والولدان

بداية، نحن نفتري القول بأن الأولاد (كما سبق وذكرنا) تشمل الذكور والإناث:

- ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝١١﴾ [النساء: 11]

وقد حذرنا الله من مغبة قتل أولادنا خشية إملاق:

- ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ۝١٥١﴾ [الأنعام: 151]

كما حذرنا من وأموالنا وأولادنا لأنهما جميعا فتنة لنا:

- ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [الأنفال: 28]

وبيّن لنا بأنهم لن ينفعونا يوم القيامة، ولن يقرّبونا عنده زلفى:

- ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٣﴾ [الممتحنة: 3]
- ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ۝٣٧﴾ [سبأ: 37]

ونهانا بأن تكون سببا في أن تلهينا عن ذكر الله:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ۝٩﴾ [المنافقون: 9]

لأن الأمر قد يصل إلى مرحلة العداوة:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٤﴾ [التغابن: 14]

لكن هؤلاء الأولاد يمرون بمرحلتين اثنتين وهما مرحلة الولدان، كما جاء بنص الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: 75]
- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النساء: 98]
- ﴿وَيَسۡتَفۡتُونَكَ فِي ٱلنِّسَآءِۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِيهِنَّ وَمَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ فِي يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِي لَا تُؤۡتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرۡغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلۡوِلۡدَٰنِ وَأَن تَقُومُواْ لِلۡيَتَٰمَىٰ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمٗا ١٢٧﴾ [النساء: 127]
- ﴿فَكَيۡفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرۡتُمۡ يَوۡمٗا يَجۡعَلُ ٱلۡوِلۡدَٰنَ شِيبًا ١٧﴾ [المزمل: 17]
- ﴿يَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ ١٧﴾ [الواقعة: 17]
- ﴿۞وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا مَّنثُورٗا ١٩﴾ [الإنسان: 19]

ومرحلة الرجولة، حيث ينقسم هؤلاء الولدان إلى أبناء وبنات، فيكونون قادرين على النكاح. وهنا ينتقل الأبناء ليصبحوا رجالا، وتصبح البنات نساء. فيصبح الجدول على النحو التالي:

مفرد	جمع	مرحلة عمرية (1)	مرحلة عمرية (2)	مرحلة عمرية (3)	مرحلة التكليف
ولد (ذكر)	أولاد	ولدان	بنين	أبناء	رجال
ولد (أنثى)	أولاد	ولدان	بنات	بنات	نساء

السؤال: ما علاقة هذا بقضية التكليف بالحج؟

رأينا المفترى: لو عدنا إلى الآية الكريمة التي تبين لنا التكليف بالحج، لوجدنا بأن القادرين على تلبية نداء الحج هم الرجال والنساء، قال تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

فالآية الكريمة (كما نفهمها) تتحدث عن فئتين، ففي حين أن الحديث في الجزء الأول جاء بصيغة التذكير (يَأْتُوكَ)، جاء الحديث في الجزء الثاني بصيغة التأنيث (يَأۡتِينَ). ونحن نفهم كذلك بأن الذين سيأتون من الذكور هم الرجال (وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا)، بينما اللاتي سيأتين من الإناث فهن النساء (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ). كما نفتري القول من عند أنفسنا بأن الرجال قادرون على أن يأتوا بأي وسيلة كانت سواء راجلين أم ركبانا، أم النساء فلا يستطعن الإتيان من كل فج عميق إلا ركبانا، أي على كل ضامر (وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ).

باب مفردة رجالا

وهنا لابد للقارئ الكريم أن يطرح التساؤل المثير التالي: ما علاقة مفردة رجالا في آية الآذن في الناس بالحج قيد التدبر الآن:

- ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

مع مفردة رجالا التي جاءت في الآية الكريمة التالية:

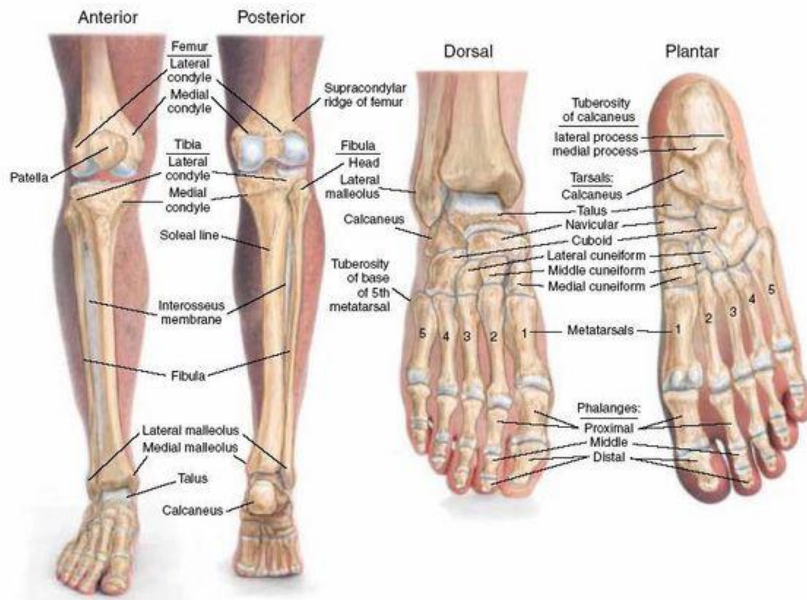
- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾ [البقرة: 239]

ليكون السؤال على وجه الدقة هو: ألا تعني مفردة رجالا المشي على الأرجل؟ ألا يقابلها مفردة ركبانا؟ فكيف إذن تزعم (ربما يريد صاحبنا أن يسأل) أن مفردة رجالا في آية الحج تعني فئة محددة من الذكور؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذه تساؤلات وجيهة جدا، لكن الإجابة عليها تتطلب بداية تدبر معنى المفردة بالدقة اللازمة.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم مفردة رِجَالًا إذن لنستطيع الربط بين الآيتين الكريمتين السابقتين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن مفردة رجالا لها علاقة مباشرة بالأرجل كما في الشكل التوضيحي التالي:



SOURCE:

ليكون السؤال المحوري الآن هو: ما هي الأرجل؟ أو ما هي الرِجل كعضو من أعضاء الجسم؟

جواب مفترى: بعد تفقدنا الآيات القرآنية الخاصة بمفردة الأرجل على مساحة النص القرآني، وجدنا التلازم واضحا بين الأرجل من جهة والأيدي من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]
- ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: 33]
- ﴿لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ١٢٤﴾ [الأعراف: 124]
- ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ٧١﴾ [طه: 71]
- ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤﴾ [النور: 24]
- ﴿قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَ فَلَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَۚ لَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ أَجۡمَعِينَ ٤٩﴾ [الشعراء: 49]
- ﴿ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٦٥﴾ [يس: 65]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُنَّ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٢﴾ [الممتحنة: 12]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن حدود الرجل يتجاوز الكعبين، لأن الوضوء للصلاة يتوقف عند حد الكعبين من الرجلين، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الله قد أمر المؤمنات من النساء بأن لا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن:

- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

وقد زعمنا القول في مقالات سابقة لنا بأن الضرب يتطلب إدخال شيء في شيء آخر، كما فعل موسى عندما ضرب البحر بعصاه:

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء: 63]

أو عندما ضرب الحجر، فانفلق وانفجرت منه أثنتا عشر عينا:

- ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾ [البقرة: 60]
- ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١٦٠﴾ [الأعراف: 160]

كما زعمنا القول أيضا بأن ضرب النساء في الآية الكريمة التالية:

• ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]

تتطلب فتح فرج المرأة لإدخال قضيب الرجل فيه حتى يصبح كل فرق كالطود العظيم كما في الأشكال التوضيحية التالية:



SOURCE:

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هناك انفراج بين الأيدي وبين الأرجل، قال تعالى:

• ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]

والأرجل هي الأداة التي تستخدم للمشي:

• ﴿أَلَهُمۡ أَرۡجُلٞ يَمۡشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَيۡدٖ يَبۡطِشُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ أَعۡيُنٞ يُبۡصِرُونَ بِهَآۖ أَمۡ لَهُمۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾ [الأعراف: 195]

• ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ رِجۡلَيۡنِ وَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰٓ أَرۡبَعٖۚ يَخۡلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٤٥﴾ [النور: 45]

والمرأة المؤمنة مأمورة بأن لا تضرب برجليها حتى لا يعلم ما تخفي من زينتها، وذلك لأن الضرب بالأرجل، أي إدخال شيء بالأرجل يؤدي أن يظهر شيء من زينة المرأة التي وجب عليها إخفاءها. فما هي؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل (ربما مخطئين) أنه عندما تضرب المرأة برجليها، فإنها تقوم بإدخال شيء في شيء، فيؤدي ذلك إلى إظهار شيء من زينتها، وهذا بالضبط ما تفعله – برأينا بالطبع- بعض النساء عندما يتجرأن على لبس ما يسمى بالبنطال كما في الأشكال التوضيحية التالية:



SOURCE:

نتيجة مفتراة خطيرة من عند أنفسنا خطيرة جدا: نحن نظن أن النهي الإلهي قد جاء للنساء المؤمنات بأن لا يضربن بأرجلهن مخافة أن يظهر شيء من زينتها، ونحن نفهم هذا النهي على نحو أن النساء مأمورات أن لا يخرجن لابسات البنطال فقط، لأن ذلك يكشف شيء من زينتها.

السؤال: ما علاقة هذا بالحج؟ أو بكلمات أخرى ما علاقة هذا بآية الحج التي وردت فيها مفردة رِجَالًا أصلا؟

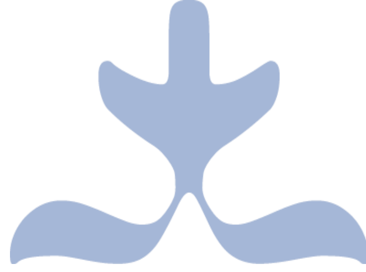
جواب مفترى: وأنا شو بدرينا؟! هو إحنا لسه دخلنا بموضوع الحج أصلا؟

هذا ما سنحاول فعله في المرة القادمة بحول الله وتوفيق منه، لذا،

لن نمل من دعاء ربنا أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزدنا علما وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

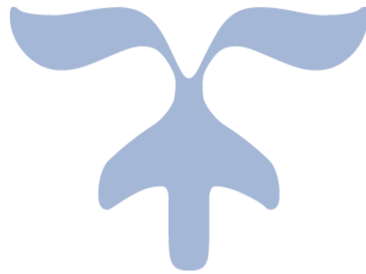
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
18 أيلول 2016



فقه الحج

الجزء الثاني



فقه الحج – الجزء الثاني

بدأنا النقاش في الجزء السابق من هذه المقالة في موضوع مشروعية الحج كعبادة مفروضة من الله على الرجال من الناس، واضطررنا للتدقيق بالمفردات القرآنية التي قد تبدو للوهلة الأولى ويكأنها واضحة للعيان. فانصب النقاش على مفردات مثل الناس، الأولاد، البنين، الأبناء، الرجال، البنات، والنساء. فكانت الافتراءات التي قدمناها حينئذ على النحو التالي:

⇐ الناس هم فئة الذكور المكلفين بالعبادة والقادرين على اتخاذ الشهوات، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾ [البقرة: 21]
- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]

⇐ الأولاد هم ذرية الناس من الذكور والإناث، قال تعالى:

- ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ... ١١﴾ [النساء: 11]

⇐ البنين هم ذرية الناس من الذكور الذين لم يبلغوا الحلم بعد (سن النكاح)، فكانوا جزءا من متاع الحياة الدنيا، وجزء من زينتها، قال تعالى:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]
- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

⇐ الأبناء هم ذرية الناس من الذكور الذين بلغوا الحلم (سن النكاح)، فكانوا قادرين على اتخاذ الحلائل، وقادرين كذلك على إحداث النفع، قال تعالى:

- ﴿...وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]
- ﴿...ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

⇐ البنات هي ذرية الناس من الإناث وتشمل الفئتين: من لم تبلغ منهن المحيض ومن بلغت منهن المحيض، فأصبحت مؤهلة للنكاح، قال تعالى:

- ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلۡجِنَّ وَخَلَقَهُمۡۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ١٠٠﴾ [الأنعام: 100]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: 50]

⇐ الخ

والجدول التالي يوضح – برأينا- العلاقة بين هذه الفئات العمرية:

مفرد	جمع	مرحلة عمرية (1)	مرحلة عمرية (2)	مرحلة عمرية (3)	مرحلة التكليف
ولد (ذكر)	أولاد	ولدان	بنين	أبناء	رجال
ولد (أنثى)	أولاد	ولدان	بنات	بنات	نساء

وكان الافتراء الأكبر يتمثل في التفريق بين مفردتي البنين (بنون) والأبناء، فزعمنا القول (ربما مخطئين) بأن البنين هي المرحلة العمرية للذكور من الذرية، حيث يكونوا جزء من متاع الحياة الدنيا وجزء من زينتها، فهم – برأينا- الذين لم يبلغوا مرحلة النكاح حتى يتخذوا حلال لهم، وهم غير القادرين بعد على إحداث النفع:

- ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]
- ﴿ٱلۡمَالُ وَٱلۡبَنُونَ زِينَةُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱلۡبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيۡرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ أَمَلٗا ٤٦﴾ [الكهف: 46]

بينما الأبناء – بالمقابل- فهم المرحلة العمرية التي تلي ذلك، أي عندما يصل الذكور من الذرية إلى مرحلة النكاح واتخاذ الحلائل، ويكونوا حينئذ قادرين على إحداث النفع:

- ﴿... وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٢٣﴾ [النساء: 23]
- ﴿... ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ لَا تَدۡرُونَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ لَكُمۡ نَفۡعٗاۚ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١١﴾ [النساء: 11]

وقد تسابق كثير من القراء لمقالاتنا (على قلتهم) إلى طرح التساؤل المثير التالي عن ما كان يفعل فرعون وقومه ببني إسرائيل في أرض مصر، حيث كانوا يقتّلون أبناءهم ويستحيون نساءهم:

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]
- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

فكان مثار الاعتراض عند بعض القراء هو ظنهم التالي (كما فهمناه): ما دام أن فرعون كان يذبّح أبناء بني إسرائيل، فإن ذلك يعني أن مفردة الأبناء تشمل الذرية من الذكور منذ نعومة أظفارهم، أي قبل أن يبلغوا سن النكاح، ويكأن لسان حال إخواننا القراء يقول بأن هذا دليل كاف على عدم صحة زعمنا السابق، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الاستدراك قد خطر ببال كثير من القراء وذلك – برأينا- لفهمهم المغلوط للقصة بسبب الموروث السائد الذي وصلنا جميعا من عند سادتنا أهل الدراية، فلقد جُبل الفكر الشعبي الإسلامي على الظن بأن فرعون كان يعمد إلى تقتيل أبناء بني إسرائيل منذ نعومة أظفارهم، أي منذ سن الطفولة، أليس كذلك؟

رأينا البديل: نحن نكاد ننفي جملة وتفصيلا مثل هذا الفكر الشعبي، وذلك لأن فيه من البساطة ما يكننا من دحضه (نحن نرى) بكل يسر وسهولة. فمراد القول عندنا هو أن فرعون لم يكن ليذبح "بنين" بني إسرائيل وإنما كان يذبح "أبناءهم"، أي من بلغ منهم مرحلة الحلم، وذلك للأسباب التالية:

أولا، كان فرعون يعبّد بني إسرائيل في أرض مصر، بدليل قول الله تعالى على لسان موسى:

- ﴿وَتِلۡكَ نِعۡمَةٞ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنۡ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٢٢﴾ [الشعراء: 22]

فلو كان فرعون (نحن نتخيل) يذبح كل أبناء بني إسرائيل منذ مرحلة الطفولة، فكيف به سيعبدهم؟ ومن إذن سيقوم بالخدمة في أرض مصر زمن حكم الفرعون؟ من يدري؟!

ثانيا، ها هم آل فرعون يطلبون من فرعون نفسه أن لا يذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض (حسب ظنهم):

- ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوۡمَهُۥ لِيُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَنَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡ وَإِنَّا فَوۡقَهُمۡ قَٰهِرُونَ ١٢٧﴾ [الأعراف: 127]

فمن هم بنو إسرائيل الذين كانوا متواجدين حينئذ حتى يطلب الملأ من آل فرعون من فرعون نفسه أن لا يذر موسى وقومه؟ ألم يبدأ تقتيل فرعون لأبناء بني إسرائيل منذ ميلاد موسى على الأقل (إن لم يكن التقتيل أصلا قد بدأ فيهم من ذي قبل)؟ أليس موسى الآن قد بلغ أشده واستوى عندما عاد بالرسالة إلى فرعون وقومه؟ فكيف تبقى لبني إسرائيل في أرض مصر ذرية منذ ولادة موسى وحتى عودته إلى فرعون وقومه بالرسالة؟ من يدري؟!

ثالثا، ها هم بنو إسرائيل أنفسهم يقولون بملء الفيه بأن الأذى قد وقع عليهم من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم:

- ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ١٢٩﴾ [الأعراف: 129]

فمن هم قوم موسى الذين وقع عليهم الأذى من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم لو أن فرعون كان فعلا يقتل كل أبناء بني إسرائيل (في مرحلة الطفولة) كما ظن أهل الدراية من قبلنا؟ من يدري؟!

رابعا، لو صح ما قاله سادتنا العلماء، فمن هو هذا الرجل من بني إسرائيل الذي استنصر موسى عندما دخل المدينة على غفلة من أهلها؟

- ﴿وَدَخَلَ ٱلۡمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفۡلَةٖ مِّنۡ أَهۡلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيۡنِ يَقۡتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنۡ عَدُوِّهِۦۖ فَٱسۡتَغَٰثَهُ ٱلَّذِي مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِي مِنۡ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيۡهِۖ قَالَ هَٰذَا مِنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوّٞ مُّضِلّٞ مُّبِينٞ ١٥﴾ [القصص: 15]

فكيف إذن سلم هذا الرجل من القتل مادام أن فرعون كان يقتل كل أبناء بني إسرائيل في مرحلة الطفولة (حسب منطق سادتنا العلماء)؟ فإذا كانت نجاة موسى من القتل قد تمت بتدبير إلهي، فهل نجاة مثل هذا الرجل قد تمت بتدبير إلهي أيضا؟ من يدري؟!

خامسا، إذا كان فرعون يعمد إلى تقتيل كل أبناء بني إسرائيل في مرحلة الطفولة (كما أورثنا الفكر الشعبي التقليدي)، فمن أين ستتحصل الذرية من الإناث في بني إسرائيل حتى يتمكن فرعون من استحياء نساءهم؟ فهل يمكن أن تتحصل الذرية لبني إسرائيل من الإناث لو أن فرعون أهلك تماما ذريتهم من الذكور؟ من يدري؟!

سادسا، إذا كان فرعون قد عمد إلى تقتيل كل أبناء بني إسرائيل في مرحلة الطفولة (كما أخبرنا الفكر التقليدي)، فمن هم الذين جاء موسى ليطلب لهم الخروج من عند فرعون؟

- ﴿حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ قَدۡ جِئۡتُكُم بِبَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَأَرۡسِلۡ مَعِيَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٠٥﴾ [الأعراف: 105]
- ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: 16-17]

سابعا، إذا كان فرعون قد عمد إلى تقتيل كل أبناء بني إسرائيل في مرحلة الطفولة (كما أخبرنا الفكر التقليدي)، فمن هم هؤلاء الذين جاوز الله بهم البحر مع موسى؟ أليس هم بنو إسرائيل؟ من يدري؟!

- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]
- ﴿۞وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتۡبَعَهُمۡ فِرۡعَوۡنُ وَجُنُودُهُۥ بَغۡيٗا وَعَدۡوًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ٩٠﴾ [يونس: 90]

الفكر البديل: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن يكون فرعون قد عمد فعلا إلى إهلاك كل ذرية بني إسرائيل بتقتيل أبناءهم، كما نرفض أيضا الظن بأن يكون فرعون قد كان يقتل أبناء بني إسرائيل في مرحلة الطفولة، وذلك لأن فرعون يحتاج إلى ذرية من بني إسرائيل ليعبدهم، كما يحتاج إلى ذرية منهم للتكاثر حتى يكون فيهم نساء يمكن لفرعون أن يستحييهن.

الدليل

لو تفقدنا جميع السياقات القرآنية التي تبين لنا ما كان يفعل فرعون وقومه ببني إسرائيل في أرض مصر، لوجدنا أنهم كانوا يقومون بفعلين اثنين، وهما تقتيل الأبناء واستحياء النساء. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياقات القرآنية التي جاءت في كتاب الله بهذا الصدد مرة أخرى. قال تعالى:

- ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ١٤١﴾ [الأعراف: 141]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ أَنجَىٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾ [إبراهيم: 6]
- ﴿إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٤﴾ [القصص: 4]

لنخرج بالاستنباط الخطير جدا لتالي: مادام أن فعل الاستحياء كان يقع على نساء بني إسرائيل وليس على بنات بني إسرائيل، فإننا نفتري الظن بأن فعل التقتيل كان يقع على أبناء بني إسرائيل وليس على بنين بني إسرائيل. انتهى.

السؤال: لماذا؟ وكيف كان يحصل ذلك على أرض الواقع؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل ما كان يجري في أرض مصر حينئذ على النحو التالي: كانت الغلبة في أرض مصر حينئذ لفرعون وقومه على بني إسرائيل، فكانوا فوقهم قاهرين. وكان على فرعون (نحن لازلنا نتخيل) أن يتخذ من بني إسرائيل عبيدا له ولقومه في أرض مصر، فلم يكن ليعمد إذا إلى هلاك ذرية بني إسرائيل بالكامل، وذلك لأغراض منفعية بحته له ولقومه. فنحن نتخيل ما جرى في أرض مصر حينئذ على نحو أن فرعون قد قسم أرض مصر التاريخية إلى قسمين اثنين، فكان بنو إسرائيل يسكنون الأرض (أرض مصر):

- ﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الإسراء: 104]

وكان فرعون وقومه يتخذون عروشا فوقهم:

- ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: 136]

(للتفصيل انظر المقالات السابقة)

فما كان أحد من قوم موسى (بني إسرائيل) ليجرؤ الخروج على فرعون وقومه، فحصل لهم الأذى من قبل أن يأتيهم موسى ومن بعد ما جاءهم:

- ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: 129]

ولما كان فرعون حريصا على عدم هلاك كل ذرية بني إسرائيل في أرض مصر، كان عليه أن يترك أولادهم من الذكور والإناث حتى يصلوا مرحلة الحلم، فيقوم فرعون بنفسه كما يقوم قومه من بعده بفعل استحياء نساء بني إسرائيل، وفي الوقت ذاته يعمد إلى تقتيل أبناء بني إسرائيل. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن فرعون كان يوقع التقتيل في أبناء بني إسرائيل الذين يحاولون الخروج والتمرد عليه. فمادام هؤلاء الذرية من ذكور بني إسرائيل خاضعين خانعين يرضون بالأذى ويقبلون الاستعباد في الأرض، فإن هذا لا يشكل خطرا على فرعون وقومه، بل على العكس فإن الفائدة المرجوة من وجودهم تتحقق لفرعون وقومه بعدم تقتيلهم. ولكن لو حصل أن حاول نفر من أبناء بني إسرائيل الخروج على فرعون وقومه، رافضا الأذى والعبودية الواقعة عليهم حينئذ، لم يكن فرعون ليتردد في قتله، وليس أدل على ذلك - برأينا- من حادثة الرجلين اللذين كان يقتتلان عندما دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها:

- ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

وهنا نطرح التساؤلات ة التالية تباعا:

⇐ لماذا دخل موسى المدينة على حين غفلة من أهلها؟

⇐ أين كان موسى متواجدا أصلا قبل أن يدخل المدينة على حين غفلة من أهلها؟

⇐ ألم يكن هاربا خارج المدينة؟ لم أصلا هرب من المدينة هذه المرة؟

⇐ إذا كنا نعلم أن موسى قد خرج خائفا يترقب في المرة الثانية متجها إلى مدين بعد أن قتل الرجل في اليوم الأول وحاول في صبيحة اليوم التالي أن يقتل الرجل الآخر، فلم كان هاربا متواجدا خارج المدينة قبل ذلك؟

⇐ الخ

رأينا: نحن نظن أنه من سذاجة التفكير أن يظن المرء بأن فرعون لم يكن على دراية تامة بأن موسى أصلا من بني إسرائيل، فهو الذي وجه لموسى الخطاب قائلا:

- ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾﴾ [الشعراء: 18]

السؤال: لماذا إذن رضي فرعون أن يتربى أحد من بني إسرائيل فيهم مادام أنه أصلا كان يقتل أبناءهم؟

رأينا المفترى: ربما يرى المقلد للفكر الشعبي بأن محاولة فرعون لقتل موسى وليدا (عندما التقطه آل فرعون من اليم) دليلا على أن فرعون كان يقتل أبناء بني إسرائيل في سن الطفولة، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نرفض هذا السيناريو على الأقل لسببين اثنين، وهما:

1. كان الدافع عند فرعون وآله لمحاولة قتل الطفل موسى هو (نحن نرى)عدم معرفتهم حينها لنسب هذا الطفل الذي جاء من الماء، فهم الذين حيّرهم سر وصول هذا الطفل إلى الماء بهذه الطريقة، فكان لابد (بالنسبة لهم) من التحقق من نسبه قبل كل شيء.

2. ثانيا، لو كان فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل في سن الطفولة، لما تمكنت أم موسى من كتمان خبر وليدها حتى ترضعه، ويصل مرحلة الفطام (للتفصيل انظر المقالات السابقة).

وهذا يدعونا إلى تبني الفكرة التي نحاول الترويج لها بأن فرعون لم يكن ليعمد إلى تقتيل ذرية بني إسرائيل في مرحلة الطفولة (أي بنين) وإنما كان ينتظر حتى تصل هذه الذرية من الذكور إلى مرحلة البلوغ (أي الأبناء)، وربما يوصلنا مثل هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا (على ركاكته) إلى السؤال المحوري الخاص بهروب موسى من أرض مصر في المرة الأولى فما عاد ودخل المدينة من جديد إلا عندما كان أهلها كلهم في غفلة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لبث موسى في آل فرعون سنين من عمره، وكان المدافع الأول عنه حينئذ هي امرأة فرعون التي أصرت على اتخاذه ولدا لها ولبعلها (أي فرعون نفسه). فلم تكن لتدع فرعون وآله ليقتلوا موسى بحجة المنفعة واحتمالية اتخاذه ولدا. ولكن ما أن طلبت تلك المرأة المؤمنة بربها النجاة من فرعون وعمله بالموت:

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحريم: 11]

حتى ظهرت علامات الإصلاح على موسى، بدليل أن الناس كانوا يعرفون تماما بأن موسى كان يريد أن يكون من المصلحين كما جاء على لسان الرجل الذي حاول موسى في اليوم التالي قتله من آل فرعون:

- ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: 19]

وما أن بدأ موسى يُظهر في تلك المرحلة العمرية مقاومته لسياسة فرعون الذي كان من المفسدين، ولما كان موسى يحاول أن يكون من المصلحين (وليس جبارا في الأرض كفرعون)، لم يكن ذلك ليرضي فرعون نفسه وملئه من حوله، فكان لابد من قتل موسى (حسب منطق فرعون وآله)، فكان هذا - برأينا- السبب الذي دفع بموسى للخروج من المدينة في المرة الأولى. ونحن نكاد نتخيل أن فئة ممن هم حول فرعون حينئذ بمن فيهم امرأة فرعون ووالد هارون (ذو الكفل) وذاك الرجل الصالح الذي جاء يسعى من أقصى المدينة ليحذر موسى من تآمر الملأ به هم جميعا من سهّل لموسى باب الخروج من أرض مصر عندما بلغ مرحلة البلوغ، أي أصبح من فئة أبناء بني إسرائيل الذين وجب فيهم (حسب منطق فرعون وآله) القتل. فتوجه موسى إلى الأرض المقدسة يحمل بيده الهدية الأثمن والجائزة الأكبر التي حصل عليها من بيت فرعون نفسه، ألا وهي العصا، ومكث هناك في الأرض المقدسة (نحن نتخيل) حتى بلغ أشده واستوى، فآتاه الله حكما وعلما هناك:

- ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: 14]

وفي تلك الفترة تحصل لموسى العلم بموت الفرعون الأول (عدو الله وعدوه)، فدخل المدينة على حين غفلة من أهلها، أي عندما كان هناك فراغ سياسي بخلو عرش مصر من وصول الفرعون التالي إليه مادام أن الذرية لم تتحصل للفرعون الأول (للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان قصة موسى). وفي هذه الأثناء حصل تمرد من قبل بني إسرائيل على السلطة الرسمية (الفرعونية)، فحصل شجار بين الطرفين:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص: 15]

فعاد موسى ليقود حملة الإصلاح من جديد، إلا أنه وقع بالمحظور، فظلم نفسه عندما وكز عدوه فقضى عليه. فاضطر موسى للهرب من المدينة مرة أخرى متجها هذه المرة إلى مدين، فمكث فيها عشرة حجج، أجيرا عند صاحبها، لقاء أنه أنكحه أحدى ابنتيه:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

(للتفصيل أنظر الأجزاء السابقة)

إن ما يهمنا من هذا الاستطراد (ربما غير الضروري) هو تأكيد فكرتنا (ربما مخطئين) لمعنى مفردة الأبناء على نحو أنها تصف الفئة العمرية للذرية من الذكور الذين بلغوا سن النكاح، ولنعيد فهم قصة موسى وفرعون من هذا الباب، حيث يصبح المنطق المفترى من عند أنفسنا على نحو أن فرعون لم يكن ليقتل أبناء بني إسرائيل بمجرد ولادتهم (أي في مرحلة البنين)، وإنما كان يعمد إلى ذلك في مرحلة الأبناء (سن البلوغ)، حيث يبين له ولقومه مَن مِن أبناء بني إسرائيل يستحق أن يقتل ومن منهم يستحق أن يبقى فرعون على حياته من أجل تقديم خدمة العبودية لفرعون نفسه ولقومه من بعده.

عودة على بدء

نعود من هذا النقاش إلى المفردات الأخرى التي حاولنا تبيان معانيها في الجزء السابق، ونخص هنا مفردتي الرجال والنساء، فلقد وجدنا التقابل واضحا في آيات الكتاب الحكيم بين مفردتي الرجال من جهة والنساء من جهة أخرى. فحاولنا تدبّر هاتين المفردتين على وجه التحديد في جميع سياقاتها القرآنية مادام أن الهدف هو فهم الآية الكريمة التي جاءت خاصة بالتكليف بالحج، وهي قوله تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

فكان السؤال الذي طرحناه في نهاية الجزء السابق من هذه المقالة هو: ما معنى مفردة رِجَالًا التي جاءت في سياق هذه الآية الكريمة؟

وحاولنا تسطير افتراءنا بأن المفردة تعني الرجال المكلفين بأداء فريضة الحج، ففهمنا الجزء الأول من هذه الآية الكريمة على نحو أنها تشير للذكور بدليل الفعل يَأْتُوكَ بينما فهمنا (ربما مخطئين) الجزء الثاني من الآية الكريمة نفسها على نحو أنها موجهة للنساء بدليل الفعل يَأْتِينَ. وزعمنا الظن بأن الحج الذي يقوم به الرجال يقع في باب التكليف بينما الحج الذي تقوم به النساء يقع في باب التشريف وليس التكليف.

وعندها حاولنا الربط بين مفردة رِجَالًا التي جاءت في هذه الآية الكريمة الخاصة بفريضة الحج:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

مع مفردة رِجَالًا التي ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ [البقرة: 239]

وعند استعراض جميع السياقات القرآنية التي وردت فيها مفردة رجل، وهي:

- ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكۡتُمۡنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِيٓ أَرۡحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤۡمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنۡ أَرَادُوٓاْ إِصۡلَٰحٗاۚ وَلَهُنَّ مِثۡلُ ٱلَّذِي عَلَيۡهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٢٢٨﴾ [البقرة: 228]
- ﴿فَإِنۡ خِفۡتُمۡ فَرِجَالًا أَوۡ رُكۡبَانٗاۖ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ٢٣٩﴾ [البقرة: 239]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: 1]
- ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنۡهُ أَوۡ كَثُرَۚ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ٧﴾ [النساء: 7]
- ﴿وَلَا تَتَمَنَّوۡاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعۡضَكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ٣٢﴾ [النساء: 32]
- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]
- ﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ٧٥﴾ [النساء: 75]

- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النساء: 98]
- ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ١٧٦﴾ [النساء: 176]
- ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ وَعَلَى ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٞ يَعۡرِفُونَ كُلَّۢا بِسِيمَىٰهُمۡۚ وَنَادَوۡاْ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ أَن سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡۚ لَمۡ يَدۡخُلُوهَا وَهُمۡ يَطۡمَعُونَ ٤٦﴾ [الأعراف: 46]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَعۡرَافِ رِجَالٗا يَعۡرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمۡ قَالُواْ مَآ أَغۡنَىٰ عَنكُمۡ جَمۡعُكُمۡ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَكۡبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]
- ﴿إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ٨١﴾ [الأعراف: 81]
- ﴿لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: 108]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ أَفَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۗ وَلَدَارُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ١٠٩﴾ [يوسف: 109]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٤٣﴾ [النحل: 43]
- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۖ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٧﴾ [الأنبياء: 7]
- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]
- ﴿وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [النور: 31]
- ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]
- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ٥٥﴾ [النمل: 55]
- ﴿أَئِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقۡطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأۡتُونَ فِي نَادِيكُمُ ٱلۡمُنكَرَۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوۡمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٩﴾ [العنكبوت: 29]
- ﴿مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ [الأحزاب: 23]

- ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ۝٤٠﴾ [الأحزاب: 40]
- ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ [ص: 62]
- ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٢٥﴾ [الفتح: 25]
- ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: 6]

خرجنا بالاستنباط (ربما مخطئين) الذي مفاده أن هناك علاقة بين مفردة رجالا التي تعني (الذكور من الناس):

- ﴿وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ۝٦٢﴾ [ص: 62]
- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٨﴾ [الأعراف: 48]

ورجالا التي تعني السير على الأرجل:

- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ [البقرة: 239]

فكلاهما (نحن نرى) مشتق من الجذر الثلاثي (ر ج ل)، كما في الشكل التالي:

رَجل	رجالا
رِجل	رجالا

ليكون السؤال على الفور هو: ما العلاقة بين المفردتين؟ ولماذا يشتركان في الجذر الثلاثي نفسه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الحاجة تتطلب التدقيق في جميع أشكال هذه المفردات ومشتقاتها كما في الجدول التالي:

مفرد	مثنى	جمع	حال
رَجل	رَجلين	رجال	رجالا
رِجل	رِجلين	أرجل	رجالا

باب رَجلين ورِجلين

لعل من أوضح الفروقات بين المفردتين تأتي في صيغتي المثني والجمع. أما في صيغة المثنى فالفرق واضح بالحركة، حيث تكون حركة حرف الراء مفتوحة في مفردة رَجلين ومكسورة في مفردة رِجلين: وانظر التقابل بينهما في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ١٥﴾ [القصص: 15]
- ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٤٥﴾ [النور: 45]

باب رجال وأرجل

أما في صيغة الجمع، فإن لكل واحد أيضا منهما صيغة في الجمع تختلف عن الأخرى، ففي حين أن الأولى تجمع على رجال، فإن الثانية تجمع على أرجل. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في التقابل بين الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ٣٧﴾ [النور: 37]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٦﴾ [المائدة: 6]

باب رجالا

في حين أن القارئ للنص القرآني قد لا يجد صعوبة في تمييز صيغتي المفرد (رَجل ورِجل) والمثنى (رَجلين ورِجلين) والجمع (رجال وأرجل) لهاتين المفردتين، تكمن الصعوبة في صيغة الحال الواحدة (رِجَالًا) لكلا المفردتين، كما في الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَىٰهُمْ قَالُوا۟ مَآ أَغْنَىٰ عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ ٤٨﴾ [الأعراف: 48]
- ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ ٢٣٩﴾ [البقرة: 239]

ليكون السؤال على الفور هو: إلى أي الصيغتين يمكن أن ترتبط مفردة رِجَالًا الواردة في الآية الكريمة الخاصة بالآذان بالحج التالية؟

- ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧﴾ [الحج: 27]

السؤال المحوري: هل يمكن أن نفهم هذه المفردة على نحو رِجَالًا (أي البالغين المكلّفين من الذكور) أم رِجَالًا (السعي على الأقدام)؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نفتري القول أننا يجب أن نحمل المفردة على كلا المعنيين، أي رجال (بالغين مكلفين) يمشون على أقدامهم. فالمفردة برأينا تصور لنا حال هؤلاء المكلفين بالقيام بفريضة الحج. انتهى.

تبعات هذا الظن

إن من أخطر تبعات هذا الفهم المفترى هو التالي:

- ⇐ الحج فريضة مكلف بها من بلغ الحلم من الذكور (رِجَالًا)
- ⇐ الحج فريضة على من بلغ الحلم من الذكور يقومون بها سيرا على الأقدام (رِجَالًا)
- ⇐ لا يقع التكليف على من لا يستطيع السير على الأقدام من الرجال (أي المستضعفين من الرجال)
- ⇐ لا يقع مثل هذا التكليف على النساء
- ⇐ لا يقع مثل هذا التكليف على الولدان
إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً (98)
- ⇐ الخ.

الدليل

لو تفقدنا آية الكتاب الحكيم التالية الخاصة بالحج، لوجدنا أنها توجه الخاطب للذكور فقط، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أنها تخاطب الذكور أيضا:

- ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ٢٧﴾ [الفتح: 27]

وهذا يقودنا إلى تقديم الافتراء الخطير جدا التالي الذي نظن أنه (إن صح) ربما يقلب الأمور كلها رأسا على عقب، ألا وهو: لا يقع الحج (بدخول المسجد الحرام) إلا على من وجب عليه الحلق والتقصير.

لذا، نحن نفتري القول بأنه مادام دخول المسجد الحرام يتطلب الحلق والتقصير، فإن ذلك يدل برأينا (ربما مخطئين) على عدم إلزامية الإناث بالحج، لأنهن غير مشمولات بشعيرة الحلق والتقصير. انتهى

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: من أجل محاولة الوقوف على الحكمة من إلزامية الحلق والتقصير (كشعيرة) لمن يدخل المسجد الحرام في مهمة إتمام الحج والعمرة لله، فإن هذا يتطلب منا العودة إلى محاولة فهم شعائر الحج كلها، وطريقة القيام بها لمن أراد أن يتم الحج والعمرة لله.

وبناء على هذا، دعنا نعود إذن للقصة من بدايتها، محاولين تقديم افتراءات نظن أنها غير مسبوقة، مؤكدين في الوقت ذاته لمن أراد المحافظة على إرث الآباء والأجداد أن يتوقف عن القراءة فورا، وليشغل نفسه في ما هو أكثر فائدة له، يجنيها من بطون الكتب الصفراء التي سطرها لهم الآباء في مؤلفات عظيمة يصعب تركها أو حتى وضع ما جاء فيها على طاولة البحث والنقاش.

أما بعد

باب الحلق والتقصير

إن من أول المخالفات في تطبيق شعائر الحج التي نظن أن سادتنا العلماء (أهل الدراية) قد أوقعوا الناس فيها هي هذه القضية، فلقد وصلنا من عند سادتنا العلماء أهل الدراية كما نقله لنا أهل الرواية منهم بجواز الحلق أو التقصير وليس وجوب الحلق والتقصير معا، أليس كذلك؟ لكن لو قرأ طالب المدرسة الذي لم يحصل على إجازات علمية بعد الآية الكريمة السابقة، لخرج على الفور بالاستنباط الذي مفاده إلزامية الحاج القيام بفعلي الحج والتقصير معا (مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ)، ولا يكتفي بواحدة من الاثنتين كما زعم أهل الدراية من قبلنا، قال تعالى:

- ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح: 27]

فالطلب الإلهي إذن واضح على نحو (مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ). فهل بعد هذا القول الفصل مجال للمهادنة بواحدة دون الأخرى؟ هل يكتفي الحاج بالحلق؟ أم هل يكتفي بالتقصير (كما زعم السواد الأعظم من سادتنا العلماء أهل الدراية)؟

رأينا: كلا وألف كلا. فالحاج مطلوب منه أن يقوم بفعلي الحلق والتقصير معا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن الحاج الذي يكتفي بفعل التقصير (ولا يقوم بالحلق) قد أضاع شعيرة كبيرة من شعائر الحج التي طلب الله منا أن نعظمهما، قال تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: 32]

(دعاء: اللهم رب أدعوك بأن أكون من عبادك المخلصين الذين يعظمون شعائرك، وأسألك وحدك أن أكون من أولي الألباب الذي يتذكرون فيتقون فلا يسحرون، إنك أنت العليم الحكيم - آمين)

السؤال: وكيف ذلك؟ أي كيف يختلف الحلق عن التقصير؟ وما الذي يجب حلقه وما الذي يجب أن يقصر؟

رأينا المفترى: نحن نظن جازمين القول بأن الحلق يصيب الرأس بدليل قوله تعالى (مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ) ولكن التقصير – بالمقابل – يصيب ما يمكن تقصيره وليس حلقه من أجزاء الجسم الأخرى، كاللحى وشعر البط والعانة والأظافر. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن حلق الرأس هو فعل إلزامي بدليل أن من كان به أذى من رأسه فعليه كفارة كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

السؤال: ما علاقة هذا بعدم إلزامية النساء بشعائر الحج كالرجال؟

رأينا المفترى: إن منطقنا المفترى من عند أنفسنا هو على نحو أنه لو كان تقصير شعر الرأس جائزا (كما روج لذلك كثير من أهل الدراية من قبلنا)، لما كان هناك فدية مفروضة على من كان به أذى من رأسه، أليس كذلك؟

لكن مادام أنه قد وجب على من كان به أذى من رأسه فدية (مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ)، فإن حلق الرأس لمن لم يكن به أذى من رأسه واجبا لا هوادة فيه. ليكون السؤال الخطير الآن هو: هل تلزم المرأة بحلق شعر رأسها في أشهر الحج؟ وهل يجب عليها الفدية إن كان بها أذى من رأسها؟

الجواب: كلا وألف كلا، فالمرأة ليست ملزمة بالحلق ولا بالتقصير وليست ملزمة أيضا بالفدية.

تبعات هذا الظن الخطيرة جدا جدا

لما كان دخول المسجد الحرام لا يقع إلا على من قام بفعل حلق الرأس (أو على من قدم فدية لمن كان به أذى من رأسه)، فإن هذا يعفي النساء من دخول المسجد الحرام لأنهن غير ملزمات بحلق رؤوسهن. انتهى.

السؤال: وماذا تفعل النساء في الحج إذن؟

رأينا المفترى والخطير جدا: نحن نظن أن من الممكن للنساء حضور المسجد الحرام، لكن لا يجب عليهن القيام في البيت الحرام. انتهى.

السؤال: ما الفرق بين دخول المسجد الحرام والقيام بالبيت الحرام؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن أحدهما تتحدث عن المسجد الحرام، وهنا يأتي ذكر الأهل، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ونجد أن الآية الكريمة الأخرى تتحدث عن المسجد الحرام الذي يدخله الرجال المحلقين رؤوسهم والمقصرين فقط:

- ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ ۖ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: 27]

بينما نجد أن الكعبة البيت الحرام هي قيام للناس فقط:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾ [المائدة: 97]

نتيجة مفتراة: في حين أن الله قد شرع للأهل (بمن فيهم النساء) حضور المسجد الحرام إلا أنه لم يكلفهن بفعل القيام بالبيت الحرام (الكعبة)، مادام أن البيت الحرام هو قيام للناس فقط.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أننا نستطيع استنباط جد الإجابة على هذا التساؤل من الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها)، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾
[الحج: 26-29]

فلو تدبرنا هذه الآيات الكريمة الخاصة بمكان البيت، لوجدنا أنها موجهة للذكور بدليل صيغة التذكير في كل الأفعال الواردة فيها، ولعل أهمها على الإطلاق هو فعل الطواف بالبيت العتيق (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ).

السؤال: ما مراد القول عندك؟ هل يمكن التوضيح أكثر؟ يسأل صاحبنا مستغربا

جواب مفترى: نحن نظن أنه في حين أنه قد وجب على الرجال من الناس الطواف بالبيت العتيق إلا أن النساء غير مكلفات بهذا الفعل. انتهى.

نتائج مفتراة:
فعل الحج إلزامي على الرجال
فعل الحج ليس إلزامي على النساء
فعل الحلق والتقصير إلزامي على الرجال
فعل الحلق والتقصير ليس موجها للنساء
فعل الطواف بالبيت العتيق إلزامي على الرجال
النساء غير مطلوب منهن الطواف بالبيت العتيق
الخ

السؤال: لماذا لا تلزم المرأة بفعل الطواف بالبيت العتيق؟

جواب مفترى: نحن نظن أن فعل الطواف يقع على من يأتي من الناس الذين أذن بهم رِجَالًا:

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن فعل الطواف بالبيت العتيق (وكذلك سائر شعائر الحج) لا يقع إلا من كان قادرا على القيام به من الرجال مشيا على الأقدام (أي رِجَالًا). لذا فإن المشاهدات التي

نراها في وقت الطواف مثل طواف النساء وطواف غير القادرين بالحمل على الأكتاف أو باستخدام الأدوات الكهربائية غير صحيح.

الدليل

دعنا نقرأ الآية الكريمة التالية:

- ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾ [الفتح: 17]

لسؤال: لماذا لم يجعل الله حرجا على الأعرج؟

رأينا المفترى: مادام أن الله لم يجعل على الأعرج حرجا، فإن هذا يعفيه (نحن نظن) من القيام بالمهمة التي تتطلب استخدام رجليه فيها كالحج مثلا. فمن أراد الحج للبيت العتيق (أي أداء شعائر الحج في أشهر الحج)، فعليه أن يقوم بهذه المهمة سعيا على رجليه، قال تعالى:

- ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: 158]

فالطواف بالبيت العتيق والطواف بين الصفا والمروة هي من شعائر الله التي وجب أن يقوم بها من كان قادرا على ذلك، ونحن نظن بأن من أول موجبات القدرة على ذلك هي السعي على الأقدام (أي رِجَالًا).

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا يعيدنا على الفور إلى الآية الكريمة التالية:

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]

فالحج – حسب الآية الكريم- هو أشهر معلومات، أليس كذلك؟

جواب: نعم، لكن ما علاقة هذا بمفردة رجالا؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن من فرض الحج في أشهر الحج، فعليه القيام بجميع الشعائر خلال هذه الأشهر المعلومة ماشيا على رجليه (أي رجالا).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: إن هذا الظن المفترى من عندنا يعيدنا إلى الوراء أكثر لتدبر مفردة الأشهر التي جاءت في هذه الآية الكريمة (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ)، لنطرح السؤال المحوري التالي: ما هي أشهر الحج؟

جواب مفترى: لقد تعرضنا لهذه الجزئية في سلسلة مقالات سابقة، ولا نجد ضيرا من إعادة هذه الافتراءات هنا لعلاقتها المباشرة بموضوع النقاش. (للتفصيل انظر سلسلة مقالات ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الشهر، والجزء الحادي والعشرين من قصة يونس).

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لقد افترينا القول سابقا بأن مفردة الشهر تجمع على وجهين وهما أشهر وشهور، كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]
- ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ وَقَٰتِلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ كَآفَّةٗ كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمۡ كَآفَّةٗۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٣٦﴾ [التوبة: 36]

فكان سؤالنا الذي طرحناه حينئذ هو: هل هناك فرق بين مفردة أشهر (ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ) ومفردة شهور (إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ)؟ وإذا كان هناك فرق بين اللفظتين، فما هو؟

وعندما لتعرضنا لأشهر الحج على وجه التحديد، طرحنا التساؤلات التالية:

⇐ هل فعلا نحج أشهرا؟

⇐ وما هي تلك الأشهر التي تسمى أشهر الحج؟

⇐ وإذا كنا نحج أشهرا (بالمعنى الدارج للمفردة، أي فترة 29-30 يوما لكل شهر)، فكيف بنا نؤمر بأن لا نرفث إلى نسائنا طوال تلك الفترة كلها؟

⇐ فهل نقدر على ذلك والله هو من علم أننا كنا نختان أنفسنا في شهر رمضان، وهو شهر واحد، فأحل لنا الرفث إلى نسائنا في ليلة الصيام في ذلك الشهر؟

- ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ

حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: 187]

⇐ وهل يجوز الحج في كل تلك الأشهر؟ ولماذا يتم الحج في وقت محدد من العام إذن؟ وماذا عن العشرة الأوائل من ذي الحجة؟ هل يجوز الحج خلال أشهر الحج في غير هذه الأيام العشرة الأولى من ذي الحجة؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن الفترة الزمنية التي نؤدي فيها شعائر الحج؟ هل نؤدي شعائر الحج طيلة أشهر الحج كلها؟ وماذا عن الحديث الذي ينقلوه لنا بأن الحج عرفة؟ وماذا عن شهر ذي الحجة نفسه؟ أليس هو من أشهر الحج؟ فلماذا ينتهي الحج في اليوم العاشر من ذي الحجة؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن تتمة الآية الكريمة؟ فماذا عن الرفث على وجه الخصوص؟ لم نرفث إلى نساءنا في تلك الأشهر ولا نتوقف عن ذلك إلا في وقت الإحرام التي قد لا تتجاوز بضعة أيام وليال؟ ألا ينهانا الله عن الرفث في تلك الأشهر جميعها (فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ)؟ فهل يجب على من فرض فيهن الحج أن لا يرفث إلى نسائه طلية تلك الأشهر الحرم كاملة؟ فلم يحق للحاج الرفث للنساء قبل الإحرام وهو لا شك في أشهر الحج؟ ولم يحق له (كما يرخص لهم علماؤهم) الرفث إلى نساءهم بعد التحلل من الإحرام مباشرة بالرغم أنهم لازالوا في أشهر الحج؟ ألا تعتبر تلك مخالفة فاضحة لصريح اللفظ القرآني؟ فكيف - يا ترى- ينهانا الله عن الرفث في أشهر الحج، وها نحن نرفث إلى نسائنا طوال أشهر الحج ولا نتوقف عن ذلك إلا في مرحلة الإحرام، وما أن نتحلل من الإحرام حتى نعود إلى الرفث إلى نسائنا، مع العلم أن الوقت لا زال ضمن أشهر الحج نفسها التي نهانا الله عن الرفث إلى نسائنا فيهن (ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ)؟ من يدري!!!

⇐ وماذا عن الفسوق والجدال؟ هل يفسد ذلك حجنا إن نحن فعلناه قبل الأول من ذي الحجة أو بعد العاشر من ذي الحجة مثلاً؟ وماذا عن الجدال قبل وبعد التحلل من الإحرام، هل يفسد ذلك الحج بأكمله؟ ألا نزال في أشهر الحج بالرغم من التحلل من الإحرام؟ ألا تعتبر تلك مخالفة فاضحة لصريح اللفظ القرآني؟ من يدري!!!

وبعد مناقشة مطولة لهذه القضايا، خرجنا حينها بالافتراء الخطير جداً الذي مفاده أن مفردة "الشهر" قد لا تدل دائما على الفترة المتعارف عليها عند الناس والتي هي ما يقرب من الثلاثين يوماً لكل شهر.

رأينا المفترى: بعد تدبر النهي الإلهي عن طبيعة الرفث إلى النساء خلال شهر رمضان كما جاء في الآية الكريمة:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾ [البقرة: 187]

مقارنة بالنهي الإلهي عن طبيعة الرفث إلى النساء في أشهر الحج كما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ ۚ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ [البقرة: 197]

خرجنا بالافتراء الخطير التالي: في حين أن النهي عن الرفث إلى النساء خلال شهر رمضان يخص يوم الصيام فقط ولا يخص ليل الصيام، فإن النهي عن الرفث إلى النساء في أشهر الحج يخص اليوم والليلة معا. فالرجال مأمورون بعدم الرفث إلى النساء في يوم الصيام ولكن مسموح لهم ذلك في ليلة الصيام. لكنهم مأمورون بعدم الرفث إلى النساء في يوم الحج وفي ليلة الحج طيلة أشهر الحج كلها.

السؤال: وكيف ذلك؟ كيف يمكن أن لا نرفث للنساء طيلة أشهر الحج كلها؟

لقد دعانا هذا الافتراء إلى محاولة تدبر، ثم محاولة الوقوف، مليّا عند كثيرة من المفردات التي تشير إلى فترات زمنية متنوعة، ألا وهي: اليوم، الليلة، النهار، الشهر (التي جمع على أشهر) والشهر (التي تجمع على شهور) كما في الجدول التوضيحي التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	
ليلة	
يوم	
شهر (أشهر)	
شهر (شهور)	

فكانت التساؤلات المطروحة حينئذ هي:

⇐ ما هو اليوم؟
⇐ ما هي الليلة؟
⇐ ما هو النهار؟
⇐ كيف يختلف اليوم عن النهار؟
⇐ ما هو الشهر؟
⇐ ما الفرق بين الشهر واليوم والليلة والنهار؟
⇐ ما هو الشهر الذي يجمع على أشهر؟

⇐ وما هو الشهر الذي يجمع على شهور؟
⇐ وما الفرق بين الأشهر والشهور؟
⇐ الخ.

وكانت الافتراءات التي قدمناها حينئذ على النحو التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	الفترة الزمنية من طلوع الشمس حتى غيابها
ليلة	تلك الفترة من الزمن التي يحق لنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء فيها وهي تبدأ من رفع آذن المغرب وتستمر حتى رفع آذان الفجر
يوم	الفترة الزمنية التي لا نأكل ولا نشرب ولا نرفث إلى النساء فيها (وهي تبدأ عند رفع آذان الفجر وتستمر حتى رفع آذان المغرب)
شهر (أشهر)	
شهر (شهور)	

وكان الافتراء الأكبر يخص التمييز بين مفردة شهر التي تجمع على أشهر ومفردة شهر التي تجمع على شهور على النحو التالي:

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا (1): إننا نظن أن دورة الشمس كاملة، أي فترة الأربع والعشرين ساعة (التي يشكلها اليوم والليلة معاً أو النهار والليل معاً) هي ما يمكن أن نسميه شهرا (التي تجمع على أشهر)

افتراء خطير جداً من عند أنفسنا (2): إننا نظن أن دورة القمر كاملة (أي فترة 29- 30 يوما) هي ما يمكن أن نسميه شهرا (التي تجمع على شهور)

الدليل

نحن نظن أن مفردة شهر هي مفردة جامدة بعض الشيء في الاشتقاق، ولكن يمكن أن نربطها بمفردات مثل الاشتهار، والشهرة، والتشهير، والمشهور، والشاهر، والمشاهير، الخ. فلماذا؟

رأينا المفترى: إننا نظن أن "فعل الاشتهار" لا يتم إلا بظهور متكرر لصاحب الشهرة، وأظن أن أهم ما يميز الشهرة هو تكرار حصول الفعل. لذا، نحن نفتري الظن بأن مفردة الشهر تدل على حدث دائم متكرر. فالشخص لا يصبح من المشاهير (أو celebrity بالمفردات الأعجمية) إلا إذا ما تكرر ظهوره للجميع حتى أصبح معروفا بينهم.

ومادام أننا نتحدث في هذا السياق عن زمن، فإن تكرار حدوث ذلك الزمن يشكّل ما يشبه "دورة كاملة" (أي كالدائرة)، فالحدث يبدأ من نقطة ويتحرك في مسار ثابت (بغض النظر عن المسافة الزمنية التي يقطعها) ليعود إلى النقطة نفسها، وهذا - في رأينا - ما يمكن أن نطلق عليه – افتراء من عند أنفسنا- لفظة الشهر.

فالنساء يتحدثن عن الدورة الشهرية بالرغم أنها لا تكون في الغالب ثلاثين يوماً، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا هي دورة شهرية بالرغم أنها قد لا تحدث كل ثلاثين يوما؟

جواب: حن نعرف أن بعض النساء قد تنقطع الدورة عنها فترة من الزمن، إلا أنها تبقى دورة شهرية بغض النظر عن طول الانقطاع، فالحامل مثلا تتوقف دورتها الشهرية تسعة أشهر، إلا أنها مع ذلك تبقى تسمى دورة شهرية. وتنقطع تلك الدورة عن بعض النساء فترة الرضاعة كاملة، إلا أنها تبقى مع ذلك تسمى دورة شهرية، وهكذا. **السؤال**: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن السبب في ذلك لا علاقة له بالفترة الزمنية سواء كانت طويلة أو قصيرة، وإنما العبرة – برأينا- في حدوثها بشكل متكرر على الدوام.

ولو تفقدنا ما حولنا، لوجدنا أن في منزلنا شجرة ليمون شهرية لا يتساقط ثمرها ولا يتجدد بعد اليوم الثلاثين مباشرة (إلا أن إنتاجها دائم متكرر)، ونحن نستلم راتبنا الشهري في السابع والعشرين من الشهر (فهو حدث دائم متكرر)، وهكذا. إن مراد قولنا هنا هو أن ما يميز كل فعل شهري هو أنه متكرر متجدد بنفس الوتيرة.

الدليل

لقد حدد الله لنا الزمن باستخدام كينونتين طبيعيتين هما الشمس والقمر، أليس كذلك؟

- هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (5)
- وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (12)

النتيجة المفتراة: الشمس والقمر هما الكينونتان اللتان جعلهما الله لنا لنعلم عدد السنين والحساب.

السؤال: كيف يمكن أن نعلم عدد السنين والحساب من خلالهما؟

جواب: لو تدبرنا حركة الشمس وحركة القمر في تحديد الزمن، لوجدنا أن كل منهما يسبح في فلك، وبعد البحث عن هذه المعلومة في كتاب الله لم نجد أن هناك كينونات تسبح في فلك إلا الشمس والقمر حيث ارتبط بهما الليل والنهار:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: 33]
- ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]

نتيجة مفتراة: الشمس والقمر هما الكينونتان الوحيدتان اللتان تسبحان في فلك، ويصاحبهما في ذلك الليل والنهار، وهما منفصلتان عن بعضهما البعض بدليل أن لكل منهما فلكه الذي يسبح فيه (وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)، مما يدعونا إلى طرح التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو الفلك أصلاً؟ وكيف تتم السباحة فيه؟
- ⇐ ما هو فلك الشمس؟ وكيف تسبح الشمس فيه؟
- ⇐ ما هو فلك القمر؟ وكيف يسبح القمر فيه؟
- ⇐ ما الفرق بين فلك الشمس وفلك القمر؟ وكيف تختلف سباحة الشمس عن سباحة القمر؟
- ⇐ كيف يساعدنا فهم ذلك في معرفة الزمن؟
- ⇐ الخ.

افتراءات من عند أنفسنا

باب الفلك: نحن نظن أن الفلك هو ما يشبه شكل الدائرة (وليس بالضرورة التطابق) بغض النظر عن الحجم كما في الشكليين التاليين:



Source

باب السباحة: لا يرد "فعل السباحة" في كتاب الله إلا بلفظ (يَسْبَحُونَ) ولا يتلازم هذا اللفظ إلا مع الشمس والقمر والليل والنهار:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٣٣﴾ [الأنبياء: 33]
- ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِى فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ٤٠﴾ [يس: 40]

نتيجة مفتراة: الشمس والقمر والليل والنهار هي فقط ما تقوم بفعل السباحة التي لا تتم إلا في فَلَك. فكيف تتم السباحة في الفَلك؟

رأينا: لمّا كانت الشمس تسبح في فَلك، ينتج عن حركة سباحتها تلك فترة زمنية محدد نستطيع أن نلمسها نحن البشر وهي تعاقب الليل والنهار، وتتم تلك الحركة بشكل متكرر كل أربعة وعشرين ساعة مرة واحدة، وبكلمات أخرى نقول أن الشمس تكمل دورة كاملة تتكرر بشكل منتظم كل أربعة وعشرين ساعة، فنستطيع بناء على ذلك معرفة اليوم (لنصوم فيه مثلاً) والليلة (لنتوقف عن الصيام)، ونستطيع تحديد النهار (حيث يكون مبصراً) والليل (حيث يحل الظلام محل النور)، وهذا يدعونا على الفور إلى طرح التساؤل المثير جداً التالي: ماذا يمكن أن نطلق على دورة الشمس في فلكها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة؟ فهل يمكن أن نسمي ذلك يوم؟

جواب مفترى: كلا، لأن اليوم هو فترة الصيام فقط التي يتم فيها الإمساك عن الطعام والشراب والرفث إلى النساء

وهل يمكن أن نسمي ذلك نهار؟

جواب مفترى: كلا، لأن النهار هو مبصراً، لذا فهو لا يكوّن أكثر من جزء من تلك الدورة

وهل يمكن أن نسمي ذلك ليل؟

جواب مفترى: كلا، لأن الليل مظلم متى انسلخ منه النهار، لذا فهو أيضاً لا يكوّن أكثر من الجزء الآخر لتلك الدورة

فماذا يمكن أن نسميه إذاً؟

افتراء من عند أنفسنا: إنه الشهر

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الشمس "تُشهِر" نفسها مرة واحدة كل أربعة وعشرين ساعة في حركة سباحة في فلكها، فيتكون – برأينا- جراء ذلك الشهر الشمسي الذي ينتج عن تعاقب الليل والنهار أو اليوم والليلة، وبذلك تكمل الشمس في فلكها دورة واحدة متكررة بنفس الوتيرة على الدوام فيما يمكن أن نسميه – افتراء من عند أنفسنا- بالشهر.

سؤال: وماذا عن القمر؟

لو راقبنا ما يحدث في حالة القمر لوجدنا أن القمر هو أيضاً يسبح في فلك خاص به، ويتم ذلك بطريقة متكررة بوتيرة ثابتة على الدوام، فما انفك القمر عن "إشهار" نفسه في وقته المحدد له وذلك لأنه يسبح في فلك خاص به. ويتم تحديد الزمن بناء على منازله، ولكن المفارقة تكمن هنا بأننا لا نستطيع تحديد الزمن من منازل القمر كل يوم وليلة، ولكننا نستطيع تحديد الزمن بناء على سباحة القمر في دورته الكاملة، والتي تستغرق فترة زمنية أطول من تلك التي تستغرقها الشمس في دورتها لإشهار نفسها، ففي حين أن الشمس تُشهر نفسها تقريباً كل أربعة وعشرين ساعة مرة واحدة، فإن القمر يُشهر نفسه مرة واحدة كل ثلاثين يوماً تقريباً (أي يكمل دورته في سباحته في فلكه)، فينتج عن ذلك الشهر القمري الذي يعرفه الناس.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): هناك شهر يتحدد بحركة الشمس الدورية كل أربعة وعشرين ساعة وينتج عنه الليل والنهار (واليوم والليلة). فاليوم والليلة معا يكونان شهرا شمسيا

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): وهناك - بالمقابل – شهر يتحدد بحركة القمر ينتج عنه الأشهر القمرية التي نعرفها كشهر رمضان مثلاً. كل (29-30) يوما وليلة يكونان شهرا قمريا.

فيصبح الجدول السابق التعلق بتحديد الفترات الزمنية المختلفة الآن على النحو المفترى التالي:

المفردة	الفترة الزمنية
نهار	الفترة الزمنية من طلوع الشمس حتى غيابها
ليلة	تلك الفترة من الزمن التي يحق لنا أن نأكل ونشرب ونرفث إلى النساء فيها وهي تبدأ من رفع آذن المغرب وتستمر حتى رفع آذان الفجر
يوم	الفترة الزمنية التي لا نأكل ولا نشرب ولا نرفث إلى النساء فيها (وهي تبدأ عند رفع آذان الفجر وتستمر حتى رفع آذان المغرب)
شهر شمسي (أشهر)	فترة غياب وظهور الشمس كل أربع وعشرين ساعة مرة واحدة، أي إشهار الشمس نفسها بطريقة متكررة وثابتة
شهر قمري (شهور)	فترة إشهار القمر نفسه مرة بشكل متكرر كل حوالي 30 يوما

عودة على بدء

السؤال: ما علاقة هذا بقضية الحج التي جاءت في الآية الكريمة التالية؟

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن مفردة الأشهر التي وردت في هذه الآية الكريمة تدل على الأشهر الشمسية وليست الأشهر القمرية. وبكلمات أخرى، نحن نفتري القول بأن مدة الحج ليست أكثر من أشهر شمسية، وهي برأينا عشرة أيام بلياليها، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَٱلْفَجْرِ ١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ٢﴾ [الفجر: 1-2]

وهذه هي بالضبط – برأينا- الفترة الزمنية عجل بها موسى إلى ربه:

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو رجعنا إلى تفاصيل قصة موسى، لوجدنا بأن اللقاء بين الله وعبده موسى قد حصل مرتين، فكانت المرة الأولى في الواد المقدس طوى عندما آنس من جانب الطور نارا:

- ﴿وَهَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝٩ إِذۡ رَءَا نَارٗا فَقَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدٗى ۝١٠ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ ۝١١ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: 9-12]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 29-30]

وحصل اللقاء الثاني بناء على موعد من ربه، فكان أربعين ليلة:

- ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة: 51]

ولكن في هذه الحادثة بالضبط حصلت العجلة من موسى، فكانت في عشر ليالي:

- ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

لنخرج من خلال هذا الكلام المفترى من عند أنفسنا بالاستنباطين (ربما مخطئين) التاليين:

⇐ حصل اللقاء الأول ليلا بين الله وعبده موسى في الواد المقدس طوى في الأرض المقدسة

⇐ حصل اللقاء الثاني نهارا بين الله وعبده موسى في عرفات

الدليل

لو تفقدنا قصة اللقاء الأول لوجدنا أن موسى قد ترك مدين بعد أن قضى فيها الأجل، فسار بأهله باتجاه الأرض المقدسة:

- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ۝٢٩﴾ [القصص: 29]

فكان اللقاء في البقعة المباركة من الشجرة:

- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 30]

فتلقى موسى الرسالة من ربه، وتغيرت وجه سيره من الأرض المقدسة التي كان قاصدا الذهاب إليها إلى مصر حيث فرعون وقومه:

- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ٢٤﴾ [طه: 24]
- ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ١٧﴾ [النازعات: 17]

وكانت مهمة موسى تتمثل في إخراج بني إسرائيل، فكان هذا ما طلبه موسى وأخوه هارون من فرعون:

- ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ ٤٧﴾ [طه: 47]
- ﴿فَأۡتِيَا فِرۡعَوۡنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦ أَنۡ أَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ١٧﴾ [الشعراء: 16-17]

ولكن فرعون أبى إلا المواجهة الفعلية، فكان اللقاء بينهما في مكان سوى:

- ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ٥٨﴾ [طه: 58]

فحصل الموعد بينهما في يوم الزينة، فحشر الناس ضحى:

- ﴿قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ٥٩﴾ [طه: 59]

وحصل هذا اللقاء (نحن لازلنا نفتري القول من عند أنفسنا) في منطقة الأخدود حيث أشعل فرعون ناره ذات الوقود:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨﴾ [البروج: 1-8]

فتم اللقاء بين الطرفين – برأينا- في المنطقة الجغرافية التي لازالت تعرف حتى اليوم في أرض مصر التاريخية باسم المحرقة، كما في الخرائط التوضيحية التالية التي وصلتنا من عند صاحبنا العزيز عصام درويش من أرض مصر الخالدة:





حيث تقع هذه القرية التي لازالت تسمى حتى الساعة بالمحرقة الموجودة علي يسار النيل مواجهة للاخدود الأعظم علي اليمين من النهر.

(للتفصيل انظر أجزاء قصة يونس)

إن ما يهمنا طرحه هنا هو الافتراء بأن هذه المنطقة قد شهدت المواجهة الفعلية بين موسى ومن معه من جهة وفرعون مع سحرته وقومه من جهة أخرى. لكن، ما أن انتهت المواجهة بينهما حتى كان القرار الإلهي يتمثل في أن يسر موسى بقومه ليلا، وأنهم لا محالة متبعون:

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الدخان: 23]

وجاء الطلب الإلهي المباشر على نحو أن يترك موسى البحر رهوا لأن فرعون وقومه لا محالة مغرقون:

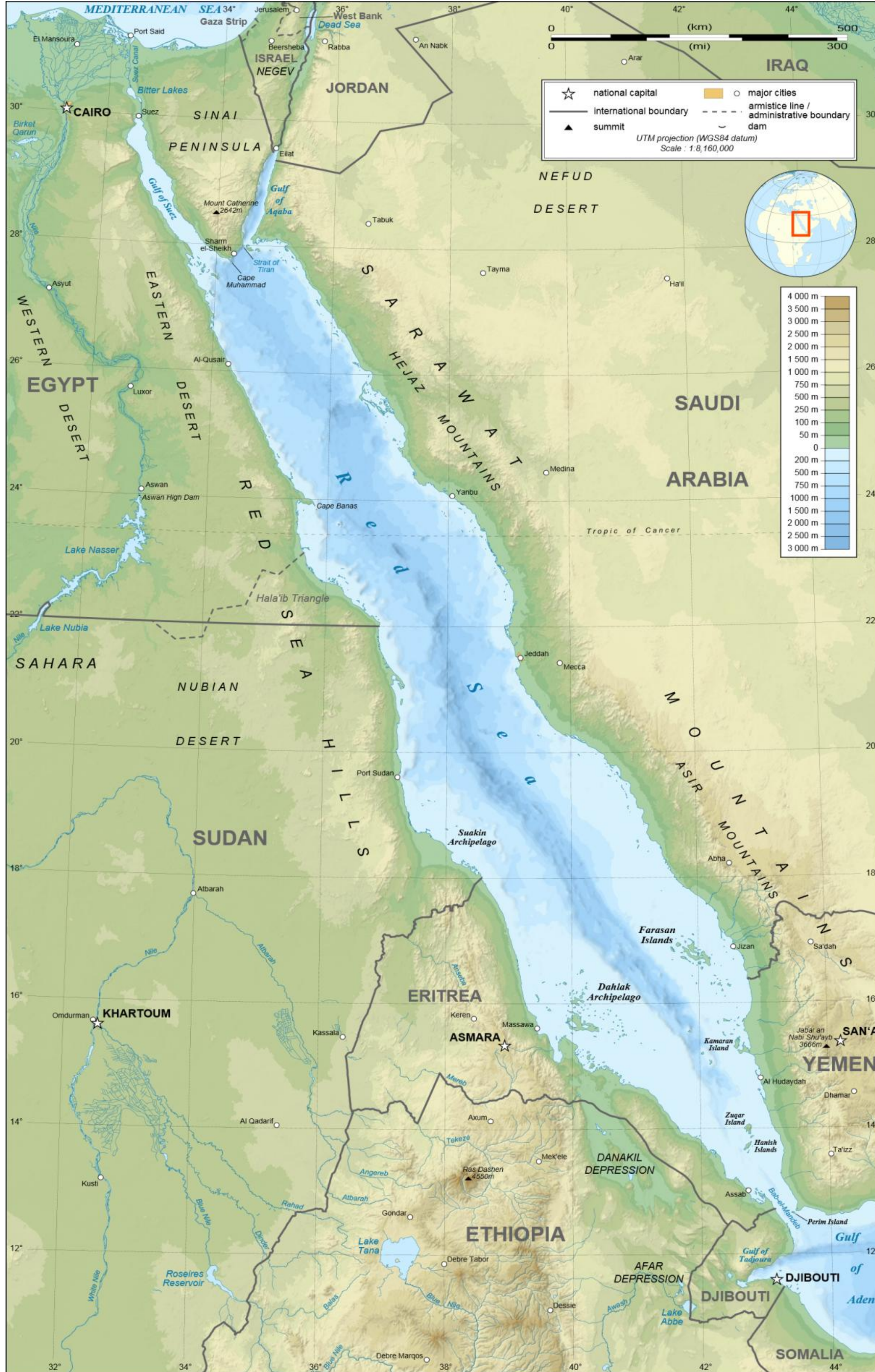
- ﴿وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 24]

افتراء خطير جدا جدا: لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن موسى قد سار بعباد الله من تلك المنطقة متوجها نحو جزء البحر الذي يقع في مقابلة هذه المنطقة. ولو تفقدنا الخارطة الجغرافية لتلك المنطقة مع البحر المقابل لها، لوجدنا بأنها المنطقة المقابلة لمدينة جدة في أرض الحجاز كما في الشكل التوضيحي التالي:



وفي تلك المنطقة التي يظهر على الخريطة الحد الفاصل بين مصر الحديثة والسودان الحديث عند البحر الأحمر ضرب موسى بعصاه البحر، وهي المنطقة التي تشبه بالضبط فرج المرأة، ومن هناك ينفرج

البحر حتى يبدو ويكأنه أرجل المرأة التي يأتيها الرجل في فرجها، وهناك كان – برأينا- انفلاق البحر حتى كان كل فرق كالطود العظيم. انظر الخريطة التوضيحية التالية:



وما أن جاوز الله ببني إسرائيل البحر حتى كانت محطتهم الأولى، وهم أولئك القوم الذين كانوا يعكفون فيها على أصنام لهم:

- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

ومن هناك، نحن نفتري القول بدأت رحلة العودة ببني إسرائيل مع نبيهم موسى باتجاه الأرض المقدسة. لكن المفرقة تكمن هنا في أن موسى قد ترك قومه على أثره وعجل إلى ربه:

- ﴿۞وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 83-84]

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن موسى قد عجل هذه المرة للقاء ربه في عرفات، المنطقة القريبة من مكة. انتهى.

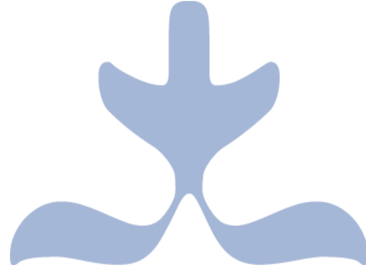
الدليل

سنحاول في المرة القادمة، بإذن الله وتوفيق منه، مطاردة الأفكار نفسها، علّنا نصل بحول الله وتوفيقه إلى مبتغانا.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

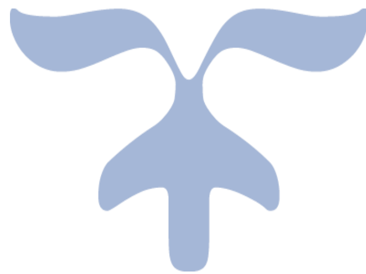
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 آب 2016



فقه الحج

الجزء الثالث



فقه الحج - الجزء الثالث

خرجنا من الجزء السابق من هذه المقالة بالافتراءات التالية:

- ⇐ الحج شعيرة مفروضة على الناس
- ⇐ يكلّف بأداء هذه الفريضة الرجال من الناس الذين يستطيعون ضربا في الأرض
- ⇐ لا يكلّف بأداء هذه الفريضة المستضعفون الذين لا يستطيعون ضربا في الأرض
- ⇐ الحج ليس مفروضا على النساء، لذا يأتي حج النساء في باب التشريف وليس التكليف
- ⇐ الحج ليس مفروضا على الولدان
- ⇐ الحج أشهر معلومات، وهي عبارة عن أشهر شمسية وليست أشهر قمرية
- ⇐ مدة الحج عشرة أشهر شمسية، أي عشرة أيام بلياليها، وهذه هي الفترة الزمنية التي طلب الله ممن فرض فيهن الحج بأن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل
- ⇐ الحج شعيرة يكلف بها من وجب عليه أن يحلق رأسه ويقصر شعر لحيته وإبطيه وعانته وأظفاره
- ⇐ من كان به أذى من رأسه فعليه الفدية من صيام أو صدقة أو نسك
- ⇐ ليس مطلوب من النساء الحلق أو التقصير أو الفدية
- ⇐ الخ

وقد قادنا هذا النوع من التدبر إلى إعادة التفكر في قصة خروج موسى ومن آمن معه من بني إسرائيل من أرض مصر، لظننا بأن رحلة موسى ومن معه من بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة بعد خروجهم من مصر قد بدأت من المنطقة الجغرافية القريبة من مكة، وهي في ظننا مدينة جدة الواقعة على البحر الأحمر في مقابل أرض مصر. (انظر الجزء السابق)

وقد افترينا الظن من عند أنفسنا بأن رحلة الخروج قد بدأت من أرض المحرقة:

- ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ۝٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ۝٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ۝٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ۝٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ۝٨﴾ [البروج: 4-8]

حيث هو المكان الذي حصلت فيه المواجهة الفعلية بين الفئتين:

- ﴿فَلَنَأۡتِيَنَّكَ بِسِحۡرٖ مِّثۡلِهِۦ فَٱجۡعَلۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكَ مَوۡعِدٗا لَّا نُخۡلِفُهُۥ نَحۡنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانٗا سُوٗى ۝٥٨ قَالَ مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ۝٥٩﴾ [طه: 58-59]

فجاء الأمر الإلهي لموسى بأن يسري بعباد الله ليلا:

- ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣﴾ [الدخان: 23]

فتبعهم فرعون وجنوده باتجاه الشرق:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠﴾ [الشعراء: 60]

وما تراءى الجمعان إلا عند حافة البحر:

- ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: 61]

وهناك طلب الله من موسى أن يضرب البحر بعصاه، فانفلق البحر حتى كان كل فرق كالطود العظيم:

- ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾ [الشعراء: 63]

فكانت نقطة العبور (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) هي الأرض المقابلة لمدينة جدة في أرض الحجاز. وما أن جاوز موسى بمن معه البحر حتى كان غرق فرعون وجنوده أجمعين:

- ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء: 65-66]

فبدأت من هناك (نحن نتخيل) رحلة بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة. فكانت أول محطاتهم هم أولئك القوم الذين كانوا يعكفون على أصنام لهم:

- ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

وفي أثناء رحلتهم تلك، حصل الميعاد من الله لنبيه موسى أربعين ليلة:

- ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾ [البقرة: 51]

لكن موسى تعجل اللقاء في عشرة أيام. فلم يحصل اللقاء حتى تم ميقات ربه على رأس الليلة الأربعين:

- ﴿۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

وقد افترينا الظن من عند أنفسنا بأن موعد اللقاء كان في عرفات، وكان ذلك في يوم الحج الأكبر:

- ﴿وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٌ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة: 3]

وفي ذلك اليوم كُتِب لموسى في الألواح:

- ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

الدليل: باب الميقات

لو تدبرنا الآيات الكريمة التي تتحدث عن الميعاد الذي حصل بين الله ونبيه موسى لوجدنا أنها تتحدث عن فترة زمنية محددة وهي أربعين ليلة:

- ﴿وَإِذۡ وَٰعَدۡنَا مُوسَىٰٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ثُمَّ ٱتَّخَذۡتُمُ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِهِۦ وَأَنتُمۡ ظَٰلِمُونَ ٥١﴾ [البقرة: 51]

لكن الملفت للانتباه هو أن موسى قد تعجل في عشرة ليال، فجاء على رأس الليلة الثلاثين:

- ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

ولما كان الله لا يخلف الميعاد:

- ﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ [الرعد: 31]
- ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾ [الزمر: 20]

كان على موسى أن يظل منتظرا ميقات ربه:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة)

وفي هذه الآيات الكريمة نجد الحديث واضحا عن مفردتين متقاربتين، وهما المفردة الخاصة بالوعد (وَوَٰعَدۡنَا) والمفردة الخاصة بالتوقيت (مِيقَٰتُ)، وهنا لا نتردد أن نطلب من القارئ الكريم محاولة التمييز بين المفردتين، طارحين التساؤلات التالية:

- ⇐ ما هو الميعاد؟
- ⇐ ما هو الميقات؟
- ⇐ ما الفرق بين المفردتين؟

رأينا المفترى: إن من أهم مميزات الميعاد هو توافر الشروط التالية:

- ⇐ الميعاد يكون بين طرفين
- ⇐ الميعاد يكون لسبب ما
- ⇐ الميعاد يحتاج إلى تحديد فترة زمنية محددة
- ⇐ الميعاد يحتاج إلى مكان محدد

مثال: عندما يقطع شخص ما ميعاد، فإن ذلك يتطلب أن يكون قد قطعه مع طرف آخر، فلا يمكن أن يتم ميعاد بوجود طرف واحد، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿إِذۡ أَنتُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُم بِٱلۡعُدۡوَةِ ٱلۡقُصۡوَىٰ وَٱلرَّكۡبُ أَسۡفَلَ مِنكُمۡۚ وَلَوۡ تَوَاعَدتُّمۡ لَٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡمِيعَٰدِ وَلَٰكِن لِّيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗا لِّيَهۡلِكَ مَنۡ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحۡيَىٰ مَنۡ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٖۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٤٢﴾ [الأنفال: 42]

فالمواعدة تكون إذن بين طرفين. ونحن نظن باستحالة المواعدة بين طرفين إلا لغاية يتفق عليها الطرفان. فإن قابلتك أنا في مكان ما بعامل المصادفة فإن ذلك لا يقع في باب المواعدة، لأن من شروط المواعدة هو الاتفاق المسبق بين الطرفين، لكن السؤال هو: لم يتفق طرفان على المواعدة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن المواعدة تتم بين طرفين من أجل غاية محددة كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ۝٢٣٥﴾ [البقرة: 235]

وهذا يدلّنا على أن المواعدة قد تتم بالسر (كمواعدة الخاطب لمخطوبته من النساء)، كما يمكن أن تتم بالعلن كما حصل بين الله ونبيه موسى:

- ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢﴾ [الأعراف: 142]

فمواعدة الله لموسى كان خبرها معلوم عند هارون وقوم موسى بدليل أن موسى قد جعل هارون خليفة له في قومه. وليس أدل على أن المواعدة قد تتم بالعلن من تلك المواعدة التي حصلت بين الله وبني إسرائيل كلهم:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

وعندما تحصل المواعدة بين طرفين، فلابد من وجود سبب لهذه المواعدة كما بدر من إبراهيم مع أبيه:

- ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٞ ١١٤﴾ [التوبة: 114]

فلقد كانت مواعدة إبراهيم لأبيه هي الاستغفار له، كما جاء على لسان إبراهيم من ذي قبل:

- ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيۡكَۖ سَأَسۡتَغۡفِرُ لَكَ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيّٗا ٤٧﴾ [مريم: 47]

نتيجة مهمة جدا: نحن نظن أن الهدف من الميعاد يسمى مَوْعدة، لكن يبقى هناك شرطي الزمان والمكان. فالميعاد يحتاج إلى تحديد الزمان الذي يتم به اللقاء، كما يحتاج إلى تحديد المكان الذي سيتم فيه اللقاء، كما في الجدول التالي:

طرفي الميعاد	
طريقة الميعاد	قد يكون بالسر وقد يكون بالعلن
سبب الميعاد	موعدة
وقت الميعاد	
مكان الميعاد	

لذا، عندما حصل الميعاد من الله لنبيه موسى، كان هذا الميعاد علنيا بدليل معرفة هارون وقوم موسى به، فموسى هو من ترك هارون أخاه خليفة له في قومه، وذهب وحيدا متعجلا لقاء ربه:

- ﴿۞ وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ٨٤﴾ [طه: 83-84]

لكن تبقى التساؤلات التالية مطروحة للبحث، وهي:

⇐ ماذا كان سبب الميعاد بين الله ونبيه موسى؟ أو بكلمات أكثر دقة (نحن نسأل): ما الهدف المنشود من ذلك الميعاد؟ ولماذا ترك موسى قومه على أثره وعجل للقاء ربه؟

⇐ ما الوقت الذي تحدد ليكون هو وقت اللقاء بين الطرفين؟

⇐ ما المكان الذي كان يجب أن يتم فيه اللقاء؟

باب سبب الميعاد بين الله ونبيه موسى

نحن نظن أنه عندما يكون الميعاد معقودا بين طرفين، فإن سبب هذا الميعاد يتبين بشكل جلي مما يتمخض عنه. فعندما يكون بيني وبينك قضية ما يتطلب نقاشها وجها لوجه، فإننا نقوم بتحديد الميعاد (الوقت والزمان) لمناقشة هذه القضية، وما أن يحصل اللقاء بين الطرفين حتى تبدأ المناقشات، ويعرف السبب الذي حصل اللقاء من أجله بما يتمخض عن ذلك اللقاء من نتائج. فلو تدبرنا الآيات الكريمة التي تبين لنا ما حصل في ذلك الميعاد بين الله ونبيه موسى، فربما نستطيع أن نتبين منها هدف ذلك الميعاد، قال تعالى:

- ﴿۞ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥ سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٤٦ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤٧ وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨﴾ [الأعراف: 142-148]

فالمتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد على الفور أن النتيجة الأبرز لهذا اللقاء تتمثل – برأينا- فيما كتبه الله لموسى في الألواح:

- ﴿وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ سَأُوْرِيكُمۡ دَارَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ١٤٥﴾ [الأعراف: 145]

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن السبب الرئيسي في تحديد الميعاد بين الله ونبيه موسى هو الألواح. فالميعاد كان بين الله (وروحه وملائكته) من جهة ونبيه موسى من جهة أخرى. فلم يكن مفروضا على موسى أن يحضر معه أحدا إلى هذا الميعاد. وهذا – برأينا- كان دافعا قويا أن يترك موسى أخاه هارون في قومه ويتعجل بمفردة لملاقاة ربه:

- ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 142-143]

السؤال: لماذا ذهب موسى بنفسه للقاء ربه؟ ولم لم يذهب الله بنفسه للقاء موسى؟ أليس الله قريب؟ ولم وجب تحديد اللقاء في مكان محدد بعين؟ وما هو ذلك المكان الذي تم تحديده ليتم اللقاء فيه؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه مادام أن الهدف من اللقاء هو الكتابة في الألواح، فإن هذا يستحيل أن يحدث إلا في مكان محدد له خصوصية الوحي، أي مكان يمكن أن يتنزل فيه الوحي.

السؤال: ما هذا المكان الذي يمكن أن يتنزل فيه الوحي؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن المكان الذي يتنزل فيه الوحي هو واحد من اثنين، وهما:

1. المكان الذي ينزل فيه الروح الأمين
2. المكان الذي يتنزل فيه روح القدس

السؤال: ما هو المكان الذي يتنزل فيه الروح الأمين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المكان الذي يتنزل فيه الروح الأمين هو البلد الأمين (مكة)

السؤال: وما هو المكان الذي يتنزل فيه روح القدس؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن المكان الذي يتنزل فيه روح القدس هو الأرض المقدسة (القدس)

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذين المكانين هما فقط المكانان الوحيدان اللذان يتواجد فيهما الإله تواجدا فيزيائيا.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: نحن نجد الإجابة على هذا التساؤل في الآية الكريمة التالية:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فذلك الواد (غير ذي الزرع) هو المكان الذي يتواجد به بيت الله الحرام:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

وهذا البيت هو البيت الأول الذي وضع للناس وضعا:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

وقد افترينا الظن في مقالات سابقة لنا بأن هذا البيت قد نقل نقلا من مكان المسجد الأقصى بعد أن أهبطا آدم وزوجه من تلك الجنة:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ عَنۡهَا فَأَخۡرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِۖ وَقُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞۖ وَلَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُسۡتَقَرّٞ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٖ ٣٦﴾ [البقرة: 35-36]
- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩ فَوَسۡوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيۡطَٰنُ لِيُبۡدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنۡهُمَا مِن سَوۡءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنۡ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيۡنِ أَوۡ تَكُونَا مِنَ ٱلۡخَٰلِدِينَ ٢٠﴾ [الأعراف: 19-20]

وما أن بدأت الذرية من الناس مع ابني آدم، حتى دب الخلاف بين الأخوين على ملكية هذا البيت، فقتل أحدهما الآخر:

- ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٣٠﴾ [المائدة: 30]

فأصبح هذا البيت محرما على الناس جميعا، فكان بيتا حراما، قياما للناس كلهم:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

فهذا البيت هو كعبة، لأنه (قد افترينا الظن سابقا) واحد من الكواعب أتراب، أي بيوت الجنة:

- ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ [النبأ: 31-33]

وما أن نقل هذا البيت (الكعبة مفرد كواعب) من الجنة الأولى حتى أصبح مكانه الأصلي غير مباركا، مادام أنه قد نقل بالكلية إلى مكان آخر، لكن ظلت المنطقة المحيطة به مباركة:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]

وانتقلت البركة مع الكعبة (البيت الحرام)، فأصبحت مباركة بذاتها، ولكن لم يكن حولها مباركا:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

السؤال: ما علاقة هذا النقاش بموضوع اللقاء بين الله ونبيه موسى؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن التواجد الإلهي الفيزيائي لا يمكن أن يحصل إلا في هذين المكانين. فالإله يتدلى بنفسه في هذين المكانين، لأنهما هما المكانان المباركان، أي الذي حصلت فيهما المباركة الإلهية.

السؤال: أين ومتى يتدلى الإله بنفسه؟

رأينا المفترى (1): نحن نظن أن الإله يتدلي في الواد المقدس الموجود حول المسجد الأقصى في الليل، ويكون ذلك في ليلة القدر

رأينا المفترى (2): نحن نظن أن الإله يتدلى في الواد غير ذي الزرع عند البيت الحرام في النهار، ويكون ذلك في يوم الحج الأكبر.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن السبب في ذلك لأن هذين المكانين هما الميقات الإلهي

السؤال: ما معنى ذلك؟

باب الفرق بين الميقات والميعاد

لعل من أهم النقاط الواجب مناقشتها في هذه اللحظة هو محاولة التفريق في المعنى بين المفردات المتقاربة الخاصة بهذه القضية، وعلى رأسها – برأينا- الفرق بين الميقات من جهة والميعاد من جهة أخرى. فلو تدبرنا الآيات الكريمة التالية لوجدان بأن الميقات خاص بالحج، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

ولو حاولنا ربط ذلك بقصة موسى، لوجدنا أن الميقات قد حصل مرة لموسى وحدة:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَـٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَـٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

وحصل مرة أخرى لموسى مع سبعين رجلا من قوم موسى:

- ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَـٰتِنَا ۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّـٰىَ ۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَـٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الميقات الذي حصل لموسى وحده قد كان في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله الحرام، بينما الميقات الذي حصل لموسى مع سبعين رجلا من قومه قد كان في الواد المقدس طوى في الأرض المقدسة عند الطور.

الدليل

من أجل جلب الدليل الذي قد يثبت زعمنا هذا، فإننا نظن أننا بحاجة أن نناقش بالتفصيل ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ١٨٩﴾ [البقرة: 189]

ولا شك عندنا أن مناقشة ما جاء في هذه الآية الكريمة يتطلب طرح تساؤلات مفصلية نذكر منها:

⇐ لماذا جاءت هذه الآية لتبين لنا أنها تساؤلات من الناس موجهة للنبي نفسه (يَسْـَٔلُونَكَ)؟

⇐ لماذا جاء سؤالهم عن الأهلة على وجه التحديد (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ)؟
⇐ ما هي الأهلة أصلا (ٱلْأَهِلَّةِ)؟
⇐ ما علاقتها بالمواقيت (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ)؟
⇐ لم هذه المواقيت خاصة بالناس (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ)؟
⇐ ما علاقة الأهلة والمواقيت بالحج (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ)؟
⇐ ما علاقتها بالبر؟
⇐ ما علاقتها بإتيان البيوت من أبوابها (وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا)؟
⇐ ما علاقتها بالتقوى (وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ) (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ)؟
⇐ ما علاقتها بالفلاح (لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ)؟
⇐ الخ

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن للسؤال عن الأهلة علاقة مباشرة بالبيوت التي أمرنا الله بأن نأتيها من أبوابها. فمن أن أراد أن يأتي بيتا (حتى وإن كان بيته الخاص به)، فعليه أن يأتيه من الباب. ولا شك عندنا أن باب البيت هو مقدمته حيث يكون الشخص القادم إلى البيت مكشوفا لأهل البيت أنفسهم المتواجدين فيه. فمن أتى بيتا من غير بابه فهو قد أتاه بطريقة غير مشروعة، كاللص الذي يحاول التسلل إلى المكان دون علم أصحابه. فالطريقة المشروعة الوحيدة للقدوم إلى البيت (أي بيت) هو إتيانه من بابه، أليس كذلك؟

نتيجة مفتراة: لما كانت الكعبة هي بيت الله الحرام، وجب على الزائر إلى ذلك البيت أن يأتي هذا البيت من بابه. فما هو باب البيت الحرام (الكعبة)؟

جواب مفترى: لما كانت الزيارة إلى البيت الحرام يمكن أن تتحصل من كل فج عميق:

- ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

كان لابد أن تتم الزيارة إلى هذا البيت من بابه، ليكون السؤال هو: من أين يمكن أن نأتي الكعبة على أساس أنها بيت الله المحرم؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأنه بالإمكان إتيان الكعبة من جميع الاتجاهات (الشمال أو الجنوب أو الشرق أو الغرب). لذا لابد نحن نفتري القول من وجود باب لهذا البيت من كل الاتجاهات التي تحيط به. فما هي أبواب الكعبة التي يمكن للناس القادمين إليها أن يأتوها منها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن أبواب البيت الحرام هي تلك المواقيت التي جعلها الله للناس، قال تعالى:

- ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [البقرة: 189]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نتجرأ على القول (ربما مخطئين) بأن المواقيت هي أبواب البيت الحرام التي رخص الله للزائرين أن يأتوه منها. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن مواقيت البيت الحرام هي عبارة عن أهلة (يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ)، أليس كذلك؟.

السؤال: كيف يمكن أن نفهم ذلك؟ ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: غالبا ما تداول الفكر الشعبي مفردة الهلال لتدل على شكل من أشكال القمر خاصة في بداية تكونه، كما في الشكل التوضيحي التالي، الذي يبين منازل القمر، في أحد شهوره:

Sun	Mon	Tue	Wed	Thu	Fri	Sat
						1
2	3	4	5	6	7	8
9	10	11	12	13	14	15
16	17	18	19	20	21	22
23	24	25	26	27	28	29
30	31					

لكن ما يهمنا هنا هو أنه من بين جميع أشكال (منازل) القمر المتعددة نجد أن شكله في بداية تكونه هو ما نسميه بالعربية بالهلال. ليكون السؤال هو: لماذا؟ أي لماذا نطلق على القمر في بداية تكونه (أي الليالي الأولى له) هلالا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القمر يسمى هلالا في بداية تكونه للسببين رئيسيين وهما:

1. التوقيت
2. الشكل

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن القمر يكون هلالا في وقت محدد من تشكله، وهو الوقت الذي يبدأ فيه بالظهور للعلن، فيصبح من الممكن رؤيته، فما أن يظهر القمر في بداية تكونه حتى يكون في مجال الرؤية للناس، فهو إذا القمر في أول ظهور له للناس، والأهم من ذلك أنه يظهر حينها على شكل قوسي كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source

ولو حاولنا أن تربط هذا - عزيزي القارئ- بمجال الرؤية للعين البشرية نفسها. لربما وجدنا أنهما متقاربان؛ فأنت عندما تنظر أمامك لترى ما يتواجد مباشرة أمام عينك، فإن مجال الروية لا يقتصر على ما يظهر مباشرة أما عينك في خط مستقيم وفي نقطة محددة بعينها، وإنما تغطي كامل المنطقة التي تقع في مجال الرؤية والتي تكون على شكل هلال، كما في الشكل التالي:



Source

وهي المنطقة التي تكون ضمن مجال ذراعيك لو أنك ممدتهما كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source

نتيجة مفتراة: الهلال هو مرتبط بالرؤية التي تغطي المنطقة الموجود أمام الناظر على شكل قوسي

السؤال: ما علاقة هذا بزيارة البيوت؟ وما علاقة هذا بزيارة البيت الحرام على وجه التحديد؟

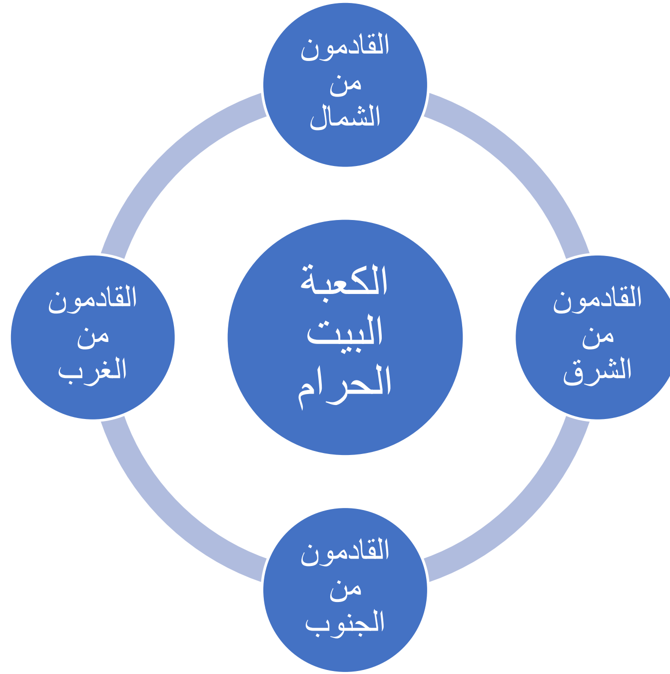
جواب مفترى: نحن نظن أن البيت الحرام له مواقيت، وهذه المواقيت هي أهلة. انتهى.

السؤال: كيف ذلك؟

جواب مفترى: دعنا نتخيل القادمين من كل فج عميق إلى البيت الحرام الموجود بواد غير ذي زرع، وهم القادمين إليه من كل الجهات. وهم من وجب عليهم أن يأتوا البيت من أبوابه، فكيف يمكن أن نتصور هذا المشهد؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن على القادمين إلى هذا البيت أن يكونوا في مجال الرؤيا المباشرة لمن يتواجد في ذلك البيت. فلو نظر من هو متواجد في البيت إلى القادمين إلى البيت لأبصرهم يحيطون به من كل جهة، كإحاطة السوار بالمعصم. أي يشكلون حوله دائرة متكاملة. ولو حاولنا تقسيم هذه الدائرة

المحيطة بالبيت إلى أربعة أقسام متساوية حسب الجهات الأربعة (الشمال والجنوب والشرق والغرب) من حيث يقدم الناس، لوجدنا أن كل قسم يشكل حول البيت ما يشبه الهلال. انظر الشكل التوضيحي التالي:



السؤال: ما هي هذه الأهلة الأربعة؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هذه الأهلة هي مواقيت للناس.

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن بأن المواقيت هي الأماكن التي تحيط بالبيت العتيق من الجهات الأربعة على شكل أهلة (جمع هلال)، حيث تبدأ من عندها مراسم الزيارة الفعلية للبيت العتيق.

السؤال: وكيف ذلك؟ وما هي مراسم (أي شعائر) الحج

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نظن بأن هذه هي الأماكن (المواقيت) التي يبدأ فيها الزائر للبيت أول شعائر الحج، ألا وهو الإحرام. فالإحرام يبدأ من هذه المواقيت لكل من أراد حج البيت. انتهى.

تلخيص ما سبق: نحن نظن أنه يتوجب على الذي فرض الحج في أشهر الحج أن يقوم بذلك راجلا في أشهر الحج العشرة (أي عشرة أيام بلياليها). فعليه أن يقدم إلى منطقة الحج بأي وسيلة كانت (على كل ضامر)، لكن ما أن يصل إلى المنطقة المشرفة على البيت العتيق من كل جهة حتى يتوجب عليه أن يترجل عن راحلته، ليبدأ مراسم الحج راجلا (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا)، ويكون أول شعائر الحج هو لبس الإحرام. أي خلع كل ما يلف جسمه من المخيط ولبس ذلك الثوب الذي يلف جسم الرجال في الحج. فلا

يلبس معه شيء آخر ولا يحمل معه شيئا آخر. وهناك بالضبط تبدأ أول مراحل الحج، فيظهر لمن هو متواجد في البيت بأن هذا الشخص قد ترك كل شيء خلفه، وها هو قادم بثوب الإحرام، ولا شيء غيره. فيكون ذلك إذانا بأن يسلم نفسه لمن هو في البيت، مستسلما له، لا يريد سوى تسوية الخلاف معه، والخروج من هناك بأحسن شروط الاتفاق بين الطرفين، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 26-30]

فالمتدبر لهذه الآيات الكريمة يجد بأن أهداف الحاج إلى البيت العتيق تتمثل في التالي:

⇐ شهادة المنافع لهم (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)
⇐ ذكر اسم الله في أيام معلومات (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ)
⇐ الأكل من بهيمة الأنعام وإطعام البائس الفقير (فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)
⇐ قضاء تفثهم (ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ)
⇐ إيفاء نذورهم (وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ)
⇐ الطواف بالبيت العتيق (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)
⇐ القيام بهذه الشعائر هو تعظيم لحرمات الله (ذَٰلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ)
⇐ الخ

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما تكون لك حاجة عند شخص ما، فإنك تعمد إلى زيارته بنفسك في بيته، فصاحب الحاجة هو من يزور من حاجته عنده. فيقوم صاحب البيت بتطهير بيته لهؤلاء الزائرين (وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ) إيذانا باستقبالهم. وتكون أول متطلبات الزيارة لهذا الشخص في بيته هو أن تأتي البيت من بابه (وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا)، لتكون في مجال رؤية صاحب البيت، كما يتوجب على الزائر أن يظهر حسن النية بالاستسلام، فيأتي مسالما بشخصه لا يحمل معه أي نوع من الأسلحة (مرحلة الإحرام)، لأنه قادم وفي نيته تصفية المشكلة وليس تصعيدها (لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ)، فيبدأ الزائر بعد ذلك بتعداد مناقب صاحب البيت، وفضائله (وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا

رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ)، وقد يكون تقديم الطعام (أي عمل وليمة) واحدة من أهم دوافع حصول الاتفاق بين الطرفين (مادام صار بينهم خبز وملح كما يقول المثل الشعبي)، وقد يصيب الفقراء شيئا من هذا الطعام (الوليمة)، فلا يكون مقتصرا فقط على الزائر (فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ). ثم تبدأ بعد ذلك مرحلة تصفية الخلاف، فيقضوا تفثهم (ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ)، أي ما بدر منهم من نقص أو تقصير أو تفريط أدى إلى نشوب الخلاف بين الطرفين، ويلتزم الزائر بإيفاء المتطلبات التي تعهد بها (وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ)، وما أن تسوى هذه الخلافات والإيفاء بالالتزامات حتى تكون النفوس قد هدأت، فيبدءون جولة تفقدية في أرجاء البيت (وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ). فتكون هذه هي الشعائر التي يجب الالتزام بها لبيان حسن النوايا (ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ)، والخروج من هناك بالرضي للطرفين (الزائر وصاحب البيت).

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا في سياق الحج إلى البيت الحرام؟

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ٣٠﴾ [الحج: 26-30]

رأينا المفترى: بداية نحن نفهم أنه وجب على الحاج إلى البيت العتيق أن يعي تماما بأن الهدف من الحج هو الذهاب إلى ذلك البيت الذي هو بيت الله من أجل ملاقاة ربه فيزيائيا هناك، والغاية من هذه الزيارة هو فض الخلاف بينه وبين ربه. ومادام أن الحاج هو من يذهب برجليه إلى ذلك البيت، فهو إذن صاحب الحاجة الذي بدر منه التقصير أو الذنب. فيذهب إلى هناك (أي إلى صاحب البيت) مقرا بذنبه، طالبا حاجته من صاحب البيت المحرم:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فالبيت المحرم هو إذن بيت الله نفسه، وهو المكان الذي يمكن للإنسان أن يزور ربه فيه، فيذهب الحاج إلى هناك موقنا بلقاء ربه، وما أن يصل إلى المنطقة المطلة على البيت (المواقيت) حتى يبدأ تحضير نفسه لمراسيم الزيارة، فيكون أول ما يفعله هو خلع ملابسه في مواقيت محددة (أي الأماكن والأزمنة التي تم الاتفاق عليها مسبقا)، فتكون تلك هي الأهلة التي هي مواقيت للناس والحج. فيقدم راجلا لا يغطي

جسمه إلا لباس الإحرام، معلنا بذلك استسلامه التام لرب البيت العتيق. فتكون أول أهدافه هو جلب المنافع له، وما أن يصل إلى البيت حتى يبدأ يذكر اسم الله، فيقرب لله القربان من بهيمة الأنعام، فيأكل منها ويطعم البائس الفقير، ويعد العدة لقضاء تفثه وإيفاء نذره، ويقوم بفعل الطواف بالبيت العتيق، فيكون بذلك قد قام بكل الشعائر التي تبين أنه من الذين يعظمون شعائر الله، لتكون المحصلة هي الرضا من الطرفين:

- ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المجادلة: 22]

(دعاء: رب أسألك أن أكون ممن رضيت عنهم، فاكتب في قلبي الإيمان وأيدني بروح منك، إنك أنت العليم الخبير - آمين)

السؤال: أين هي تلك الأهلة (المواقيت)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن تلك المواقيت هي الأماكن التي تم الاتفاق عليها عند قطع فعل المواعدة. فالله هو من واعد موسى أربعين ليلية، لذا، كان يتوجب على موسى أن يأتي بنفسه جسديا إلى مكان محدد حيث سينعقد اللقاء بين الطرفين، فجاء موسى إلى ميقات ربه، قال تعالى:

- ﴿۞ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 142-143]

السؤال: وهل يمكن أن يتم الميقات في أي مكان؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فلا بد من تحديد المكان الذي سينعقد فيه اللقاء

السؤال: كيف عرف موسى هذا الميقات (مكان اللقاء)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن موسى كان يعلم بأن لقاء الله لقاء فيزيائيا لا يتم إلا في مكانين اثنين، وهما لا شك مباركين.

السؤال: ما هما المكانان المباركان اللذان يمكن أن يتم لقاء الله فيهما؟

رأينا المفترى: نحن لا نجد في كتاب الله أن البركة قد نزلت إلا في مكانين أثنين وهما:

1. حول المسجد الأقصى:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

2. أول بيت وضع للناس للذي ببكة، وهو الكعبة البيت الحرام:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

ولو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بهذين المكانين، لوجدنا أن أهم ما يميزهما هو الأمن، فمن دخل في هذين المكانين كان آمنا. فهذا موسى في لقاءه الأول ربه حول المسجد الأقصى في الواد المقدس طوى قد كان من الآمنين:

- ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: 31]

وهذا الأمن يشمل كل من دخل أول بيت وضع للناس ببكة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

لذا نحن نطلب من القارئ الكريم أن يكون على العقيدة التي مفادها أن مجرد دخولك إلى البيت الحرام في رحلة الحج تتحصل على الأمن مهما كان الذنب الذي اقترفته، وبغض النظر عن الظلم الذي أوقعت نفسك فيه، حتى لو كان القتل كما حصل مع موسى الذي قتل رجلا في سابق الزمان:

- ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: 15-16]

فمغفرة الله حاصلة لا محالة لكل من فرض الحج للذهاب إلى البيت العتيق، مستسلما مقرا بذنبه، مؤمنا برحمة ربه التي ليس لها حدود إلا الشرك:

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء: 48]

- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: 116]

وعدم الإشراك بالله هو الشرط الوحيد الذي اشترطه الله منذ أن رفع إبراهيم القواعد من البيت على كل من جاء داخلا البيت الحرام طالبا المغفرة من الله، قال تعالى

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 26-27]

لذا نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الحج هو الفعل التعبدي الوحيد الذي يكفل لك تكفير الذنوب جميعها. فمتى وجد الإنسان أنه قد ارتكب من المعاصي ما يفوق تصوره، فإن المخرج الوحيد هو الذهاب راجلا في رحلة الحج إلى البيت العتيق، فيدخل هذا المكان آمنا، معتقدا يقينا بأن الله لا محالة سيغفر له جميع ذنوبه.

(دعاء: اللهم رب يسر لي أن أدخل بيت العتيق، فأكون من الآمنين، لتغفر لي ذنوبي كلها، فإنه لا يغفر الذنوب جميعها إلا أنت

- إنك أنت الغفور الرحيم - آمين)

السؤال: كيف عرف موسى ميقات ربه (أي المكان الذي سيحدث فيه اللقاء)؟ هل كان موسى يعرف هذا المكان من ذي قبل؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن موسى كان يعرف جغرافية المنطقة من ذي قبل.

السؤال: من أين عرف موسى جغرافية المنطقة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن موسى كان يعرف جغرافية المنطقة لأنه سكن فيها فترة من الزمن من ذي قبل.

السؤال: متى حصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن ذلك قد حصل عندما عاش في مدين بعد أن هرب هروبه الثاني من مصر:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 22-23]

السؤال: أين هي مدين التي توجه إليها موسى؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن مدين هي المنطقة الجغرافية التي تقع إلى الشرق من البحر الأحمر وإلى الجنوب من الأرض المقدسة

الدليل

بعد أن قتل موسى ذلك الرجل الذي هو من عدوه، هرب في صبيحة اليوم التالي من المدينة، فتوجه تلقاء مدين، داعيا ربه أن يهديه سواء السبيل:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 22]

وما أن وصل أرض مدين حتى وجد على مائها امرأتين تذودان:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

ولو دققنا في هذه الآية الكريمة جيدا، لوجدنا بأن من أهم خصائص مدين أنها منطقة جغرافية تتصف بشح المياه. وليس أدل على ذلك بأن الناس فيها يجتمعون كلهم عند ماء واحد:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 23]

وتبين لنا هذه الآية الكريمة أن من أهم ميزات هذه المنطقة أنها منطقة رعوية، حيث ترد الماشية كلها على ماء واحد. لتكون النتائج الأولية المفتراة من عن أنفسنا حول هذه المنطقة الجغرافية على النحو التالي:

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): تتصف مدين (كمنطقة جغرافية) بشح المياه

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): تتصف مدين (كمنطقة جغرافية) بحرفة الرعي

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية التي تصور الاتفاق الذي حصل بين موسى وذلك الرجل الذي أنكحه إحدى ابنتيه، لوجدنا بأن الشرط هو أن يأجره عددا من الحجج:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [القصص: 27]

وهذا يدلنا ربما بما لا يدع مجالا للشك بأن الحج كان حدثا بارزا في مدين لتكون النتيجة المفتراة الثالثة الخاصة بسمات هذه المنطقة الجغرافية (أي مدين) على النحو التالي:

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (3): تمتاز مدين بوجود الحج فيها

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك كله؟

جواب مفترى: لو رجعنا إلى قصة الحج في كتاب الله، لوجدنا أن الحج قد بدأ أصلا من عند إبراهيم، أليس كذلك؟

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 26-27]

ولا شك عندنا أن الحج قد بدأ هناك في المكان الذي بوأه الله لإبراهيم وهو مكان البيت (وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ)، وكان الشرط الأساسي لهذا التبوء هذا هو عدم الإشراك (أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا).

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية التي جاءت على لسان إبراهيم، لوجدنا أن عبادة الأصنام حاضرة في المكان نفسه:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35]

ولو حاولنا أن نربط هذا مع قصة موسى نفسها، لوجدنا بأنه ما أن جاوز الله بموسى وبني إسرائيل البحر حتى كانت محطتهم الأولى هم أولئك القوم الذين يعكفون على أصنام لهم:

- ﴿وَجَٰوَزۡنَا بِبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡبَحۡرَ فَأَتَوۡاْ عَلَىٰ قَوۡمٖ يَعۡكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصۡنَامٖ لَّهُمۡۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞۚ قَالَ إِنَّكُمۡ قَوۡمٞ تَجۡهَلُونَ ١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

لتكون النتيجة الرابعة التي نحاول الترويج لها تتمثل في أن تلك المنطقة التي دخلها موسى بعد أن خرج ببني إسرائيل من مصر قد كانت أرض تمتاز بعبادة الأصنام.

لذا وجب علينا أن نبحث عن المنطقة التي تتصف بالتالي:

⇐ شح المياه
⇐ مهنة الرعي
⇐ وجود الحج
⇐ وجود الأصنام
⇐ الخ

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن واحدة من أهم الأحداث التي حصلت لبني إسرائيل بعد خروجهم من أرض مصر هو التيه في الأرض أربعين سنة:

- ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾ [المائدة: 26]

لذا لابد أننا نتحدث عن منطقة جغرافية شاسعة جدا لدرجة أن يحصل التيه فيها لقوم بأكملهم مدة أربعين سنة، ليكون السؤال هو: ما هي المنطقة المؤهلة لأن يتيه فيها جميع بني إسرائيل مدة طويلة من الزمن (أربعين سنة)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بوجوب أن تكون هذه المنطقة هي منطقة جغرافية شاسعة المساحة، ولا أظن (ربما مخطئا) أن هذا يمكن أن يكون غير مدين، وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق من البحر الأحمر وإلى الجنوب من الأرض المقدسة كما تظهر في الخريطة الجغرافية التالية:



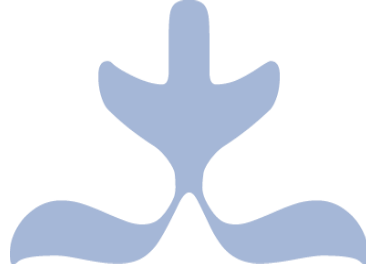
في المرة القادمة، سنحاول بإذن الله أن نتطرق لشعائر الحج كلها، والغاية المرجوة أن تتحقق من كل شعيرة ومنسك من مناسك الحج،

وسنرى تبعات هذه الافتراءات لاحقا في قضايا كثيرة جدا كالشهادة والميراث والزواج والمهر والطلاق والعدة والتربص، الخ. وهو ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في مقالات مستقلة منفصلة متى أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
4 تشرين أول 2014



فقه الحج

الجزء الرابع



فقه الحج - الجزء الرابع

خلصنا في الجزء السابق إلى افتراء قدمناه من عند أنفسنا مفاده أن مدين هي المنطقة الجغرافية التي تتسم بالصفات التالية:

⇐ هي منطقة جغرافية شاسعة
⇐ هي منطقة تتسم بشح المياه
⇐ هي منطقة يشتغل أهلها بمهنة الرعي
⇐ هي منطقة تتسم بعبادة الأصنام
⇐ هي منطقة تتسم بوجود مواسم الحج
⇐ الخ

وبناء عليه، تجرأنا على القول (ربما مخطئين) بأن مدين هي الأرض التي تقع إلى الشرق من البحر الأحمر وإلى الجنوب من الأرض المقدسة، أي هي أرض جزيرة الأعراب:

- ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ۝١٠١﴾ [التوبة: 101]
- ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُوا۟ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا۟ بِأَنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٢٠﴾ [التوبة: 120]
- ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢٠﴾ [الأحزاب: 20]

فالأعراب (أهل اللسان العربي) هم من كانوا يسكنون تلك المنطقة الجغرافية، والتي تتسم بالبداوة (بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ). لذا وجب التفريق بين البداوة من جهة والأعراب من جهة أخرى. فالبداوة هي ليست أكثر من منطقة جغرافية، فلقد كان إخوة يوسف يسكنون في البادية قبل أن يأتوا يوسف في أرض مصر:

- ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٠٠﴾ [يوسف: 100]

ولكن الأعراب (نحن نفتري الظن) هم أهل اللسان العربي اللذين كانوا يسكنون في تلك البادية الواسعة من أرض الجزيرة:

- ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيّٖ مُّبِينٖ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: 193-195]

وفي هذه المنطقة (التي أصبح لسان أهلها عربي) وضع أول بيت للناس في ذاك الواد غير الزرع، فكان بيت الله المحرم:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فكان مباركا:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٦﴾ [آل عمران: 96]

لأنه (نحن نفتري الظن) قد حظي بالتواجد الإلهي الفيزيائي فيه في مكان محدد وفي وقت محدد، فكان لزاما على من أراد أن يذهب إلى ربه أن يأتي إلى هذا المكان، لميقات ربه، كما حصل مع موسى عندما جاء لميقات ربه بناء على تلك المواعدة التي حصلت له:

- ﴿۞وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخۡلُفۡنِي فِي قَوۡمِي وَأَصۡلِحۡ وَلَا تَتَّبِعۡ سَبِيلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 142-143]

وكما حصل قبل ذلك مع إبراهيم بعد أن أخرجه الله من النار سالما:

- ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧ فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ۝٩٨ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 97-102]
- ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

ولو دققنا مليّا في هذين السياقين القرآنيين اللذين يبينان لنا كيفية خروج إبراهيم من موطنه الأصلي بعد عذاب قومه، لوجدنا ما يدعو إلى التدبر الحقيقي، فالسياق الأول جاء على نحو أن إبراهيم ذاهب إلى ربه:

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾﴾ [الصافات: 99]

لكن جاء السياق الثاني على نحو أن إبراهيم مهاجر إلى ربه:

- ﴿۞ فَآمَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾﴾ [العنكبوت: 26]

ليكون السؤال هو: ما الفرق بين ذهاب إبراهيم إلى ربه (إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي) وهجرة إبراهيم إلى ربه (إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ)؟

رأينا المفترى: لو حاولنا مقارنة السياقين لوجدنا في كل سياق أمورا هي – برأينا- غاية في الأهمية لتسليط الضوء على الفعلين اللذين قام بهما إبراهيم، وهما فعلي الذهاب والهجرة، كما في الجدول التوضيحي التالي:

﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: 99-102]	⇐ الفعل فعل ذهاب ⇐ فيه حديث عن الهداية ⇐ ذكر الغلام الحليم (إسماعيل) ⇐ وجود فعل الرؤيا في المنام ⇐ ظهور فعل الذبح للغلام الحليم ⇐ ظهور فعل الصبر ⇐ الخ
﴿۞ فَآمَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [العنكبوت: 26-27]	⇐ ذكر لوط في السياق ⇐ الفعل فعل هجرة ⇐ ذكر إسحق ويعقوب ⇐ وجود ذكر للنبوة والكتاب ⇐ ظهور فعل الصلاح ⇐ الخ

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا في سياق الحديث عن مدين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن السياق الأول يتحدث عن منطقة جغرافية محددة ذهب إليها إبراهيم بعد خروجه من النار، وهذه المنطقة هي التي يرتبط بها ولده إسماعيل، الذي كان ذبيح أبيه إبراهيم. وارتبط الحديث فيها بفعل الصبر.

أما السياق الآخر فهو يرتبط بمنطقة جغرافية أخرى مختلفة عن الأولى، وهي – برأينا- المنطقة التي هاجر إليها إبراهيم، وارتبط بها ولده إسحق ومن بعده يعقوب (أهل النبوة والكتاب)، وجاء الحديث فيها عن الصلاح.

السؤال (1): ما هي المنطقة الجغرافية التي ذهب إليها إبراهيم؟

السؤال (2): ما هي المنطقة الجغرافية التي هاجر إليها إبراهيم؟

رأينا المفترى (1): نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن المنطقة التي ذهب إليها إبراهيم هي الواد غير ذي الزرع (أي أرض مدين)

رأينا المفترى (2): نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن المنطقة التي هاجر إليها إبراهيم هي الواد المقدس طوى (أي الأرض المقدسة)

الدليل:

باب الفرق بين الذهاب والهجرة

نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الذهاب قد لا يحمل في ثناياه الديمومة، وإنما قد يكون لفترة وجيزة من الزمن:

- ﴿قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ٢٤﴾ [المائدة: 24]
- ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحۡزُنُنِيٓ أَن تَذۡهَبُواْ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأۡكُلَهُ ٱلذِّئۡبُ وَأَنتُمۡ عَنۡهُ غَٰفِلُونَ ١٣﴾ [يوسف: 13]

لكن فعل الهجرة – بالمقابل - قد يحمل في ثناياه السفر إلى مكان آخر على سبيل المكوث الطويل فيه، قال تعالى

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ يَرۡجُونَ رَحۡمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾ [البقرة: 218]
- ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُمۡ رَبُّهُمۡ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٖ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰۖ بَعۡضُكُم مِّنۢ بَعۡضٖۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَأُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأُوذُواْ فِي سَبِيلِي وَقَٰتَلُواْ وَقُتِلُواْ لَأُكَفِّرَنَّ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّهُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ثَوَابٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلثَّوَابِ ١٩٥﴾ [آل عمران: 195]
- ﴿وَدُّواْ لَوۡ تَكۡفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَآءٗۖ فَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ أَوۡلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡۖ وَلَا تَتَّخِذُواْ مِنۡهُمۡ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرًا ٨٩﴾ [النساء: 89]
- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا مُسۡتَضۡعَفِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمۡ تَكُنۡ أَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٗ فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ٩٧﴾ [النساء: 97]
- ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُرَٰغَمٗا كَثِيرٗا وَسَعَةٗۚ وَمَن يَخۡرُجۡ مِنۢ بَيۡتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدۡرِكۡهُ ٱلۡمَوۡتُ فَقَدۡ وَقَعَ أَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٠﴾ [النساء: 100]

- ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيۡءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوۡمِۭ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُم مِّيثَٰقٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٧٢﴾ [الأنفال: 72]
- ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٧٤ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ مَعَكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمۡۚ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ٧٥﴾ [الأنفال: 74-75]
- ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٢٠﴾ [التوبة: 20]
- ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١٠٠﴾ [التوبة: 100]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [النحل: 41]
- ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١١٠﴾ [النحل: 110]
- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨﴾ [الحج: 58]
- ﴿وَلَا يَأۡتَلِ أُوْلُواْ ٱلۡفَضۡلِ مِنكُمۡ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤۡتُوٓاْ أُوْلِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ وَلۡيَعۡفُواْ وَلۡيَصۡفَحُوٓاْۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٢٢﴾ [النور: 22]
- ﴿۞فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦﴾ [العنكبوت: 26]
- ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ٦﴾ [الأحزاب: 6]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحۡلَلۡنَا لَكَ أَزۡوَٰجَكَ ٱلَّٰتِيٓ ءَاتَيۡتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتۡ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِي هَاجَرۡنَ مَعَكَ وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا خَالِصَةٗ لَّكَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۗ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا فَرَضۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ لِكَيۡلَا يَكُونَ عَلَيۡكَ حَرَجٞۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ٥٠﴾ [الأحزاب: 50]
- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِمۡ وَأَمۡوَٰلِهِمۡ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ

حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٩﴾ [الحشر: 8-9]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٖ فَٱمۡتَحِنُوهُنَّۖ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّۖ فَإِنۡ عَلِمۡتُمُوهُنَّ مُؤۡمِنَٰتٖ فَلَا تَرۡجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلۡكُفَّارِۖ لَا هُنَّ حِلّٞ لَّهُمۡ وَلَا هُمۡ يَحِلُّونَ لَهُنَّۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّۚ وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۖ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ١٠﴾ [الممتحنة: 10]
- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]
- ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: 46]
- ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾ [المزمل: 10]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ [المدثر: 1-7]

ولو تفقدنا هذه السياقات جميعها، لوجدنا بأن الهجرة ربما تحدث بسبب وجود مشكلة في المكان الذي بدأت منه، وغالبا ما يقع الظلم الذي ربما يجعل استمرارية التعايش معا في المكان نفسه صعبا، قال تعالى:

- ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٤١﴾ [النحل: 41]

وغالبا ما يكون نتيجة خصام بين الطرفين، كما في حالة هجرة النساء في المضاجع:

- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]

فعدم الاقتراب من النساء في المضاجع يحدث لسببين اثنين، إما بسبب المحيض، وهذا ما يسمى في السياق القرآني بالاعتزال:

- ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ٢٢٢﴾ [البقرة: 222]

ويمكن أن يحدث عدم الاقتراب من النساء بسبب احتمالية نشوزهن، وهنا يسمى في السياق القرآني هجران:

- ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٞ لِّلۡغَيۡبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهۡجُرُوهُنَّ فِي ٱلۡمَضَاجِعِ وَٱضۡرِبُوهُنَّۖ فَإِنۡ أَطَعۡنَكُمۡ فَلَا تَبۡغُواْ عَلَيۡهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيّٗا كَبِيرٗا ٣٤﴾ [النساء: 34]

ونحن نفتري الظن بأن الاعتزال لا يتطلب (نحن نفتري الظن) مغادرة المكان كليا، بدليل ما فعله إبراهيم عندما اعتزل قومه:

- ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨﴾ [مريم: 48]

ولكن الهجرة تتطلب (نحن نفتري الظن) مغادرة المكان كله، كما فعل إبراهيم عندما هاجر من تلك الأرض التي كان يسكنها حينئذ إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين:

- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]

ولو عدنا إلى سياقات الحديث عن ترك إبراهيم لتلك الأرض مرة أخرى، لوجدنا أن كل واحدة منهما يتحدث عن فرع مختلف من ذرية إبراهيم، ففي حين أن إسماعيل قد ارتبط اسمه مع الأرض التي ذهب إليها إبراهيم:

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩ رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠٠ فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ ١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعۡيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾ [الصافات: 99-102]

ارتبط اسم إسحق (وذريته من بعده) مع الأرض التي هاجر إليها إبراهيم:

- ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ وَءَاتَيۡنَٰهُ أَجۡرَهُۥ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

فيصبح ارتباط إبراهيم بهذين المكانين على النحو المبين في الجدول التالي:

إبراهيم	ذهب إلى الأرض التي يتواجد فيها الواد غير ذي الزرع ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ۝٩٩ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ۝١٠١ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ۝١٠٢﴾ [الصافات: 99-102]	هاجر إلى الأرض المباركة ﴿۞ فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّي ۖ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝٢٧﴾ [العنكبوت: 26-27]

فأصبح الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم هي مكان سكن إسماعيل وذريته من بعده:

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وأصبحت الأرض المباركة هي الموطن الدائم لذرية إبراهيم من إسحق (يعقوب) ومن بعده موسى هي الأرض المباركة التي كتب الله لهم:

- ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۝٢١﴾ [المائدة: 21]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: نحن نظن أنه ما دام أن موسى هو من هذه الذرية (أي من ذرية بني إسرائيل)، فإن ارتباطه بهذين المكانين لم يكن أكثر من ارتباط إبراهيم لهما، لذا نحن نتجرأ على الظن بأن موسى قد ذهب إلى الواد غير ذي الزرع ذهابا، بينما كانت الأرض المقدسة التي بارك الله فيها هي موطنه، فحصلت هجرته (مع بني إسرائيل) إليها بعد خروجهم من أرض مصر:

- ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦ أَنْ أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝١٧﴾ [الشعراء: 16-17]

لكن – بالمقابل- أصبح مسكن ذرية إبراهيم من إسماعيل هي منطقة الواد غير ذي الزرع:

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وما دام أن هذه الأرض لم تكن أكثر من سكن (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ) لمن أسكنه إبراهيم من ذريته هناك، لم تكن موطنهم الدائم، وذلك لأن المنطقة لم تكن مسكونة من ذي قبل،

فإبراهيم هو من دعا الله أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم (فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ)، فيصبح الجدول على النحو التالي:

إبراهيم	ذهب إلى الواد غير ذي الزرع	هاجر إلى الأرض المقدسة
موسى	ذهب إلى الواد غير ذي الزرع	هاجر إلى الأرض المقدسة

السؤال: ما الهدف من ذهاب إبراهيم إلى الواد غير ذي الزرع؟ وما الهدف من ذهاب موسى أيضا إلى هناك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الهدف الرئيس من الذهاب إلى الواد غير ذي الزرع هو الهداية، فلقد ذهب إبراهيم إلى ذلك المكان موقنا بهداية ربه له:

- ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصافات: 99]

وتوجه موسى إلى ذلك المكان طامعا في هداية ربه:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 22-23]

ولم يكن مكوث موسى في تلك الأرض على سبيل الدوام، بدليل الاتفاق الذي عقده مع الرجل الذي أنكحه إحدى ابنتيه:

- ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ٢٧ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ٢٨﴾ [القصص: 27-28]

ولو تفقدنا هذا السياق القرآني، لوجدنا بأن العقد قد اشترط بفترة زمنية هي الحجج، ليكون السؤال هو: لماذا كان الشرط بينهما مبنيا على عدد من الحجج؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من أبسط الاستنباطات التي يمكن الوثوق بها هو القول بأن أهل تلك المنطقة كانوا يخبرون الحج، فلقد كان الحج في تلك المنطقة هو الحدث الأبرز الذي بني عليه التقويم الزمني لأهل تلك المنطقة. ليكون الاستنباط المهم جدا الذي نريد الوقوف عنده هو أن مدين (الأرض التي وجد موسى نفسه فيها غريبا) هي أرض الحج؟

السؤال: إلى أي منطقة جغرافية يحج الناس؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الحج يتم إلى البيت، قال تعالى:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

نتيجة مفتراة: مادام أن الحج هو فعل يتم إلى البيت، فإننا نتجرأ على افتراء القول بأن موسى قد عاصر الحج في تلك المنطقة (مدين) ثمان أو عشر حجج، فهو إذن على دراية كافية بتفاصيل شعائر ومناسك الحج الصحيح كما كان مطبقا في ذلك الوقت، أي زمن رسول مدين (شعيب):

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 85-86]
- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ۚ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾ وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ ۖ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا ۖ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ ۖ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ۖ وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود: 84-94]

- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗا فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱرۡجُواْ ٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 36-37]
- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمِ ٱلظُّلَّةِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗۖ وَمَا كَانَ أَكۡثَرُهُم مُّؤۡمِنِينَ ١٩٠﴾ [الشعراء: 176-190]

ولو تدبرنا هذه السياقات القرآنية كلها، لربما تجرأنا على تقديم الافتراءات التالية:

⇐ أن رسول مدين حينئذ هو نبي الله شعيب
⇐ أن قومه هم أصحاب الأيكة
⇐ أن مشكلتهم كانت خاصة بالكيل والميزان
⇐ أن تحديهم كان على نحو أن يسقط السماء عليهم كسفا
⇐ كان عذابهم على نحو صاعقة
⇐ كان عذابهم على نحو رجفة
⇐ الخ

ولو دققنا في هذه الاستنباطات، لوجدنا بأن القوم الذين كانوا يسكنون تلك المنطقة قليلو العدد، ثم تكاثروا من بعد ذلك (وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ). كما نفتري الظن بأن القوم كانوا يشتغلون بالتجارة مادام أن مشكلتهم هي الكيل والميزان (فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ). وأن القوم كانوا يعلمون كيف يمكن أن تسقط السماء كسفا:

- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّي لَكُمۡ رَسُولٌ أَمِينٞ ١٧٨ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ أَجۡرٍۖ إِنۡ أَجۡرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُخۡسِرِينَ ١٨١ وَزِنُواْ بِٱلۡقِسۡطَاسِ ٱلۡمُسۡتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُواْ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلۡجِبِلَّةَ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشعراء: 176-187]

ولو دققنا مليا في هذه الجزئية على وجه التحديد في السياقات القرآنية على مساحة النص القرآني كله، لما وجدنا أنها قد ظهرت مرة أخرى إلا في السياقات التي تتحدث عن قوم محمد، وهم الذين طلبوا منه أن يسقط السماء عليهم كسفا:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ [الإسراء: 89-93]
- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: 7-9]
- ﴿أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الطور: 41-45]

نتيجة مفتراة (1): طلب قوم شعيب من نبيهم أن يسقط السماء عليهم كسفا

نتيجة مفتراة (2): طلب قوم محمد من نبيهم أن يسقط السماء عليهم كسفا

السؤال: لماذا جاء طلي قوم شعيب وقوم محمد فقط على هذا النحو، أي إسقاط السماء عليهم كسفا.

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: لأنهم هم أصحاب الأيكة، فإسقاط السماء كسفا لها علاقة بالأيكة:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: 78-79]

تساؤلات

⇐ كيف يكون ذلك؟
⇐ وما علاقة الأيكة بإسقاط السماء كسفا؟
⇐ لماذا كان قوم شعيب هم أصحاب الأيكة؟
⇐ وما معنى أن يكون هؤلاء القوم على وجه التحديد هم أصحاب الأيكة؟ فما هي الأيكة أصلا؟
⇐ الخ

رأينا المفترى: نحن نظن أن الإجابة على هذه التساؤلات تتطلب بداية معرفة المنطقة الجغرافية التي كان القوم يسكنونها، فلو سلمنا بافترائنا الذي قدمناه من عند أنفسنا بأن مدين هي أرض جزيرة العرب الذين كان عددهم قليل في الأصل (وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ)، ثم تكاثروا من بعد ذلك، وهم من سكنوا الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم جنبا إلى جبن مع إسماعيل:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وجب علينا إذن أن نبحث عن أهم معلم من معالم تلك المنطقة الجغرافية، ليكون السؤال الأبرز هو: ما الذي يميز تلك المنطقة عن غيرها من المناطق المحيطة بها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: إنها الأيكة:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨ فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٖ مُّبِينٖ ٧٩﴾ [الحجر: 78-79]

السؤال: ما هي الأيكة أصلا؟

رأينا: عندما يتحدث النص القرآني عن مفردة الصاحب التي تجمع على أصحاب، نجد أن المصاحبة هي عبارة عن الملازمة لفترة من الزمن، وقد تحدث هذه الصحبة للمكان، كأصحاب الكهف:

- ﴿أَمۡ حَسِبۡتَ أَنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡكَهۡفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنۡ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ٩﴾ [الكهف: 9]

أو كأصحاب الجنة:

- ﴿إِنَّا بَلَوۡنَٰهُمۡ كَمَا بَلَوۡنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ إِذۡ أَقۡسَمُواْ لَيَصۡرِمُنَّهَا مُصۡبِحِينَ ١٧﴾ [القلم: 17]

أو كأصحاب القرية:

- ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣﴾ [يس: 13]

أو للسجن:

- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسف: 39]
- ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ ٤١﴾ [يوسف: 41]

أو كأصحاب مدين:

- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة: 70]
- ﴿وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج: 44]

وقد تتحقق الصحبة للأشخاص:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ٤٠﴾ [التوبة: 40]
- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا ٣٤﴾ [الكهف: 34]
- ﴿قُلۡ أَنَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعۡقَابِنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِي ٱسۡتَهۡوَتۡهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِي ٱلۡأَرۡضِ حَيۡرَانَ لَهُۥٓ أَصۡحَٰبٞ يَدۡعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلۡهُدَى ٱئۡتِنَاۗ قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۖ وَأُمِرۡنَا لِنُسۡلِمَ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنعام: 71]

وقد تحدث للأشياء، كأصحاب السفينة:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]

أو كأصحاب الفيل:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]

ليكون السؤال الآن هو على النحو التالي: لماذا جاء النص على نحو " أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ "؟ فما هي الأيكة إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن الاحتمالات القائمة هي واحدة من ثلاثة: إما أن تكون الأيكة هي مكان (كالكهف أو جنة أو القرية أو مدين) أو أن تكون شخص (أشخاص) أو أن تكون شيئا (كالسفينة أو الفيل).

السؤال: إلى أي الخيارات يمكن أن يكون الظن عندنا أميل عند الحديث عن أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ؟

رأينا المفترى: نحن نستبعد أن تكون الأيكة هي مكان، لأن أصحاب الأيكة هم أنفسهم أصحاب مدين، قال تعالى:

- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: 176-177]
- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: 84]

لذا نفتري القول بأنه عندما كان الحديث عن المكان الذي سكن فيه قوم شعيب جاء النص القرآني ليبين لنا بأن مكانهم هي مدين، لذا يستحيل أن تكون الأيكة مكانا لأن مدين هي مكان سكنهم. فما هي الأيكة إذن؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تكون الأيكة هي شخص أو أشخاص، لأن صحبة للأشخاص تحصل في مكان معين، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [التوبة: 40]
- ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾﴾ [الكهف: 34]
- ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: 71]

فأنت عندما تتحدث عن صحبة شخص (أو أشخاص)، فإن ذلك لا يكون على سبيل الدوام وإنما لفترة محددة من الزمن، لغاية محددة بعينها:

- ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾﴾ [البروج: 4-6]

السؤال: ما هي الأيكة إذن إن لم تكن مكانا أو أشخاص (كما تزعم)؟ يسأل صاحبنا

رأينا المفترى: نحن نظن أن الأيكة هي شيء كالسفينة أو كالفيل:

- ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٥﴾ [العنكبوت: 15]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ [الفيل: 1]

لتكون النتائج المفتراة التي نحاول الوصول إليها من هذا النقاش على النحو التالي:

نتيجة مفتراة (1): كان المكان الذي سكنه قوم شعيب هو مدين ()

- ﴿أَلَمۡ يَأۡتِهِمۡ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ قَوۡمِ نُوحٖ وَعَادٖ وَثَمُودَ وَقَوۡمِ إِبۡرَٰهِيمَ وَأَصۡحَٰبِ مَدۡيَنَ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَٰتِۚ أَتَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٧٠﴾ [التوبة: 70]
- ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدۡ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَثَمُودُ ٤٢ وَقَوۡمُ إِبۡرَٰهِيمَ وَقَوۡمُ لُوطٖ ٤٣ وَأَصۡحَٰبُ مَدۡيَنَۖ وَكُذِّبَ مُوسَىٰۖ فَأَمۡلَيۡتُ لِلۡكَٰفِرِينَ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ٤٤﴾ [الحج: 42-44]

نتيجة مفتراة (2): كان هناك في ذلك المكان (أي مدين) شيء آخر يميز هذه المنطقة عن غيرها من المناطق، فيجعلها خاصة بهؤلاء القوم على وجه التحديد.

السؤال: ما هو ذاك الشيء الذي كان يميز مدين عن غيرها من الأماكن؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: إنها الأيكة.

السؤال: وما هي الأيكة إن كانت فعلا شيئا خاصا بهؤلاء القوم ولا توجد عند غيرهم من الأقوام؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا ندقق في جغرافية مدين لنبحث عن المعلم الأبرز فيها، أي ذاك الشيء الذي يجعلها تمتاز عن غيرها من الأماكن الجغرافية التي تحث عنها النص القرآني.

السؤال: وهل هناك أصلا معلم بارز يميز مدين عن غيرها من المناطق الجغرافية المحيطة بها؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأنه إن صح افتراؤنا بأن مدين هي أرض جزيرة الأعراب، فإننا نتجرأ على الظن بأن أهم معلم يميز هذه المنطقة الجغرافية عن غيرها هو البيت الحرام. انتهى.

السؤال: ما علاقة الأيكة بالبيت الحرام؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا: نحن نتجرأ على الظن بأن البيت الحرام هو الأيكة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لو عدنا إلى قصة البيت الأول الذي وضع للناس ببكة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

ولكن هذا البيت لم يبقى على حالته الأولى عندما وضع في ذلك الواد غير ذي الزرع، بدليل أن إبراهيم وولده إسماعيل قد رفعا القواعد منه لاحقا:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ۖ إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

ليكون السؤال: الحتمي الآن هو: لماذا رفع إبراهيم وولده إسماعيل القواعد من البيت لاحقا؟

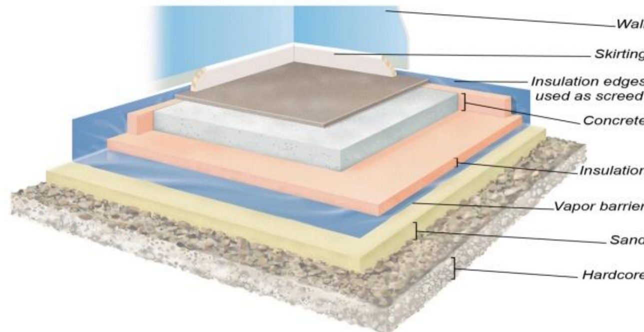
رأينا المفترى: لو دققنا مليّا في هذا السياق القرآني، لوجدنا بأن جلّ ما قام به إبراهيم وولده إسماعيل هو رفع القواعد من البيت، ليكون السؤال الآن هو: كيف يمكن أن نتخيل ذلك البيت قبل وبعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نتخيل ذلك البيت قبل أن يرفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه على نحو أنه غير موجود باستثناء قواعده التي عمد رفعها إبراهيم إلى رفعها مع ولده إسماعيل. ومادام أن البيت يرفع على أربعة قواعد، فإننا نتخيله على النحو التالي:

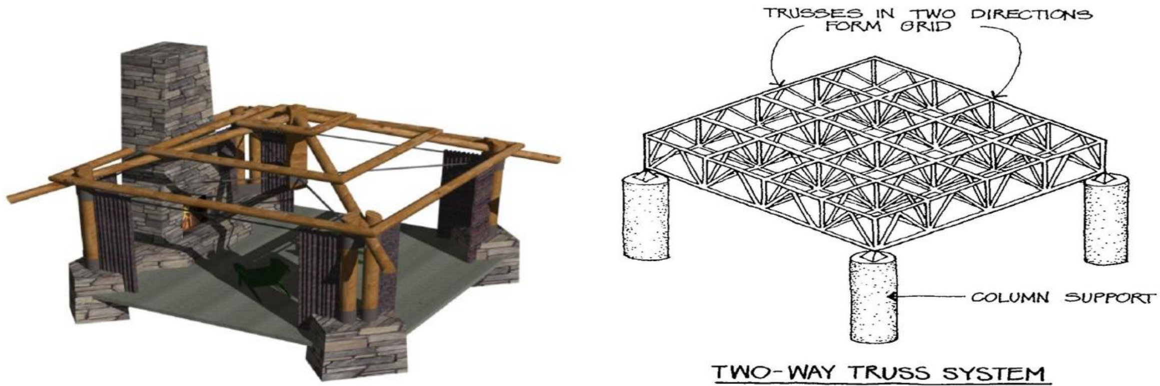
أولا، يتم تجهيز الأرض التي سيبنى عليها البيت، فيتم البحث عن أرض صلبة تستطيع تحمل البناء الذي سينشأ فوقها، فالبنيان الصحيح "المتين" يحتاج إلى أرض صلبة تستطيع تحمله، وهذا ما يسمى بالأساس (أو foundation):

- ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [التوبة: 109]

وهذا ما يسمى بالمفردات الأعجمية (Hardcore)، كما في الشكل التوضيحي التالي:

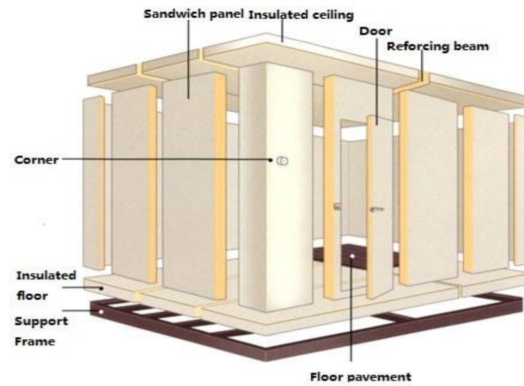


ثانيا، ما أن يتم تجهيز الأساس (foundation) حتى يقوم البنّاء بوضع القواعد التي تكون على شكل أعمدة طولية مربعة أو مستطيلة الشكل، تثبت على زوايا البناء الأربعة (Wall corner studs or post)، كما في الشكل التوضيحي التالي:



ثالثا، ما تنشأ هذه الأعمدة على الأرض الصلبة حتى يتم بناء الجدران.

رابعا، ما أن يتم الانتهاء من بناء الجدران حتى يتم وضع السقف فوقها، كما في الشكل التوضيحي التالي:



لكن لو عدنا إلى قصة إبراهيم وولده إسماعيل في بناء ذلك البيت، لوجدنا أن إبراهيم وولده إسماعيل لم يقوما إلا بفعل رفع القواعد من البيت:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

السؤال: وما المشكلة في ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نجد المشكلة في التساؤل البسيط التالي: أين السقف؟ هل عمد إبراهيم وولده إسماعيل إلى وضع السقف للبيت بعد أن رفعا القواعد منه؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فليس هناك سقف للبيت الذي رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه.

السؤال: وهل يمكن أن يكون البيت كاملا بدون سقف؟ أليس من متطلبات وجود القواعد وجود السقف أيضا حتى يصبح بيتا قابلا للسكن فيه. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- السياق القرآني التالي الذي يصور لنا تلازم القواعد مع السقف:

- ﴿لِيَحْمِلُوٓاْ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: 25-26]

مفتراة من عند أنفسنا: لا يمكن أن يبنى السقف إلا على القواعد لكي يرفع عليها. فما أن تنهار القواعد حتى يخر السقف. ونحن نفتري القول بأن البيت لا يمكن أن يكون مكتملا دون وجود السقف، قال تعالى:

- ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَـٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزخرف: 33]

والسقف هو – برأينا- البناء الذي يرفع فوق القواعد، بدليل أن السماء فوقنا قد رفعت:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾ [الرعد: 2]
- ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: 7]

فكانت سقفا محفوظا:

- ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَـٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [الأنبياء: 32]

السؤال: كيف إذن يمكن أن نتخيل ذلك البناء الذي رفعه إبراهيم وولده إسماعيل، مادام أنهما قد رفعا القواعد من البيت فقط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن ذلك البناء لم يكن بيتا مكتمل البناء مادام أنه بناء بلا سقف.

السؤال: لماذا لم يبني إبراهيم وولده إسماعيل سقفا فوق تلك القواعد التي رفعاها؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن إبراهيم كان يعي تماما ما يفعل، ومادام أنه لم يبني سقفا فوق القواعد التي رفعها، لذا لم يكن هناك حاجة لذلك.

السؤال: لماذا لم يكن هناك حاجة لبناء السقف؟ ولم كان هناك حاجة لرفع القواعد فقط؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن إبراهيم قد رفع القواعد من البيت فقط ليحدد مكان البيت للناس، أي المكان الذي يتوجب على الناس الحج إليه:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

فجل ما فعل إبراهيم هو أن يحدد للناس مكان البيت:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: 26]

فمادام أن الله هو من بوأ لإبراهيم مكان البيت، كانت مهمة إبراهيم تنحصر في تبيان ذلك للناس أجمعين.

السؤال: ما معنى أن الله قد بوأ لإبراهيم مكان البيت؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن تبوء المكان هو تحديد جغرافيته بالضبط كما حصل مع موسى عندما تبوء وأخوه هارون لقومهما بيوتا بمصر:

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ۝٨٧﴾ [يونس: 87]

فعندما طلب الله من موسى وأخيه هارون أن يتبوءا لقومهما بمصر بيوتا (أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا) كان ذلك على نحو تحديد المكان الذي ستبنى عليه تلك البيوت لتكون قبلة (وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً)، وتتم إقامة الصلاة بتولية الوجوه شطرها (وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ).

لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الله هو من بوأ لإبراهيم مكان البيت، فدله على مكانه بالضبط، فعمد إبراهيم إلى رفع القواعد من ذلك البيت، ليكون قبلة الناس:

- ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ۝١٤٤﴾ [البقرة: 144]

- ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩ وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: 149-150]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: كان الله هو من بوأ لإبراهيم مكان البيت، فعمد إبراهيم إلى رفع القواعد منه، ليكون هو قبلة الناس، فلا يكون لهم حجة على الله.

السؤال: لماذا لم يبني إبراهيم السقف فوق القواعد التي رفعها؟

جواب مفترى: لأن ذلك لم يكن ضروريا.

السؤال: لماذا لم يكن ذلك ضروريا؟

جواب: لأن السقف أصلا موجود.

السؤال: ما الذي تقوله يا رجل؟ هل جننت؟ كيف يكون السقف موجودا وإبراهيم لم يرفعه فوق القواعد؟ وأين هو السقف إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نظن أن سقف ذلك البيت مرفوع أصلا، فلا حاجة لأن يرفعه إبراهيم مرة أخرى فوق تلك القواعد التي رفعها وولده إسماعيل.

السؤال مرة أخرى: أين هو ذلك السقف؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى: نحن نظن أن السقف مرفوع بدليل قوله تعالى:

- ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٍ مَّسۡطُورٍ ٢ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾ [الطور: 1-5]

السؤال مرة أخرى: كيف يمكن أن نتخيل ما رفعه إبراهيم وولد إسماعيل من البناء؟

جواب مفترى: لقد كان فقط على شكل قواعد مرفوعة.

السؤال: وماذا يمكن أن نسمي ذلك البناء المرفوعة قواعده بدون سقف؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه الأيكة.

السؤال: أين ذهب ذلك السقف؟ وهل كانت الكعبة بدون سقف عندما وضعت للناس:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فقد كانت بيتا متكاملا، أي قواعد مرفوعة فوقها السقف، مادام أنه بيتا. فالبيت هو عبارة عن قواعد وسقف. انتهى.

السؤال: أين ذهب ذلك السقف؟

تخيلات مفتراة خطيرة جدا جدا: لم يكن آدم وزوجه من جنس الناس، لأن الناس هم أصلا من جاء خلقهم من ذكر وأنثى:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]

وبدأت قصة الناس مع من جاء خلقه من ذكر وأنثى، فبدأ مع ولدي آدم، فهم آول من خلق من الناس. وهم من وضع لهم البيت الأول وضعا:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

لكن لما كان لآدم ابنين اثنين، وهما حسب زعمنا في مقالات سابقة نبي الله إدريس وأخيه إسرائيل، وكان هناك بيت واحد فقط، دب الخلاف بين الأخوين على ملكية ذلك البيت، ولم يحسم الجدال بينهما على ملكية ذلك البيت إلا بتقريب القربان، الذي قبله الله من أحدهما (إدريس) ولم يقبله من الآخر (إسرائيل)، فلم يكن ذلك ليرضى إسرائيل فتوعد أخاه إدريس بالقتل:

- ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: 27]

وبالفعل نفّذ إسرائيل تهديده فقتل أخاه إدريس، فأصبح من الخاسرين:

- ﴿۞ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة: 27-30]

منطقنا المفترى: لما كان إسرائيل من المعتدين، ولما لم يكن له حق في ملكية ذلك البيت، تدخل الإله نفسه، فحرم ذلك البيت على إسرائيل، فأصبح بيتا محرما:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وحتى لا يستطيع إسرائيل السكن في ذلك البيت (ما دام أن الله قد حرمه عليه)، عمد الإله إلى رفع سقف البيت، فلم يعد صالحا لأن يسكن بعد ذلك، فأصبح بيتا محرما على إدريس:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

وأصبح بعد ذلك بيتا حراما، قياما للناس أجمعين:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

فلم يكن لأحد الحق في أن يدعي ملكيته، لأن ملكيته تعود للناس أجمعين، فلكل واحد من الناس نصيبه في ذلك البيت الأول، فكان لزاما على من أراد أن يأخذ نصيبه من ملكية ذلك البيت أن يقوم بفعل الحج:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: لا تصدقوها: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن الغاية الأساسية من الذهاب في رحلة الحج إلى ذلك البيت على وجه التحديد هو طلب الحق في ملكية نصيبه (أي حصته) من ذلك البيت. فمن فرض الحج في أشهر الحج فقد طلب نصيبه (أي حقه) من ملكية ذلك البيت.

الدليل: ما معنى مفردة "الحج"؟

جواب مفترى: نحن نظن أن مفردة الحج لها علاقة بالحجة:

- ﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾ [البقرة: 150]

ونحن نظن أن الحجة هي إثبات الحق على الخصم، بدليل ما حصل بين إبراهيم وقومه من ذي قبل:

- ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ۚ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ۚ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا ۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأنعام: 79-80]

فقد كانت المحاجة بين إبراهيم وقومه مبنية على أساس تولية الوجوه، فلقد وجه إبراهيم وجهه للذي فطر السموات والأرض (إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، لكن لما كان قومه من المشركين، لم يكن ليرضيهم أن يولوا وجوههم للذي فطر السموات والأرض فقط، وإنما كانوا يلون وجوههم شطر غيره، فحصلت المحاجة بينهم (نحن نتخيل) حول تولية الوجوه، أي المكان الذي تولي إليه وجهك. فالله هو من هدى إبراهيم إلى المكان الذي يولي إليه وجهه ليجد ربه. فكان ذلك شطر المسجد الحرام.

وحصل السيناريو نفسه مع موسى وأخيه هارون عندما تبوءا لقومهما بمصر بيوتا:

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۗ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس: 87]

ولازلنا حتى يومنا هذا نستخدم المفردة "حجة" في ادعاء ملكية المكان، فأنت تكتب حجة (أي وثيقة ملكية) لقطعة من الأرض أو لبيت من البيوت، لتكون أنت صاحب الحق في ملكيته.

لذا، عندما يفرض الإنسان الحج إلى البيت العتيق، فإنه يذهب إلى هناك وفي نيته أن يرجع من هناك بحجة (أي سند ملكية) يثبت حقه في حصته من ذلك البيت. أما الذي لا يفعل ذلك، وربما ينكر مثل ذلك الفعل، ولا يولي وجهه شطر ذلك البيت، فهو كمن تنازل عن حقه فيما له من نصيب من ملكية ذلك البيت، فلن ليكون له على الله حجة إذن:

- ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾﴾ [البقرة: 150]

عودة على بدء

ما أن أصبح ذلك البيت محرما على القاتل من ابني آدم، حتى أصبح بيتا حراما على أحد من بعده، فكان قياما للناس أجمعين:

- ﴿۞ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِّلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [المائدة: 97]

وحتى لا يصبح ذلك البيت قابلا للسكن، رفع سقفه رفعا، فكان سقفا مرفوعا إلى قيام الساعة:

- ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾ [الطور: 1-5]

تساؤلات

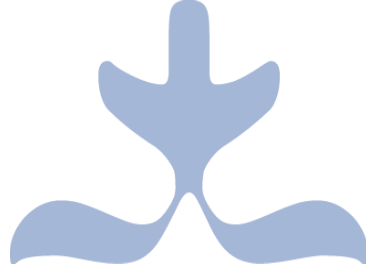
⇐ ما هو الطور
⇐ ما الكتاب المسطور
⇐ ما هو البيت المعمور؟
⇐ ما هو السقف المرفوع؟
⇐ الخ

سنحاول في الجزء القادم من هذه المقالة تسليط الضوء على هذه القضايا، مركزين على تبعات ظننا في أن السقف (أي سقف البيت المعمور) لازال حتى الساعة مرفوعا على مجمل العقيدة التي نؤمن بها، والتبعات الفعلية والعملية لمثل هذه العقيدة ربما غير المألوفة عند الناس.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

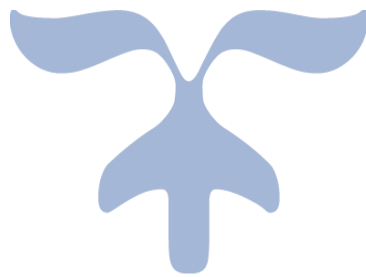
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
9 تشرين أول 2016



فقه الحج

الجزء الخامس



فقه الحج - الجزء الخامس

كان مما أنشدت الراحلة الكبيرة أم كلثوم من قصيدة الأطلال لإبراهيم ناجي الأبيات الشعرية الجميلة التالية:

يَا حَبِيبًا زُرْتُ يَوْمًا أَيْكَهُ .... طَائِرَ ٱلشَّوْقِ أُغَنِّي أَلَمِي
لَكَ إِبْطَاءُ ٱلْمُذِلِّ ٱلْمُنْعِمِ .... وَتَجَنِّي ٱلْقَادِرِ ٱلْمُحْتَكِمِ
وَحَنِينِي لَكَ يَكْوِي أَضْلُعِي .... وَٱلثَّوَانِي جَمَرَاتٌ فِي دَمِي

فاستشعر الناس حلاوة الكلمات، وتذوقوا الموسيقى العذبة التي تسري بينها، وتجلت أرواحهم مع الصوت المبهر لهذه المنشدة التاريخية، فارتفعت تصفيقات الحضور مع نهاية هذا المقطع إلى أقصى حد ممكن. لكن يبقى التساؤل المثير هو: هل فعلا فهم المستمعون معاني هذه الأبيات الشعرية الجميلة؟ وهل فعلا فهموا على وجه التحديد معنى مفردة أَيْكَهُ التي ترد في هذا البيت الشعري الجميل:

يَا حَبِيبًا زُرْتُ يَوْمًا أَيْكَهُ .... طَائِرَ ٱلشَّوْقِ أُغَنِّي أَلَمِي

ليكون السؤال هو: ما هو أيك الحبيب؟

رأينا المفترى: لعل من أبسط مسلمات التفكير في مثل هذا السياق هو التالي:

- ⇐ أن الزيارة تتطلب وجود طرفين وهما الزائر والمزور.
- ⇐ أن زيارة الحبيب للحبيب تتم في مكان محدد بعينه. فلا يمكن أن تحدث الزيارة إلى لا مكان.
- ⇐ أن زيارة الحبيب للحبيب تحدث بدافع الشوق والرغبة في اللقاء
- ⇐ أن زيارة الحبيب للحبيب قد لا تحصل كثيرا، فهي تحدث بين الحين والآخر كلما سنحت الفرصة لذلك
- ⇐ أن الزيارة لا يمكن أن تحدث إلا بتحديد اللقاء بين الطرفين، ويتضمن ذلك تحديد ميقات الزيارة، أي الزمان والمكان
- ⇐ الخ

لعل أكثر ما يهمنا من هذه الجوانب في هذا السياق هو ميقات الزيارة، الذي يتطلب تحديد الزمان والمكان، أي أين ومتى يمكن أن تحصل زيارة الحبيب للحبيب؟

رأينا المفترى: إذا كان تحديد زمان زيارة الحبيب للحبيب متفاوت، أي قد يحدث من وقت إلى آخر كلما سنحت الفرصة لذلك، فإن مكان الزيارة غالبا ما يكون ثابتا، أي ربما يكون المكان نفسه في جميع الزيارات. فغالبا ما يكون الاتفاق مسبقا بين الأحبة على مكان اللقاء، ليكون السؤال هو: ماذا يمكن أن نسمي المكان الذي يمكن أن تحدث فيه زيارة الحبيب للحبيب؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن المكان الذي يلاقي فيه الحبيب حبيبه هو (على الأقل حسب مفردات القصيدة نفسها) الأيك، كما جاء على لسان الشاعر:

يَا حَبِيبًا زُرْتُ يَوْمًا أَيْكَهُ .... طَائِرَ ٱلشَّوْقِ أُغَنِّي أَلَمِي

ولو تفقدنا البيت الشعري نفسه، لوجدنا أن الربط بين الأيك من جهة والطائر من جهة أخرى واضحا، ليكون السؤال هو: لماذا؟ أي ما علاقة الأيك بالطائر؟

رأينا المفترى: لو دققنا في كلام الأعراب (أهل العربية)، لوجدنا بأنهم غالبا ما استخدموا مفردة الأيك لتدل على بيت الطائر، أي العش (بالكلمات الدراجة). ليكون السؤال هو: لماذا نسمي بيت الطائر (العش) أيكا؟

رأينا المفترى: لعل من أبسط خصائص العش للطائر هو أنه عبارة عن بيت بلا سقف، فعش الطائر هو عبارة عن أساس وجدران دون سقف، كما في الشكل التوضيحي التالي:



كما يمكن أن نفتري الظن بأن هذا البيت غالبا ما يكون مصمما لأن يتواجد به عصفوران (الذكر والأنثى)، كما في الشكل التالي:



ولو حاولنا أن نربط ذلك بقصة لقاء الحبيب حبيبه في الأيك، لوجدنا أن أهم ما يريده الأحبة عند اللقاء هو التخفي عن أعين الناظرين من الناس من حولهم، ولكنهم – لا شك عندنا- قد لا يعيرون كثير انتباه لمن يراهم من الأعلى، أي الرب الذي فوقهم، فلو كانوا أصلا مهتمين لمراقبة الإله لهم، لما أقدموا على مثل هذه الفعلة إلا في حدود ما نص عليه الشارع الحكيم في قوله تعالى:

- ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُوا۟ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾﴾ [البقرة: 235]

فالمواعدة (سرا) لا يجب أن تكون إلا بين المخطوبين، كما يجب أن تكون محكومة بقول المعروف (وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُوا۟ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ).

على أي حال، نحن نريد أن نصل إلى النتيجة التي تخصنا هنا عن معنى مفردة الأيك، وعلاقتها بمفردة الأيكة التي ترد في الآيات القرآنية الخاصة بقوم شعيب، الذين كانوا هم أصحاب الأيكة، قال تعالى:

- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الشعراء: 176-190]
- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ﴿٧٨﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٩﴾﴾ [الحجر: 78-79]
- ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾﴾ [ص: 13]
- ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [ق: 14]

وقد ظننا أن الأيكة هي عبارة عن البيت الذي ليس له سقف، وافترينا الظن بأن هذا البيت الذي لم يكن سقفه مرفوعا هو البيت الحرام بعد أن رفع إبراهيم وإسماعيل القواعد منه:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

وأن السبب الذي جعل إبراهيم يرفع القواعد من البيت فقط، هو ليتم تحديد مكان البيت، لأن الله هو من بوأ لإبراهيم مكانه:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]

فكان على إبراهيم أن يحدد فقط المكان الذي هو فعلا مكان البيت، فقام برفع القواعد منه، فأصبح مزارا للطائفين والقائمين والركع السجود.

وقد افترينا الظن بأن إبراهيم لم يكن ليهتم برفع السقف من البيت أو حتى بناء الجدران للبيت، لأن من الاستحالة بمكان أن يقوم بشر (حتى إبراهيم نفسه) ببناء بيت الله الحرام كما كان على حالته الأولى عندما وضع أول مرة للناس ببكة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

فكان الهدف حينئذ هو تحديد المكان الذي يذهب إليه الناس في رحلة الحج، وليس بناء البيت نفسه، لأن إبراهيم لا يستطيع ذلك، فذلك البيت هو كعبة:

- ﴿۞جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

والكعبة هي – حسب افتراءاتنا السابقة- كلمة تدل على المفرد لأنها تجمع على "كواعب" التي ترد في الآية الكريمة التالي:

- ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ [النبأ: 31-33]

والكواعب هي – حسب ظننا سابقا- بيوت الجنة. لذا يستحيل على إبراهيم (كبشر) أن يبني البيت كما كان في حالته الأصلية. (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة).

فما أن انتهى إبراهيم من رفع القواعد للبيت حتى جاءه الأمر الإلهي بأن يؤذن في الناس بالحج، قال تعالى:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

والغاية من ذلك هو ما جاء في الآيات التي تلي هذا النداء مباشرة، قال تعالى:

- ﴿لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ

ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾﴾ [الحج: 28-30]

وبالفعل بدأت رحلات الحج إلى هذا البيت تتوالى عاما بعد عام. لكن ما الذي حصل بعد ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان الناس المتواجدين هناك حينئذ قليلو العدد، فإبراهيم هو أول من أسكن من ذريته هناك في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم بهدف إقامة الصلاة هناك، وهو من دعا ربه أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليه:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

وبالفعل، بدأ الناس بالتوافد إلى ذلك المكان فكانوا قليلو العدد في البداية، ثم أخذوا يتكاثرون شيئا فشيئا. ولو تفقدنا هذه الجزئية في كتاب الله، لما وجدناها حاضرة إلا عند الحديث عن مدين (قوم شعيب)، فهم من كانوا قليلو العدد، والله هو من كثرهم، قال تعالى:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 85-86]

ولكن لو دققنا في هذا السياق القرآني جيدا، لوجدنا على الفور أن الأمور لم تسير بالشكل الصحيح على الدوام، وذلك لانقسام الناس بعد ذلك إلى طائفتين: طائفة آمنت وطائفة أخرى لم تؤمن (وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ). انظر تتمة السياق السابق نفسه:

- ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ ۞قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لَنُخۡرِجَنَّكَ يَٰشُعَيۡبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرۡيَتِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوۡ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأعراف: 87-88]

ولا شك عندنا أن الغلبة كانت للطائفة التي لم تؤمن بدليل أنهم كانوا قادرين على إخراج شعيب ومن آمن معه إلا أن يعودوا في ملتهم. فهم الذين ظنوا أن من اتبع شعيبا هو الخاسرون (وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَّخَاسِرُونَ):

- ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: 89-93]

فكانت الغلبة الظاهرة في البداية لهؤلاء الملأ الذين كفروا. ولم يتوقف أذى القوم عند هذا الحد، بل تجاوز كل الحدود عندما أخذوا يصدون عن سبيل الله، كما جاء في السياق القرآني نفسه الخاص بقصة شعيب فيهم:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 85-86]

فلو تفقدنا هذا السياق القرآني، لوجدنا أن واحدة من الأفعال (غير المحمودة) التي قام بها هؤلاء القوم هي أنهم كانوا يقعدون بكل صراط يوعدون ويصدون (وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ).

لنثير بناء على ما جاء في هذا السياق القرآني التساؤلات التالية:

⇐ كيف كان القوم يقعدون بكل صراط؟
⇐ كيف كانوا يوعدون؟
⇐ وكيف كانوا يصدون؟
⇐ الخ

باب القعود بكل صراط

لو حاولنا التدقيق في هذه الآية القرآنية:

- ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 86]

لربما حقّ لنا أن نتساءل عن كيفية قعود القوم بكل صراط، فهل يمكن أن يقعد قوم (وهم الذين يسكنون في منطقة جغرافية معينة) بكل صراط؟ وما هي هذه الصراط الكثيرة التي كان القوم يقعدون بها؟ وأين توجد؟

رأينا المفترى: عندما خرج موسى من المدينة خائفا يترقب بعد أن فعل فعلته التي فعل بقتله الرجل الذي هو من عدوه، كانت وجهته المباشرة تلقاء مدين، فدعا ربه أن يهديه سواء السبيل:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: 22]

فكانت محطته هناك عند ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا ۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص: 22-23]

فموسى كان يطمع إذن أن يهديه ربه سواء السبيل، أي الطريق الصحيح التي توصله إلى مبتغاه وهي أرض مدين. ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن الوصول إلى مكان محدد يمكن أن يتم من أكثر من طريق، فهناك سبل كثيرة وليس سبيلا واحدا.

- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]

لكن يبقى التساؤل المهم هنا هو: ما الفرق بين السبيل (التي تجمع على سبل) والصراط (التي نظن أنها تجمع على صراط) كما في الجدول التالي؟

مفرد	جمع
سبيل: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: 108]	سبل: ﴿... وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]
صراط: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ ...﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: 153]	صراط: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 86]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن وجود أكثر من سبيل لا يعني بالضرورة أنها جميعا ستوصل إلى النتيجة الصحيحة، فقد تتفرق بنا السبل، ونجد أنفسنا قد ظللنا السبيل، فيمكن إذن أن نضل السبيل:

- ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يَشْتَرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٤﴾﴾ [النساء: 44]
- ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَٰؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٧﴾﴾ [الفرقان: 17]

فبالرغم من توافر السبل (جمع سبيل) الكثيرة، إلا أن هناك سبيل واحد إلى ربنا:

- ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]

فهؤلاء الذين كفروا قد صدّوا عن السبيل (أي سبيل ربنا):

- ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ [الرعد: 33]

وهذا هو الشيطان وقد صَدّ القوم عن السبيل:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: 24]
- ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [العنكبوت: 38]
- ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الزخرف: 36-37]

وها هم قوم لوط يقطعون السبيل:

- ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [العنكبوت: 29]

وهذا فرعون نفسه قد صُد عن السبيل:

- ﴿أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًاۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ٣٧﴾ [غافر: 37]

نتيجة مفتراة (1): هناك سبل كثيرة

نتيجة مفتراة (2): لكن بالرغم من وجود السبل الكثيرة، هناك سبيل واحدة إلى الله

ولو دققنا في السياق القرآني التالي، لوجدنا أن موسى لازال بعيدا عن أرض مدين عندما دعا ربه أن يهديه سواء السبيل:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]

وما أن هداه الله سواء السبيل حتى وجد نفسه على ماء مدين:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ٢٣﴾ [القصص: 23]

فما كان منه إلا أن سقى للمرأتين اللتين كانتا تذودان، ثم تولى بعد ذلك إلى الظل:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ٢٤﴾ [القصص: 24]

فكان موسى حينها ابن السبيل الذي هو فقير يحتاج إلى المساعدة العاجلة. والآيات الكريمة التالية تبين لنا (كما نفهمها) أن ابن السبيل هو من انقطعت به الطريق في مكان ما، حيث لا مأوى له ولا نصير، ففرض الله له نصيب من مال المنفقين (الصدقات)، فوجب الإحسان إليه:

- ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: 177]
- ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢١٥﴾ [البقرة: 215]

- ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخۡتَالٗا فَخُورًا ٣٦﴾ [النساء: 36]
- ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمۡ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا يَوۡمَ ٱلۡفُرۡقَانِ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٤١﴾ [الأنفال: 41]
- ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]
- ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرۡ تَبۡذِيرًا ٢٦﴾ [الإسراء: 26]
- ﴿فَـَٔاتِ ذَا ٱلۡقُرۡبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلۡمِسۡكِينَ وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٣٨﴾ [الروم: 38]
- ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٧﴾ [الحشر: 7]

ومادام أن ابن السبيل (كما نفهم) هو من وجد نفسه في السبيل (أي الطريق)، بلا مأوى ولا مسكن إلا الطريق نفسها، كان موسى (نحن نتخيل) ابن سبيل في تلك اللحظة التي ورد فيها ماء مدين، فكان فقيرا لما ينزل إليه ربه من خير:

- ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ٢٤﴾ [القصص: 24]

السؤال: إذا كان السبيل هي الطريق، وإذا كان هناك سبل كثيرة، وإذا كان هناك سبيل واحدة إلى الله، فما هو الصراط؟

جواب مفترى: لو تفقدنا الآيات القرآنية الخاصة بالصراط، لوجدنا أنها كثيرة في كتاب الله، قال تعالى:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 6-7]
- ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢﴾ [البقرة: 142]

- ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِۚ وَمَا ٱخۡتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلۡحَقِّ بِإِذۡنِهِۦۗ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٍ ٢١٣﴾ [البقرة: 213]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٥١﴾ [آل عمران: 51]
- ﴿وَكَيۡفَ تَكۡفُرُونَ وَأَنتُمۡ تُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمۡ رَسُولُهُۥۗ وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدۡ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٠١﴾ [آل عمران: 101]
- ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٦٨﴾ [النساء: 68]
- ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ١٧٥﴾ [النساء: 175]
- ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٦﴾ [المائدة: 16]
- ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمّٞ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ [الأنعام: 39]
- ﴿وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٨٧﴾ [الأنعام: 87]
- ﴿وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسۡتَقِيمٗاۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾ [الأنعام: 126]
- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]
- ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: 161]
- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦﴾ [الأعراف: 16]
- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]
- ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٥﴾ [يونس: 25]
- ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٦﴾ [هود: 56]
- ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ١﴾ [إبراهيم: 1]
- ﴿قَالَ هَٰذَا صِرَٰطٌ عَلَيَّ مُسۡتَقِيمٌ ٤١﴾ [الحجر: 41]

- ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ أَحَدُهُمَآ أَبۡكَمُ لَا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٖ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٦﴾ [النحل: 76]
- ﴿شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١﴾ [النحل: 121]
- ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٣٦﴾ [مريم: 36]
- ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ٤٣﴾ [مريم: 43]
- ﴿قُلۡ كُلّٞ مُّتَرَبِّصٞ فَتَرَبَّصُواْۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ أَصۡحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ ١٣٥﴾ [طه: 135]
- ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ وَهُدُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡحَمِيدِ ٢٤﴾ [الحج: 24]
- ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحج: 54]
- ﴿وَإِنَّكَ لَتَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٧٣ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ عَنِ ٱلصِّرَٰطِ لَنَٰكِبُونَ ٧٤﴾ [المؤمنون: 73-74]
- ﴿لَّقَدۡ أَنزَلۡنَآ ءَايَٰتٖ مُّبَيِّنَٰتٖۚ وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ [النور: 46]
- ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلۡحَقَّ وَيَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٦﴾ [سبأ: 6]
- ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤﴾ [يس: 1-4]
- ﴿وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [يس: 61]
- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَطَمَسۡنَا عَلَىٰٓ أَعۡيُنِهِمۡ فَٱسۡتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبۡصِرُونَ ٦٦﴾ [يس: 66]
- ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 23]
- ﴿وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١١٨﴾ [الصافات: 118]
- ﴿إِذۡ دَخَلُواْ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنۡهُمۡۖ قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ خَصۡمَانِ بَغَىٰ بَعۡضُنَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فَٱحۡكُم بَيۡنَنَا بِٱلۡحَقِّ وَلَا تُشۡطِطۡ وَٱهۡدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ٢٢﴾ [ص: 22]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ ٥٣﴾ [الشورى: 52-53]
- ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٣﴾ [الزخرف: 43]
- ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٞ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦١﴾ [الزخرف: 61]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ٦٤﴾ [الزخرف: 64]
- ﴿لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢﴾ [الفتح: 2]

- ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ٢٠﴾ [الفتح: 20]
- ﴿أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٢٢﴾ [الملك: 22]

فهذه الآيات تبيّن لنا (كما نفهمها) وجود أكثر من صراط واحد، فلقد كان محمد على صراط مستقيم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحًا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورًا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٥٢﴾ [الشورى: 52]
- ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٤٣﴾ [الزخرف: 43]
- ﴿يسٓ ١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٤﴾ [يس: 1-4]

والله ربنا هو نفسه على صراط مستقيم:

- ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ ٥٦﴾ [هود: 56]

وهو من يهدي من يشاء من عباده صراطا مستقيما:

- ﴿وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطًا مُّسۡتَقِيمًا ٦٨﴾ [النساء: 68]

ونحن جميعا ندعو الله أن يهدينا الصراط المستقيم:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 6-7]

وهذا هو صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين:

- ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ٦٩﴾ [النساء: 69]

وليس صراط المغضوب عليهم ولا صراط الضالين:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ٧﴾ [الفاتحة: 6-7]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن هناك صراط للذين أنعم الله عليهم، فهناك إذن صراط للمغضوب عليهم وصراط للضالين، وقد كان إبليس هو نفسه من توعّد عباد الله أن يقعد لهم صراطه المستقيم:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ١٧﴾ [الأعراف: 16-17]

فهؤلاء (من صدهم الشيطان عن الصراط) هم – برأينا- من ستكون نتيجتهم النهائية ما تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿۞ ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ٢٢ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ٢٣﴾ [الصافات: 22-23]

نتيجة مفتراة (1): هناك أكثر من صراط
نتيجة مفتراة (2): هناك أكثر من صراط مستقيم
نتيجة مفتراة (3): من بينها جميعا هناك صراط الله المستقيم
نتيجة مفتراة (4): هناك صراط يؤدي إلى الجحيم

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من ذلك؟

رأينا المفترى: عندما تريد التوجه إلى مكان محدد، أو إلى شخص بعينه، ولازلت بعيدا عن ذلك المكان أو ذلك الشخص، فإنك تطلب الهداية إلى سواء السبيل، أي الطريق التي تؤدي بك إلى مبتغاك، كما فعل موسى عندما توجه تلقاء مدين:

- ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلۡقَآءَ مَدۡيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهۡدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ٢٢﴾ [القصص: 22]

ويمكن أن يتم الوصول إلى المكان من أكثر من جهة، فأنت تسأل الله أن يهديك سواء السبيل، أي الطريق السوية التي لا يتواجد بها العثرات والعراقيل. لكن ما أن تقترب من المكان المطلوب أو الشخص المنشود، فإنك إذن تكون بحاجة إلى من يهديك الصراط، وليس أدل على ذلك – برأينا- مما جاء في الآية الكريمة التالية التي تصور لنا مهمة محمد بالنسبة لنا جميعا:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢﴾ [الشورى: 52]

فنحن - لا شك- قد تفرقت بنا السبل عندما لازلنا بعيدين، متفرقين، لا نعرف الطريق الصحيح:

- ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]

فتأتي مهمة محمد بتبيان السبيل الوحيدة التي توصلنا إلى صراط الله المستقيم، قال تعالى:

- ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108]

وما أن يدلّنا محمد على سبيل النجاة الوحيدة، حتى تكون هذه السبيل هي فقط التي توصلنا إلى صراط ربنا المستقيم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٢﴾ [الشورى: 52]

وما أن نصل من خلال هذه السبيل إلى صراط ربنا حتى نجد من هو قاعد لنا هناك، وهو إبليس:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾ [الأعراف: 16-17]

وهنا لا نجد ملاذا من النجاة من إبليس إلا الله وحده، لأنه هو وحده من يهدي عباده صراطه المستقيم، فنتوجه إليه بهذا الدعاء الخالد في فاتحة الكتاب:

- ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: 6-7]

فتصبح الصورة (في ذهننا) على النحو التالي:

عن بعد (محمد)	عن قرب (إبليس)	النجاة (الله)
سبيل (1)	صراط (1)	
سبيل (2)	صراط (2)	
سبيل (3)	صراط (3)	الصراط المستقيم
سبيل (4)	صراط (4)	
سبيل (ن)	صراط (ن)	

تلخيص: يأتي الرسول القوم فيجدهم وقد تفرقت بهم السبل، فيدلّهم على السبيل الوحيدة التي توصلهم إلى صراط مستقيم. وهنا بالضبط يجد من يصل إلى هناك إبليس وقد قعد لهم صراط الله المستقيم، فتحصل الفتنة، فتكون سبيل النجاة الوحيدة هي التضرع إلى الله وحده أن ينقذك من هذه الفتنة، فإن أنت كنت صادقا في طلبك (أي تشاء الهداية فعلا)، فإن الله لا محالة سيهديك صراطه المستقيم، وإن كنت غير صادق في ذلك، فإنك لا شك ستكون من الذين أصابهم الله بفتنته:

- ﴿ذُوقُواْ فِتۡنَتَكُمۡ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَسۡتَعۡجِلُونَ ۝١٤﴾ [الذاريات: 14]

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

فموسى هو من اختار سبعين رجلا من قومه لميقات ربه، فأصبح هؤلاء على مقربة من الله، وهنا بالضبط حصلت الفتنة الإلهية (إِنْ هِيَ إِلاَّ فِتْنَتُكَ)، فما كان هناك من نجاة إلا بهداية الرب نفسه، فتكون النجاة على نحو أن الله يهدي من يشاء الهداية ويضل من يشاء الضلالة (تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاء وَتَهْدِي مَن تَشَاء).

عودة على بدء

قال تعالى في سياق الحديث عن قوم شعيب:

- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

فهم إذن قريبون إلى المكان الذي يتواجد فيه الإله نفسه، مادام أنهم قد وصولوا إلى مرحلة الصراط، وهنا قعد القوم (أي قوم شعيب) للناس بكل صراط، فكانوا يصدون عن سبيل الله، وذلك لأنهم يبغونها عوجا:

- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

السؤال: أين كان القوم يتواجدون حتى استطاعوا أن يقعدوا بكل صراط؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا (ربما مخطئين) أن القوم كانوا يتواجدون حول الأيكة، فكانوا هم أصحاب الأيكة:

- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لَـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176-177]

ولما كانت الأيكة هي نفسها البيت الحرام الذي رفع إبراهيم وولده إسماعيل القواعد منه، ولم يرفعا سقفه:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

كان الناس يأتوه للحج من كل فج عميق:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

فنستطيع أن نتخيل إذن قدوم الناس إلى البيت من كل حدب وصوب، أي من جميع الاتجاهات (الشمال والجنوب والشرق والغرب). وما أن يقترب الناس من المكان حتى يكونوا قد وصلوا إلى الصراط المؤدي إلى المكان، ولكن لأن الناس كانوا يقدمون إلى البيت من كل اتجاه، كان هناك إذن أكثر من صراط (على مقربة من البيت) تؤدي جميعها في نهاية المطاف إلى صراط الله المستقيم (عند الكعبة نفسها)، فكان القوم (وهم الذين كفروا ويبغونها عوجا) يحاولون صدّ الناس القادمين من كل اتجاه عن الوصول إلى البيت، وذلك لظنهم بأن هذا البيت هو خاص بهم، لا يحق للآخرين الوصول إليه إلا بإذن منهم، وعلى طريقتهم التي يشاءونها.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى الغريب والخطير جدا: لأنهم من الأعراب. انتهى.

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ وما علاقة الأعراب بالقعود بكل صراط والصدّ عن البيت؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لو تفقدنا مفردة الصدّ في كتاب الله، لوجدنا أن الصدّ عن مكان محدد بعينه لا يرد إلا عند الحديث عن البيت الحرام:

- ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤﴾ [الأنفال: 34]

ليكون السؤال الآن هو: هل جاء هذا في كتاب الله على سبيل المصادفة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. فالصدّ عن المكان لا يكون إلا عن البيت الحرام. ولو حاولنا أن نربط ذلك بالآية التي تتحدث عن قوم شعيب:

- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

لربما حق لنا بأن نفتري القول (ربما مخطئين) بأن قوم شعيب هم من كانوا يقعدون بكل صراط ليصدوا الناس عن الوصول إلى المسجد الحرام، وأنهم كانوا يبغونها عوجا.

السؤال مرة أخرى: ما علاقة هذا بالأعراب؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا سلوك الأعراب وحدهم على مر الزمان. فعندما يتواجد الأعراب (نحن نفتري الظن) في مكان محدد، فإنهم يدّعون على الفور ملكيته، فلا يسمحون لغيرهم الاقتراب منه، إلا إن هو نزل عند شروطهم، والتزم بمنهجهم وطريقتهم، فهم – برأينا- الأمة الوحيدة التي لا تقبل الاختلاف.

فمن خالفهم فهو في نظرهم عدو يجب محاربته. ونحن نظن أن تأثير البيئة الجغرافية قد أصبح واضحا جليا في طبيعة تصرفاتهم مع أنفسهم ومع غيرهم، فمادام الأعراب يسكنون في منطقة جغرافية تتسم بالقسوة (الصحراء)، كان صراعهم على الماء مثلا شديدا، فعندما يتواجد الماء في أرض الصحراء يتسابق إليه الأعراب، فيشهرون سيوفهم لحماية منبع الماء وإدعاء ملكيته، وليس أدل على ذلك مما حصل مع ابنتي شعيب، حيث كانتا تذودان حتى يصدر الرعاء:

- ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدۡيَنَ وَجَدَ عَلَيۡهِ أُمَّةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسۡقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمۡرَأَتَيۡنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطۡبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسۡقِي حَتَّىٰ يُصۡدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيۡخٞ كَبِيرٞ ٢٣﴾ [القصص: 23]

فعلى الرغم من أن المرأتين كانتا من النساء اللاتي يتوجب تقديم المساعدة لهن، إلا أن أهل المنطقة لم يفعلا ذلك، بدليل أنهم قد قدّموا أنفسهم عليهن، فظلتا تذودان حتى يصدر الرعاء، ولو كان أهل المنطقة (نحن نفتري) من أصحاب النخوة والشهامة (كما يظن الكثيرون) لربما قدموا حاجة المرأتين على حاجتهم، ولا أخال أن هذا يمكن أن يكون سلوكا شائعا إلا في أمة الأعراب. فهم برأينا الأمة الأشد نفاقا، والأجدر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله:

- ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ [التوبة: 97-98]

وقد كان هذا هو – برأينا- سلوك الأعراب على مر التاريخ. ولو تفقدنا سلوكهم في الوقت الحالي، لما وجدنا أن الصورة قد اختلفت كثيرا، فعندما تم اكتشاف آبار النفط في الصحراء، تسابقت الأعراب على تلك المنابع، فاختلفوا فيما بينهم، فانقسموا إلى قبائل متناحرة فيما بينهم، وأخذت كل قبيلة تدعي ملكية ما سبقوا إليه غيرهم من تلك الثروة، فأشهروا سيوفهم ليمنعوا غيرهم من الاقتراب إليها، فبدل التناحر بينهم على بئر من الماء كما كان في سالف الزمان، أصبح التناحر بينهم الآن على ملكية بئر النفط أو الغاز. ولا أخال أن هذا يختلف كثيرا عن ذاك. (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا والعلماء هم الظالمون)

باب توعدون

لو دققنا مليا في الآية الكريمة التي تبين لنا سلوك قوم شعيب، لوجدنا القوم يوعدون ويصدون:

- ﴿وَلَا تَقۡعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٖ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبۡغُونَهَا عِوَجٗاۚ وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

لنطرح التساؤل التالي على الفور: ما معنى مفردة تُوعِدُونَ في هذه الآية الكريمة؟

رأينا المفترى: نحن ننفي جملة وتفصيلا أن تكون مفردة تُوعِدُونَ (بكسر العين) مشتقة من قطع الوعد (أو promising باللسان الأعجمي)، وذلك لأن مفردة الوعد مفتوحة العين (وَعَدَ):

- ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ٩٥﴾ [النساء: 95]

السؤال: ما الفرق بين وعَد (بفتح العين) ووعِد (بكسر العين)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه في حين أن وعَد (فتح العين) تعني إعطاء الوعد لعمل شيء مستقبلي، فإن وعِد (بكسر العين)، لها علاقة بالعِدة، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ٦٠﴾ [الأنفال: 60]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن قوم شعيب كان يعِدون ولم يكونوا يوعَدون كما يمكن أن نفهم من السياقات القرآنية التالية:

- ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَأٓتٍۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ١٣٤﴾ [الأنعام: 134]
- ﴿۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦﴾ [المؤمنون: 36]

لذا، نحن نفتري القول (ربما مخطئين) بأن القوم كان يوعدون (تُوعَدُونَ) لأنهم كانوا يجهزون أنفسهم بالقوة وبرباط الخيل (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ)، من أجل إرهاب غيرهم، والغاية هي في نهاية المطاف صدّ الناس عن المسجد الحرام. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية القرآنية نفسها من هذا الجانب:

- ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

تخيلات مفتراة: لما سكنت الأعراب حول البيت الحرام (الذي كان حينئذ أيكة، أي بيتا بلا سقف كعش الطائر)، كانوا في البداية قليلو العدد (إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا)، لكن ما أن كثّرهم الله (فَكَثَّرَكُمْۖ)، حتى كانوا من الذين يبغونها عوجا (وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا)، فلم يكونوا ليسمحوا للآخرين الاقتراب من هذا البيت (الأيكة) لظنهم أنه ملكية خاصة بهم، فقعدوا للناس بكل صراط (وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ)، وأخذوا يوعدون - تُوعِدُونَ (أي يعدون ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل) للدفاع عن هذا البيت، فكانوا إذن يصدون غيرهم عن سبيل الله (وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ).

عودة على بدء

كان الله هو من بوأ لإبراهيم مكان البيت:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

فعمد إلى رفع القواعد منه مع ولده إسماعيل:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

فرفعه على شكل أيكة (بيت بلا سقف)، وما أن فرغ من رفع القواعد من البيت حتى طلب الله منه أن يؤذن في الناس بالحج:

- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾﴾ [الحج: 27]

والغاية أن يشهد هؤلاء القادمون جميعا إلى البيت منافع لهم، ويذكروا اسم الله هناك في أيام معدودات:

- ﴿لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾﴾ [الحج: 28]

فبدأت قوافل الحج تؤم هذا البيت من كل فج عميق، وظلت الأمور فترة من الزمن تسير على ملّة إبراهيم، فكان حجا صحيحا، حتى تكاثرت الأعراب حول البيت، وهنا بدأت المشكلة، خاصة عندها انقسمت الأعراب هناك إلى فئتين: فئة قليلة مؤمنة، وفئة كثيرة لم تؤمن:

- ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾ وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ ۚ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ ۚ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٩﴾﴾ [التوبة: 97-99]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): أصبحت الأغلبية الساحقة من الأعراب من الفئة الأشد كفرا ونفاقا.

- ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ [التوبة: 97-98]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): كان هناك فئة قليلة من الأعراب من المؤمنين

- ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التوبة: 99]

ولما كانت الغلبة للكثرة، أخذوا يتربصون بغيرهم الدوائر، فكانوا من الذين يبغونها عوجا، فحرّفوا شريعة الحج التي أقرها إبراهيم، وتضافرت جهودهم في إعداد العدة بالقوة ورباط الخيل لصدّ من آمن عن البيت الحرام:

- ﴿وَمَا لَهُمۡ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٣٤ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمۡ عِندَ ٱلۡبَيۡتِ إِلَّا مُكَآءٗ وَتَصۡدِيَةٗۚ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ٣٥﴾ [الأنفال: 34-35]

فكانت الفئة التي تصد عن المسجد الحرام هم الذين ليس لهم الحق في ولاية البيت الحرام (وَهُمۡ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ) لأن ولاية البيت هي لا شك للمتقين (إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ).

فأصبحت صلاة هؤلاء الذين يصدون عن البيت ويعتبرون أنفسهم أصحاب الولاية على البيت ليست أكثر من مُكاء وَتَصْدِيَةً، لأن الذين كانوا يصدون عن المسجد الحرام لم يكونوا أولياءه فعلا (وَمَا كَانُوٓاْ أَوۡلِيَآءَهُۥٓۚ)، ولأن أولياء البيت الحرام هم فعلا من كانوا من المتقين (إِنۡ أَوۡلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُتَّقُونَ)، وكان أكثرهم من الذين لا يعلمون (وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ). فأصبحوا هم الأميون (أي من سكنوا أم القرى):

- ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩٢﴾ [الأنعام: 92]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا وَتُنذِرَ يَوۡمَ ٱلۡجَمۡعِ لَا رَيۡبَ فِيهِۚ فَرِيقٞ فِي ٱلۡجَنَّةِ وَفَرِيقٞ فِي ٱلسَّعِيرِ ٧﴾ [الشورى: 7]

ولعل من أهم صفات الأميين على الغالب هي عدم العلم بالكتاب إلا من باب الأماني والظن:

- ﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٧ وَمِنۡهُمۡ أُمِّيُّونَ لَا يَعۡلَمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٧٨﴾ [البقرة: 77-78]

باب الأميين

لو تدبرنا مفردة الأميين في كتاب الله، لوجدنا أنها تطلق – برأينا المفترى من عند أنفسنا- على كل من سكن أم القرى. فمحمد هو نبي أمي، لأنه كان من أهل أم القرى:

- ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝١٥٧﴾ [الأعراف: 157]
- ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف: 158]

وأهل تلك المنطقة هم الأميون حسب فهمنا لما جاء في القرآن الكريم في الآية الكريمة التالية:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ۝٢﴾ [الجمعة: 2]

ولا شك عندنا أن الأميين هم الفئة المقابلة (عرقيا وجغرافيا) لأهل الكتاب. وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في المقابلة بين الطرفين الواردة في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠﴾ [آل عمران: 20]
- ﴿۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٧٥﴾ [آل عمران: 75]

نتيجة مفتراة (1): هناك فئة يصفون أنفسهم بأنهم أهل الكتاب

نتيجة مفتراة (2): هناك فئة من الناس يطلق عليهم أهل الكتاب لفظ الأميين

ولعلنا نحتاج أن نستدرك هنا لتقديم افتراء خطير جدا من عند أنفسنا مفاده أن لا علاقة لمحمد (النبي الأمي) بإبراهيم (وذريته سواء من فرع إسحاق أو من فرع إسماعيل.

الدليل

دعنا ندقق في الآية الكريمة التالي التي جاءت لتبين لنا العلاقة بين محمد من جهة وإبراهيم وجميع ذريته من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]
- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾ [البقرة: 129]

ففي حين أن إبراهيم قد أسكن من ذريته هناك عند البيت (رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ)، وهو من طلب أن يجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم (فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ)، إلا أنه هو نفسه من دعا الله أن يبعث في هؤلاء رسولا منهم (رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ).

نتيجة مفتراة: مادام أن إبراهيم قد دعا الله أن يكون هذا الرسول من أولئك الذين هوت أفئدتهم إلى البيت، فإن محمد هو رسول أمي (من أهل مكة) ولا علاقة له بأهل الكتاب من الناحية العرقية، وجل العلاقة بين الطرفين هي علاقة الإسلام فقط.

لكن دعنا نتوقف هنا عند هذه الجزئية لنثير تساؤلا نظن أنه غريبا بعض الشيء، والسؤال هو: ما سر وجود فئة من أهل الكتاب في جزيرة الأعراب، وخاصة في المناطق القريبة من مكة والمدينة كيهود خيبر وغيرهم من الذين سكنوا حول المدينة؟ فمن أين جاء هؤلاء؟ وكيف وصلوا إلى هناك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الذين تواجدوا في تلك المنطقة من أهل الكتاب هم في الأصل من الأعراب الذين اعتنقوا الديانة اليهودية بعد أن مرّ موسى ومن معه من بني إسرائيل من هناك أثناء رحلتهم باتجاه الأرض المقدسة.

الدليل

لو دققنا في الآيات الكريمة التالية، لوجدنا على الفور أنها تتحدث عن أهل الكتاب، لكنها تصور لنا بأن جزءا قليلا من أهل الكتاب هم أميون، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا ۖ وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾ ۞ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾ [البقرة: 72-78]

فأهل الكتاب هم في الأصل بنو إسرائيل (خاصة اليهود منهم)، لكن جزء قليل منهم هم أميون (وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ)، ولعل من أهم مواصفات هؤلاء، أي من كان من أهل الكتاب من الأميين، هي نظرتهم للكتاب التي تتلخص بصيغتين رئيسيتين وهما:

1. عدم العلم بالكتاب إلا من باب الأماني (لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ)
2. الظن (وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ)

ولعل هاتين الصفتين هما الصفتان الملازمتان لمن كان من الأعراب (أهل العربية) الذين هم لا شك أشد كفرا ونفاقا:

- ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة: 97]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا الافتراء يقودنا إلى تسطير نظرية فكرية تجادل الغرب فيها على مدى قرون من الزمن، تتلخص بتأثير اللغة على أهلها، فاللغة (نحن نؤيد) لها تأثير قوي على عقلية من يتحدث بها، فالإنسان (نحن نرى) أسير لمفردات اللغة التي يتحدث بها، وهو ينظر إلى الطبيعة من حوله، وإلى مجريات الأحداث التي يمر بها، من خلال ما تسطر لغته له من مفاهيم، ربما يصعب عليه أن يفلت من تأثيرها.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: عندما تجد في لغة ما مجموعة من المفردات لوصف الألوان مثلا، فإنك لا شك ستجد أن أهل تلك اللغة ينظرون إلى الطبيعة من حولهم على هذا الأساس اللغوي الذي تسطره لهم لغتهم، فلو أنت وجدت في أحد اللغات أن هناك مثلا مفردتين اثنتين للألوان كالأبيض والأسود فقط، فإن أهل تلك

اللغة سيقيّمون كل ما حولهم بناء على هاتين المفردتين، فكل شيء حولهم هو بالنسبة لهم إما أبيضا أو أسودا، فيصبح البحر بالنسبة لهم إما ابيضا أو أسودا من حيث اللون، وكذلك السماء، وتصبح كل خضرة الطبيعة تنقسم إلى نوعين فقط، فإن غلب عليها اللون الداكن أصبحت سودا اللون، وأن قلت الدكنة أصبحت بيضاء اللون. ولا شك عندنا أن هذا سينعكس بشكل مباشر على طريقة تفكيرهم.

لكن لو وجدت – بالمقابل- أن هناك لغة أخرى تستخدم أربع مفردات لوصف اللون (كالأبيض والأسود والأحمر والأخضر)، فإنهم سينظرون إلى الطبيعة من هذا المنظور، وهكذا. وكلما زادت مفردات اللون زادت القدرة على التفصيل. وهذا المنطق ينطبق على المفردات الأخرى الخاصة بكل ما هو موجود في الطبيعة. ففي لغة الاسكيمو مثلا هناك أكثر من مفردة لوصف البيت المصنوع من الثلج، ولكن ليس هناك مفردة واحدة في العربية مثلا لتصف هذا البيت. وفي حين أن هناك في العربية مفردات كثيرة لوصف الجمل (الكائن الحي الأبرز في بيئة الصحراء)، لا نجد مثل هذا التفصيل في لغة الشعوب التي يندر تواجد هذا الكائن في بيئتها.

وبناء على هذا المنظور، فإننا نستطيع تسطير النتيجة المفتراة الخطيرة جدا جدا التالية فيما يخص لغة الأعراب (أي اللغة العربية): لما كانت بيئة الأعراب (الصحراء) تتسم بالقسوة وندرة الحياة فيها، أصبحت لغة الأعراب (نحن نظن) شحيحة في مفرداتها. فاتسمت مفرداتها بالعمومية، وقلة الدقة المنشودة إلا فيما يخص بيئة الأعراب نفسها. أي المفردات المألوفة لديهم.

مثال

نحن نجد في كتاب الله ذكرا متكررا لشجرة النخيل، الأمر الذي يدعو الكثيرين (خاصة من أهل المناطق الأخرى) إلى طرح التساؤل التالي: أين أنواع الأشجار الأخرى كالتفاح والبرتقال وشجر الموز والمانجا وجوز الهند، وغيرها؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا أن لغة الأعراب قد استخدمت المفردات على العموم، لذا نحن نتجرأ على القول بأن مفردة النخيل مثلا لا تدل فقط على الشجر الذي يحمل ثمر التمر، وإنما هي الفصيلة بأكملها التي تشبه هذه الشجرة في تركيبها وفي ثمرها، كشجرة الموز والمانجا وجوز الهند وغيرها:

- .﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ١١﴾ [النحل: 11]
- ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلۡأَعۡنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنۡهُ سَكَرٗا وَرِزۡقًا حَسَنًاۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ٦٧﴾ [النحل: 67]

وهذا المنطق ينطبق على الزيتون والأعناب والرمان.

الدليل

حاول عزيزي القارئ – إن شئت- أن تجري تقابلا بين الآيتين الكريمتين التاليتين:

- ﴿أَوۡ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ فَتُفَجِّرَ ٱلۡأَنۡهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفۡجِيرًا ۝٩١﴾ [الإسراء: 91]
- ﴿وَجَعَلۡنَا فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ وَفَجَّرۡنَا فِيهَا مِنَ ٱلۡعُيُونِ ۝٣٤﴾ [يس: 34]

ألا ترى – عزيزي القارئ- أن هناك جنة واحدة من نخيل وجنة واحدة من عنب في الآية الأولى بينما هناك جنات من نخيل وجنات من أعناب في الآية الثانية؟ هل النخيل إذن صنف واحد أم هو فصية بأكملها؟ وهل العنب نوع واحد أم هو أنواع متعددة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن النخيل قد يكون جنة واحدة (جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ) وقد يكون جنات (جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ). وكذلك الأعناب، فقد يكون جنة واحدة من عنب (جَنَّةٞ مِّن نَّخِيلٖ وَعِنَبٖ) وقد يكون جنات من أعناب (فِيهَا جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن هذا يدلنا (كما نفهم السياقات القرآنية السابقة) على أن المفردة تدل على النوع وليس على صنف محدد بعينه، فكل ما يشبه النخيل في شجرته وفي ثمره فهو نخيل، وجميع شجر الأعناب هي من فصيلة العنب، وهكذا. وليس أدل على ذلك – برأينا- مما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ [الرعد: 4]
- ﴿يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرۡعَ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلۡأَعۡنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝١١﴾ [النحل: 11]
- ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ۝٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ۝٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ۝٢٩﴾ [عبس: 27-29]

السؤال: ما علاقة هذا بقصة الأعراب: نحن نفتري الظن بأنه غالبا ما اتسمت عقلية الأعراب بالعموميات، وذلك بتأثير اللغة التي يتحدثون بها، لذا قل أن تجد فيهم من يستطيع أن يدخل في تفاصيل الأمور، والتفكير في أدقها، على عكس العقل الغربي مثلا الذي يجيد الغوص في أدق التفاصيل. فلو تدبرت الأبحاث العلمية في الجامعات الغربية، لوجدت على الفور أن أهم ما يميزها شدة الانتباه إلى دقائق الأمور، ولو ركزت في خطاباتهم وحواراتهم لوجدت أنهم يستطيعون تمييز أدق التفاصيل. لكن – بالمقابل- تجد العربي دائما يتحدث في العموميات، فيكثر الكلام، وغالبا ما يلجأ إلى التكرار، وكأنه يشعر أن كلامه غير مفهوم عند المستمع، فيعيد صياغته بطرق متعددة، وليس أدل على ذلك من خطابات أهل الدين على المنابر التي تبين بشكل جلي الخلط في استخدام الألفاظ (فالقرآن هو الكتاب والكتاب هو الفرقان والفرقان هو الذكر، والذكر هو الزبور، الخ). وحتى لو ظن بعضهم أنها مفردات مختلفة لا تجده يتقن التمييز بينهما بالرغم من الإرث التاريخ الطويل فيهم. كما تحد أن التكرار الممل الذي لا طائلة منه هو من أهم ميزات

الخطاب عندهم. وكثيرا ما يحدث سوء التفاهم بين المتكلم والسامع، ونحن نظن أن هذا يعزى كله إلى قصور لغوي في توصيل المراد. ومن أراد المجادلة، فليدقق في خطابات زعامات الأعراب العشائرية والسياسية ليجد كيف أنها غالبا ما تتسم بالإعاقة اللغوية.

نتيجة مفتراة (1): العربي لا يحسن صياغة معانيه بلغة صحيحة
نتيجة مفتراة (2): العربي لا يحسن فهم اللغة المصاغة بشكل صحيح كما يجب أن تفهم
نتيجة مهمة جدا: مادام أن العربي – نحن نفتري الظن- لا يجيد الصياغة ولا يجيد الفهم، فأن أهم ما يميزه التعصب بالرأي وعدم تقبل الآخرين

مثال

دعنا نقرأ الآية الكريمة التالية الخاصة بشعائر ومناسك الحج (موضوع حديثنا هنا) لنبين كيف أن هذه الآية الكريمة غاية في الوضوح، وهي تسطر لنا عقائد نظن أن أهل الدين قد غفلوا عنها لقرون طويلة من الزمن بالرغم من وجودها فيهم على مدى أربعة عشر قرنا من الزمن. والهدف عندنا هو أن نبين أن الأعراب لا يحسنون استخدام اللغة ولا يحسنون فهم مراد القول. وسنحاول التبسيط ما استطعنا إلى ذلك سبيل، ثم ندعو القارئ الكريم أن يحاول طرح ما سنفتريه من قول من عند أنفسنا على مسامع أهل الدراية من حوله، ثم لينظر هو بنفسه كيف ستكون ردة فعلهم التي نتوقع أنها ستتسم في غالب الأحيان بالمكابرة والعناد والرفض حتى وإن كانت الفكرة سهلة بسيطة وربما معقولة، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

بداية، نحن نظن أنه من الاستحالة بمكان فهم هذه الآية الكريمة دون الخوض في جميع مفرداتها، ودون طرح جميع التساؤلات التي قد تخطر على بال بشر عند محاولة تدبرها، لهذا دعنا نبدأ بطرح التساؤلات حولها، ولنبدأ بالتساؤلات الأولية التالية:

⇐ من المطلوب منهم تتمة الحج والعمرة لله؟
⇐ كيف يمكن إتمام الحج والعمرة لله (وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ)؟
⇐ ما معنى أحصرتم؟ وكيف يمكن أن يحصل ذلك (فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ)؟
⇐ لم وجب على من أحصر تقديم ما استيسر من الهدي (فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ)؟
⇐ لم لا يجب على هؤلاء حلق رؤوسهم حتى يبلغ الهدي محله (وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ)؟

⇐ وكيف يمكن أن يبلغ الهدي (حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ)؟
⇐ وأين هو محل الهدي أصلا؟
⇐ ولماذا يطلب ممن كان به أذى من رأسه الفدية؟
⇐ وما هي الفدية أصلا؟
⇐ ولماذا جاءت الفدية على نحو الصيام أو الصدقة أو النسك (فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ)؟
⇐ من هم الذين يمكن أن يأمنوا (فَإِذَآ أَمِنتُمْ)؟
⇐ كيف يمكن أن يتم التمتع بالحج إلى العمرة (فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ)؟
⇐ ولم وجب على من تمتع بالحج والعمرة ما استيسر من الهدي أيضا (فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ)؟
⇐ ولم وجب على من لم يجد الصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة بعد الرجوع (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)؟
⇐ ولم يجب ذلك على كل من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ)؟
⇐ ولم خُتمت الآية الكريمة بطلب التقوى منا وبتحذيرنا بأن الله شديد العقاب (وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ)؟
⇐ الخ

هل تصدقني عزيزي القارئ إن قلت لك بأنك تستطيع أن تؤدي فريضة الحج في كل عام؟ وهل تصدقني لو قلت لك بأنك تستطيع القيام بذلك وأنت في بيتك حتى ولو لم تستطع أن تصل إلى البيت العتيق؟ وهل يمكن أن تقبل قولنا بأن الأعراب (الذين لم يفهموا مراد القول من هذه الآيات البينات) قد أفسدوا على الأمة كلها الحج منذ قرون طويلة من الزمن؟

جواب مفترى: ربما يظن الكثيرون بأن كلامنا هذا لا يعدو أكثر من محض هراء وافتراء كاذب لا أساس له من الصحة، لكن ما رأيك (عزيزي القارئ الكريم) أن تصبر معنا حتى نهاية هذه الرحلة لترى ما يمكن أن تؤول إليه الأمور في نهاية المطاف ولك حق الرجوع إلى الوراء متى شئت؟ فهل تستطيع ذلك؟

سؤال: هات ما عندك. ربما يرد بعض القراء على استحياء.

إذن لنبدأ الرحلة.

أما بعد،

لو تدبرنا الآية الكريمة السابقة، لوجدنا أنها تقسم الحديث بين فئتين من الناس، المطلوب منهم إتمام الحج والعمرة لله (وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ)، وهم:

⇐ الذين أحصروا
⇐ والذين أمنوا (من الأمان)،

لذا، نحن نطلب من القارئ الكريم أن يقرأ الآية بداية على النحو التالي:

- وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ...
- ﴿... فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ... ١٩٦﴾ [البقرة: 196]
- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ... ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

فالجميع مطلوب منهم إذن إتمام الحج والعمرة لله (وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ)، ولكن تكمن المفارقة في أنّ بعض هؤلاء الذين عزموا إتمام الحج والعمرة لله قد أحصروا (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ)، بينما البعض الآخر قد أمِنوا (فَإِذَآ أَمِنتُمْ)، أليس كذلك؟

والمدقق في هاتين الحالتين يجد بأن المطلوب من الفئة الأولى (وهم الذين أحصروا) يختلف عن المطلوب من الفئة الأخرى (وهم الذين أمِنوا)، ففي حين أن على الذين حصروا القيام بفعلين محددين هما:

1. ما استيسر من الهدي
2. عدم حلق الرؤوس حتى يبلغ الهدي محله

فإنه يتوجب على الذين أمِنوا (من الأمان) أن يفعل التالي:

1. فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ

وفي حالة تعذر وجود ما استيسر من الهدي، فعليه بالصيام على النحو التالي:

- فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ

ويُطلب هذا على وجه التحديد (أي الصيام ثلاثة في الحج وسبعة إذا رجعتم) من كل من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام:

- ﴿ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ...

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا كله؟

باب فإن أحصرتم

السؤال: ما معنى (... فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ) الواردة في هذه الآية الكريمة نفسها؟

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

رأينا المفترى: نحن نفهم مفردة أُحْصِرْتُمْ على نحو وجود عائق أمام الشخص يتعذر عليه بسبب هذا العائق الضرب في الأرض، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 273]

ولا شك – عندنا- أن الإحصار يأتي من المحاصرة:

- ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٥﴾ [التوبة: 5]

فأنت كشخص مكلّف بتلبية النداء بالحج، عليك تلبية هذا النداء:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧﴾ [الحج: 27]

والهدف من ذلك هو ما جاء تكمله لهذا في الآيات التالية:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن

يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْۖ فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ [الحج: 27-30]

وهذه الأهداف هي:

- ⇐ شهادة المنافع
- ⇐ ذكر الله
- ⇐ لقضاء التفث
- ⇐ لإيفاء النذور
- ⇐ للطواف بالبيت العتيق

وهذه جميعها تقع في باب تعظيم شعائر الله (ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)، أليس كذلك؟

لكن يبرز هنا التساؤل التالي: هل يمكن أن يتيسر لكل إنسان القيام بهذه الأفعال في كل عام؟ فهل الباب مفتوح على مصراعيه لكل راغب في ملة إبراهيم الذي بوأ الله له مكان البيت، فقام بنفسه بتطهيره للطائفين والعاكفين الركع السجود؟

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

السؤال مرة أخرى: إذا كان النداء في الناس بالحج مفتوحا، هل يستطيع الجميع تلبية هذه الدعوة الكريمة؟

رأينا المفترى: كلا وألف كلا، فهناك عشرات العوائق التي يمكن أن تمنع الناس من تلبية النداء في الحج فيهم. فكيف يمكن إذن أن نلبي هذه الدعوة الكريمة على مر الأزمان وتحت جميع الظروف وفي ظل جميع المعيقات؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن من الواجب على كل قادر مستطيع عقد النية والتجهز للحج في تلك الأشهر المعلومات، ليكون هو ضمن فئة من فرض فيهن الحج:

- ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾ [البقرة: 197]

فالله قد فرض على كل من يستطيع إلى الحج سبيلا أن يلبي النداء بالحج:

- ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 97]

ليكون السؤال الحتمي هو: ما معنى الاستطاعة التي يتحدث عنها النص القرآني؟

رأينا المفترى: غالبا ما ظن أهل الدراية من قبلنا بأن الاستطاعة تشمل القدرة المادية على أداء مناسك الحج، وغالبا ما فهم الناس أن الاستطاعة تنحصر في القدرة المادية على ذلك. فهل فعلا الاستطاعة هي استطاعة مادية؟

رأينا: كلا وألف كلا. فالاستطاعة المادية ليست كل شيء، وهي تكاد تكون – برأينا- آخر ما في الحسبان، وانظر إن شئت في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمۡ عَن دِينِكُمۡ إِنِ ٱسۡتَطَٰعُواْۚ وَمَن يَرۡتَدِدۡ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتۡ وَهُوَ كَافِرٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢١٧﴾ [البقرة: 217]
- ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيۡرٞ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجۡعَلۡ بَيۡنَكُمۡ وَبَيۡنَهُمۡ رَدۡمًا ٩٥ ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلۡحَدِيدِۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيۡنَ ٱلصَّدَفَيۡنِ قَالَ ٱنفُخُواْۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارٗا قَالَ ءَاتُونِيٓ أُفۡرِغۡ عَلَيۡهِ قِطۡرٗا ٩٦ فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 95-97]
- ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَمَسَخۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمۡ فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مُضِيّٗا وَلَا يَرۡجِعُونَ ٦٧﴾ [يس: 67]
- ﴿فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ ٤٥﴾ [الذاريات: 45]

فنحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أهم مقومات الاستطاعة هي القدرة البدنية على القيام بالفعل، قال تعالى:

- ﴿إِذۡ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١١٢﴾ [المائدة: 112]
- ﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ لَهُمۡ نَصۡرٗا وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٢﴾ [الأعراف: 192]
- ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ وَلَآ أَنفُسَهُمۡ يَنصُرُونَ ١٩٧﴾ [الأعراف: 197]

ولكي تتضح الصورة أكثر دعنا نقدم لك سياقات الاستطاعة كلها في كتاب الله:

- ﴿لِلۡفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحۡصِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ ضَرۡبٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ يَحۡسَبُهُمُ ٱلۡجَاهِلُ أَغۡنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعۡرِفُهُم بِسِيمَٰهُمۡ لَا يَسۡـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلۡحَافٗاۗ وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ٢٧٣﴾ [البقرة: 273]

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾ [البقرة: 282]
- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النساء: 98]
- ﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٢٩﴾ [النساء: 129]
- ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَمۡ يَكُونُواْ مُعۡجِزِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا كَانَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَۘ يُضَٰعَفُ لَهُمُ ٱلۡعَذَابُۚ مَا كَانُواْ يَسۡتَطِيعُونَ ٱلسَّمۡعَ وَمَا كَانُواْ يُبۡصِرُونَ ٢٠﴾ [هود: 20]
- ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٧٣﴾ [النحل: 73]
- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَالَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٤٨﴾ [الإسراء: 48]
- ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 41]
- ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٦٧﴾ [الكهف: 67]
- ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٢﴾ [الكهف: 72]
- ﴿۞قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ٧٥﴾ [الكهف: 75]
- ﴿ٱلَّذِينَ كَانَتۡ أَعۡيُنُهُمۡ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكۡرِي وَكَانُواْ لَا يَسۡتَطِيعُونَ سَمۡعًا ١٠١﴾ [الكهف: 101]
- ﴿بَلۡ تَأۡتِيهِم بَغۡتَةٗ فَتَبۡهَتُهُمۡ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٤٠﴾ [الأنبياء: 40]
- ﴿أَمۡ لَهُمۡ ءَالِهَةٞ تَمۡنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَ أَنفُسِهِمۡ وَلَا هُم مِّنَّا يُصۡحَبُونَ ٤٣﴾ [الأنبياء: 43]
- ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ ضَرَبُواْ لَكَ ٱلۡأَمۡثَٰلَ فَضَلُّواْ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ سَبِيلٗا ٩﴾ [الفرقان: 9]
- ﴿فَقَدۡ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسۡتَطِيعُونَ صَرۡفٗا وَلَا نَصۡرٗاۚ وَمَن يَظۡلِم مِّنكُمۡ نُذِقۡهُ عَذَابٗا كَبِيرٗا ١٩﴾ [الفرقان: 19]
- ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾ [الشعراء: 210-211]
- ﴿فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ تَوۡصِيَةٗ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمۡ يَرۡجِعُونَ ٥٠﴾ [يس: 50]

- ﴿لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَهُمۡ وَهُمۡ لَهُمۡ جُندٞ مُّحۡضَرُونَ ٧٥﴾ [يس: 75]
- ﴿يَوۡمَ يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ ٤٢﴾ [القلم: 42]

فعدم القدرة على السجود يقع في باب عدم الاستطاعة، وموسى لم يستطع صبرا مع الرجل، والشياطين لا تستطيع التنزيل، وهكذا. ونحن نظن أن عدم الاستطاعة هي أهم سمات المستضعفين من الرجال والنساء والولدان:

- ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا ٩٨﴾ [النساء: 98]

السؤال: ما علاقة هذا كله بالاستطاعة في الحج؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الحج هو عمل غير مكلف إطلاقا من الناحية المادية. وما يحتاجه الحاج من الناحية المادية لا يقارن باستطاعته الجسدية اللازمة لأداء مناسك وشعائر الحج، لأن شعائر ومناسك الحج تتطلب جهدا بدنيا كبيرا جدا، قد لا يتحمله الكثيرون. لذا نحن نتجرأ على الظن (ربما مخطئين) بأن التكليف بالحج مرفوع عن كل من لا يستطيع الحج من الناحية الجسدية حتى وإن توافرت عنده القدرة المادية على القيام بذلك. لذا نحن نتجرأ على البوح بأن ما نراه اليوم من مشاهد في الحج كقيام العجوز والشيخ وصاحب الإعاقة بأداء مناسك الحج هي من أفعال التكلف الذي نظن أنه لا طائلة منه. كما أننا نرى أن من العبث أن نشاهد بعض الحجيج يؤدي هذه المناسك وهم محمولون على الأكتاف أو في عربات خاصة، فعدم قدرتهم الجسدية على أداء مناسك الحج هي - برأينا – السبب الرئيس في رفع التكليف عنهم.

السؤال: لماذا؟

رأينا: لأن من فرض عليه تتمة الحج والعمرة لله من الناس فإن عليه أن يقوم بذلك راجلا (أي على رجليه).

تبعات هذا الظن

نتيجة مفتراة (1): الحج مفروض على الناس
نتيجة مفتراة (2): الحج مفروض على الرجال من الناس
نتيجة مفتراة (3): الحج فريضة على من يستطيع منهم
نتيجة مفتراة (4): تؤدي مناسك وشعائر الحج كلها بالسعي (أي مشيا على الأرجل)
نتيجة مفتراة (5): يرفع التكليف عن من لا يستطيع من الرجال، كالذين تقدم بهم العمر أو من كان صاحب إعاقة تمنعه من القيام بالشعائر والمناسك على الوجه المطلوب
نتيجة مفتراة (6): لا يجوز القيام بشعائر الحج محمول على الأكتاف أو على راحلة أو مركبة
نتيجة مفتراة (7): تستمر شعائر الحج عشرة أشهر (أي عشر أيام بلياليها)
نتيجة مفتراة (8): تبدأ شعائر الحج سيرا على الأقدام (للرجال) من عند الميقات
نتيجة مفتراة (9): هناك أكثر من ميقات مادام أن الناس تؤم البيت من كل اتجاه
نتيجة مفتراة (10): هناك عند الميقات تبدأ أول مناسك الحج وهو الإحرام

السؤال: ما الواجب على من لا يستطيع القيام بمناسك وشعائر الحج راجلا؟ وما الواجب على كل من أحصر فما استطاع الوصل إلى البيت العتيق؟

رأينا: نحن نظن أنه يجب على هؤلاء القيام بالأعمال التي يكلف بها من فرض الحج في أشهر الحج ولكنه قد أحصر كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ...﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 196]

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن بأنه لو قام كل من أحصر، فما استطاع الحج الفعلي، بهذه الأفعال، لتحصل له أجر الحج دون الحاجة للذهاب إلى البيت العتيق، ونحن على العقيدة أن هذا فضل من ربنا لأنه هو الغفور الرحيم.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا: عندما يعقد المسلم النية على القيام بفريضة الحج، ولكنه منع عن ذلك لأي سبب سواء كان سببا ماديا أو جسديا أو حتى سياسيا، فأصبح من الذين أحصروا لا يستطيعون ضربا في الأرض، فعليه القيام بهذه الشعائر التي سنتحدث عنها على الفور، ونحن نكاد نجزم الظن بأن أجره قد وقع على الله، بالضبط كالذي خرج من بيته مهاجرا ثم أدركه الموت قبل أن يصل إلى مكان هجرته، قال تعالى:

- ﴿۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ [النساء: 100]

السؤال: ما الذي يجب عليّ فعله إن أنا أحصرت فلم أستطع أداء فريضة الحج إلى البيت العتيق؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (فلا تصدقوه): إنها الأضحية. انتهى.

تساؤلات

دعنا نثير التساؤلات التالية:

⇐ ما هي الأضحية؟
⇐ لماذا شرعت الأضحية أصلا؟
⇐ لماذا شرعت الأضحية في نهاية مناسك الحج؟
⇐ لماذا شرعت الأضحية للحاج ولغير الحاج؟
⇐ لماذا نضحي في يوم النحر في بيوتنا حتى وأن لم نكن من الحجيج؟

⇐ كيف يجب أن نضحي؟
⇐ وما هو فقه الأضحية أصلا؟
⇐ الخ

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نكاد نجزم الظن بأن المسلمين قد اعتادوا على تقديم الأضحية في يوم النحر بالرغم أنهم – برأينا- قد لا يعون تماما المقصد الفعلي من هذا النسك العظيم، ليكون السؤال الذي يجب أن يبحث كل مسلم عن إجابة شافية له هو: ما الهدف من الضحية؟ ولماذا نقدم الأضحية في هذا الوقت على وجه التحديد؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نفتري الظن أن الغاية من تقديم الأضحية في هذا الوقت من العام على وجه التحديد هو – برأينا- من أجل طهارة البيت. انتهى.

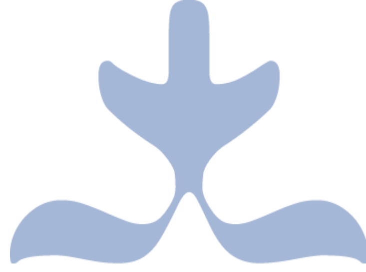
السؤال: أين الدليل على هذا الظن المفترى من عند نفسك؟ يسأل صاحبنا مستغربا

جواب مفترى: هذا ما سنحاول تقديمه في بداية الجزء القادم من هذه المقالة، حيث سنتابع الحديث عن فقه الحج بشكل عام، وعن الغاية من كل منسك من مناسكه وشعيرة من شعائره.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

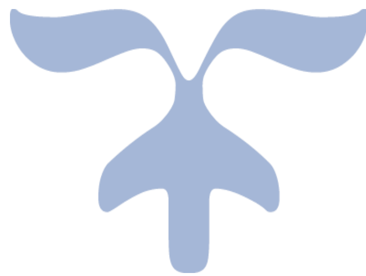
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 آب 2016



فقه الحج

الجزء السادس



فقه الحج – الجزء السادس

افتراءات سابقة مهمة جدا

⇐ الأيكة هي ما يشبه عش الطائر، أي البيت الذي لا سقف له

⇐ قام إبراهيم بإسكان من ذريته بواد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ...٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

⇐ رفع إبراهيم (مع ولده إسماعيل) القواعد من البيت فقط، فكان على شكل أيكه

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

⇐ تكاثر الناس حول ذلك البيت شيئا فشيئا:

- ﴿...وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ كُنتُمۡ قَلِيلٗا فَكَثَّرَكُمۡۖ وَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٨٦﴾ [الأعراف: 86]

⇐ كان الذين هوت أفئدتهم من الناس إلى ذلك البيت من الأعراب

- ﴿... رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

⇐ كان قوم شعيب هم أصحاب تلك الأيكة

- ﴿كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ لۡـَٔيۡكَةِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧٦ إِذۡ قَالَ لَهُمۡ شُعَيۡبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧﴾ [الشعراء: 176-177]

⇐ كانوا أصحاب الأيكة لظالمين لأنهم أخذوا ما ليس لهم بحق:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

⇐ بعد أن تكاثر الناس هناك، انقسموا إلى فئتين، فئة مؤمنة وأخرى لم تؤمن

- ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٞ مِّنكُمۡ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٞ لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ فَٱصۡبِرُواْ حَتَّىٰ يَحۡكُمَ ٱللَّهُ بَيۡنَنَاۚ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلۡحَٰكِمِينَ ٨٧﴾ [الأعراف: 87]

⇐ كانت الغلبة للذين لم يؤمنوا، فاعتبروا أنفسهم أولياء البيت، حتى وإن لم يكن لهم الحق في ذلك لأن أولياء البيت هم المتقون

- ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ ٱللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [الأنفال: 34]

⇐ أخذ هؤلاء يوعدون ويصدون عن سبيل الله، وكان ذلك على نحو أنهم قد قعدوا للآخرين بكل صراط

- ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: 86]

⇐ ولما كانوا يوعدون، كانوا هم من يقومون (نحن نفتري القول) بالفعل الذي يقوم به الشيطان نفسه:

- ﴿إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَٰنًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَّعَنَهُ ٱللَّهُ ۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾﴾ [النساء: 117-120]

وكان ذلك هو وعد الشيطان للإنسان منذ بدء الخلق:

- ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: 62-65]

⇐ أخذ هؤلاء الأعراب يقومون أيضا بفعل القعود بكل صراط، كما هي حال الشيطان نفسه الذي يقعد للناس صراط الله المستقيم:

- ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: 16-17]

⇐ أخذوا يصدون عن سبيل الله بالضبط كما يفعل الشيطان بالناس عندما يصدهم عن السبيل:

- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [النمل: 24]

- ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ۝٣٧ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ۝٣٨﴾ [العنكبوت: 37-38]

⇐ الخ

أما بعد،

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية الخاصة بقوم شعيب، لوجدنا فيها – نحن نرى – ما يدعو إلى التدبر الحقيقي، قال تعالى:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ لَظَٰلِمِينَ ۝٧٨﴾ [الحجر: 78]

ليكون السؤال الذي نود أن نطرحه الآن هو: لماذا جاء النص على نحو أن هؤلاء القوم كانوا لَظَالِمِينَ؟ لماذا لم يكونوا ظالمين وكفى؟ فما فائدة هذه اللام التي ترد في بداية كلمة ظالمين (لَظَٰلِمِينَ)؟

جواب مفترى: لو تفقدنا النص القرآني كله، لما وجدنا أن هذه الصيغة قد جاء في كتاب الله إلا في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن جانب من قصة يوسف مع إخوته:

- ﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ ۝٧٩﴾ [يوسف: 79]

ولو أمعنا النظر في ذلك، لوجدنا أن من جاء وصفهم في كتاب الله على نحو أنهم " لَظَٰلِمِينَ " (أي باستخدام هذه اللام في بداية كلمة ظالمين) هم من أخذوا شيئا لا حق لهم فيه، فهذا يوسف (ومن معه) يرفض أن يأخذ غير من وجدوا متاعهم عنده (قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ)، وبخلاف ذلك يصبح هو (ومن معه) لظالمين (إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ)، وهذا يدعونا إلى تقديم الافتراء التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: من كانوا " لَظَٰلِمِينَ / لَّظَٰلِمُونَ " هم من أخذوا شيئا لا حق له بهم أصلا، لذا نحن نتجرأ على الظن بأن أصحاب الأيكة كانوا لَظَٰلِمِينَ ، لأنهم – برأينا- حازوا على ملكية شيء لا حق لهم به، فما هو ذلك الشيء؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن أصحاب الأيكة كانوا لَظَٰلِمِينَ لأنهم هم من ادعى ملكية الأيكة من غير حق. فبالرغم أن الأيكة (أي البيت الحرام) هو ملكية عامة مادام أنه قيام للناس:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾ [المائدة: 97]

عمد هؤلاء إلى اعتباره ملكية خاصة بهم، فكانوا لَظَالِمِينَ:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأَيۡكَةِ لَظَٰلِمِينَ ٧٨﴾ [الحجر: 78]

وهنا أخذ هؤلاء القوم يتعاملون مع الآخرين على هذا الأساس، أي أن الكعبة البيت الحرام (ٱلۡأَيۡكَةِ) هي ملكية خاصة لهم. فمنعوا كل من يريد الوصول إلى الأيكة (البيت الحرام) إلا بشروطهم، فأصبحت شعائر ومناسك الحج تطبّق حسب شروطهم الخاصة وليس على ملة إبراهيم، فكانوا (نحن نفتري الظن) من الذين سفهوا أنفسهم لأنهم رغبوا عن ملة إبراهيم:

- ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩ وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠ إِذۡ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسۡلِمۡۖ قَالَ أَسۡلَمۡتُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٣١ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾ [البقرة: 129-132]

فلقد كانت ملة إبراهيم مبنية على عدم عبادة الأصنام:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 35-36]

لكن لو لاحظنا ما حصل بعد ذلك، لوجدنا أن عبادة الأصنام قد أصبحت حاضرة هناك عند البيت عند دعوة محمد، فما عاد القوم المتواجدون عند البيت الحرام على ملّة إبراهيم لأنهم رغبوا عنها ماداموا قد عادوا إلى عبادة الأصنام، فكانوا بذلك ممن سفهوا أنفسهم:

- ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٣٠﴾ [البقرة: 130]

ولقد كانت دعوة إبراهيم عند البيت على النحو التالي:

- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾ [إبراهيم: 35-36]

وما أن توالت السنوات حتى عاد الناس إلى عبادة الأصنام عند البيت حتى جاءت دعوة محمد لإعادة الأمور إلى نصابها، فيعود الناس إلى ملة إبراهيم من جديد. لكن كانت المفارقة العجيبة أن الأعراب لم يكن ليقنعهم الوضع كما بدأه إبراهيم وولده إسماعيل في تلك الأرض، وهم الأعراب أنفسهم الذين قاموا لاحقا (نحن نتجرأ على القول) بتحريف دعوة محمد، ولكن بشكل جديد.

باب الحج على ملة إبراهيم

نحن نفتري الظن بأن أول التحريفات التي قام بها الأعراب بعد محمد تتعلق – برأينا- بما جاء في الآية الكريمة التي أنهينا بها الجزء السابق من هذه المقالة، وهي ما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

وقد قادنا النقاش حينئذ إلى ضرورة التمييز بين نوعين من الناس الذين فرضوا الحج في أشهر الحج، وهم الذين أحصروا (فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ) من جهة والذين أمِنوا (فَإِذَآ أَمِنتُمْ) من جهة أخرى.

وقد حاولنا تسويق الظن بأن الذين أحصروا هم الذين منعوا من إتمام الحج والعمرة لأي سبب كان، أي حصل أمر ما منعهم من الوصول إلى مكان البيت العتيق، فما استطاعوا إتمام الحج والعمرة لله. فتوجب على هؤلاء (نحن نرى) ضرورة القيام بشعائر خاصة من أجل الظفر بالأجر (ربما) كأجر الحاج نفسه الذي أمِن فاستطاع الوصول إلى هناك في أشهر الحج. وزعمنا الظن بأن أهم ما يتوجب على من أحصر هو تقديم الهدي، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ ... ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ويتزامن مع تقديم الهدي شعيرة أخرى هي عدم حلق الرؤوس حتى يبلغ الهدي محله، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْيِۖ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْيُ مَحِلَّهُۥۚ ...١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ليكون السؤال: كيف يمكن تنفيذ ذلك على أرض الواقع؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن التنفيذ العملي لهذه الشعائر هو على نحو أن يقوم كل من أحصر (فما استطاع أن يتم الحج والعمرة لله في أشهر الحج) تحضير الهدي (أي الأضحية) والكف عن حلق الرؤوس حتى يبلغ الهدي محله (أي حتى يوم النحر)، فيبقى الهدي معكوفا حتى يبلغ محله، قال تعالى:

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ

وَنِسَآءٞ مُّؤۡمِنَٰتٞ لَّمۡ تَعۡلَمُوهُمۡ أَن تَطَـُٔوهُمۡ فَتُصِيبَكُم مِّنۡهُم مَّعَرَّةُۢ بِغَيۡرِ عِلۡمٖۖ لِّيُدۡخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ لَوۡ تَزَيَّلُواْ لَعَذَّبۡنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾ [الفتح: 24-25]

السؤال: كيف يبلغ الهدي محلة؟ ومتى يبلغ الهدي محله؟ وأين هو أصلا محل الهدي؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ﴿٢٧﴾ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 27-33]

لخلصنا إلى افتراء الظن بأن محل الهدي هو البيت العتيق:

- ﴿لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 33]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (1): البيت العتيق هو محل الهدي

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا (2): مادام أن محل الهدي هو البيت العتيق، فإن الهدي الذي لا يبلغ البيت هو هدي معكوف (وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ). انتهى

السؤال: ما هو العكوف؟ ومن هو العاكف؟ ومن هم العاكفين؟

باب العكوف

لو تفقدنا السياقات القرآنية لجميع مشتقات الفعل "عكف"، لربما حق لنا أن نفتري الظن بأن الآيات القرآنية التالية لها علاقة مباشرة بالموضوع قيد البحث:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَائِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [البقرة: 187]
- ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: 91]
- ﴿قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه: 97]
- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: 52]
- ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ۚ وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ [الحج: 25]
- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: 71]
- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: 138]

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لوجدنا بأن العكوف يحمل في ثناياه الانتظار، فهؤلاء قوم موسى قد ظلوا عاكفين على العجل حتى يرجع إليهم موسى:

- ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾﴾ [طه: 91]

ولا شك أن هذا العكوف قد حصل نتيجة مشكلة ما (كعجل السامري في حالة بني إسرائيل)، فما اتخذ بنو إسرائيل قرارهم بالعكوف إلا بعد أن أخرج لهم السامري عجلا جسدا له خوار:

- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 88]

فاتخذوه آلهة لهم:

- ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ ۚ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ۘ اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: 148]

كما نظن بأن العكوف لا يكون إلا من أجل غاية محددة بعينها (خاصة بالعبادة). فعادة ما يكون المؤمنون من الناس عاكفين في المساجد:

- ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْۚ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ١٨٧﴾ [البقرة: 187]

ومادام أنك عاكف في المساجد، فإن من موجبات هذا العكوف هو عدم قرب النساء، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا لا يحق لمن كان عاكفا في المساجد أن يقرب النساء؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لمّا كانت المساجد لله:

- ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن: 18]

فإن العاكف في المسجد هو قائم هناك من أجل غاية محددة بذاتها وهي – برأينا- ملاقاة ربه، أو الوصول إليه. ولما كانت الغاية هي الوصول إلى الله، فإن من موجبات هذا العكوف هو الكف عن قرب النساء.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الله حيّ (من الحياء):

- ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ٢﴾ [آل عمران: 2]

فلا يجوز – برأينا- قرب النساء في حضرة الرب نفسه. انتهى.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري الظن بأن الإله لا يراقب بنفسه (أي مراقبة مباشرة) إلا المساجد. فبالرغم أن لله ما في السموات والأرض، وهو محيط بكل شيء:

- ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا ١٢٦﴾ [النساء: 126]

إلا أن المساجد على وجه التخصيص هي لله وحده:

- ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ١٨﴾ [الجن: 18]

ومن هنا يأتي (نحن نرى) فضل إقامة الصلاة في المساجد عن إقامتها في أي مكان آخر. فمن كان قائما يصلي في المساجد فهو – برأينا- تحت المراقبة المباشرة من الإله نفسه. أما من أقام الصلاة في أي مكان آخر، فإن الله يعلم بها من خلال رسله. قال تعالى:

- ﴿أَمۡ يَحۡسَبُونَ أَنَّا لَا نَسۡمَعُ سِرَّهُمۡ وَنَجۡوَىٰهُمۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيۡهِمۡ يَكۡتُبُونَ ۝٨٠﴾ [الزخرف: 80]

وقد تعرضنا لهذه الجزئية في مقالات سابقة وظننا أن الخطاب الإلهي بصيغة الجمع يختلف عن الخطاب الإلهي بصيغة المفرد. ففي الآية السابقة نجد أن الخطاب قد جاء على نحن (نَسْمَعُ) مادام أن رسل الله مشتركون في فعل السمع، أما في الآيات الكريمة التالية، فقد جاء الخطاب بصيغة المفرد:

- ﴿قَالَ لَا تَخَافَآۖ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ ۝٤٦﴾ [طه: 46]
- ﴿قَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوۡجِهَا وَتَشۡتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ ۝١﴾ [المجادلة: 1]
- ﴿لَّقَدۡ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ۝١٨١﴾ [آل عمران: 181]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: مادمت قائما تصلي في المساجد، فإنك تحت سمع الله ورؤيته المباشرة، أما إن أنت أقمت الصلاة في مكان آخر غير المساجد، فإن علم الإله بما تقول وتفعل يصل إلى الله عن طريق رسله.

السؤال: لماذا أمرنا الله بعدم قرب النساء في أشهر الحج؟

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝١٩٧﴾ [البقرة: 197]

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن بأن السبب الذي من أجله طلب الله منا عدم الرفث إلى نسائنا في أشهر الحج (العشرة) لأن الله يكون متواجدا فيزيائيا هناك. فعلى من فرض الحج في أشهر الحج ووصل إلى البيت العتيق، فعليه أن يستحي من الله فلا يقرب النساء في الفترة الزمنية وفي هذا المكان على وجه التحديد، مادام أنه قد أصبح في نطاق منطقة المسجد الحرام، وهي المنطقة التي لا يجوز القتال فيها (إلا عند الضرورة كأن يبدأ المشركون القتال عنده):

- ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾ [البقرة: 191]

إن ما يهمنا من هذا النقاش هنا هو ظننا بأن العاكفين في البيت العتيق هم اللذين قدِموا من بعيد لملاقاة ربهم بنفسه، فتكون الصلة بينهما مباشرة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لمّا كان البيت العتيق هو بيت الله:

- ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: 29]
- ﴿لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾﴾ [الحج: 33]

ولمّا كان هذا البيت هو بيت الله المحرم:

- ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

فإن إبراهيم لم يسكن من ذريته في البيت العتيق وإنما أسكنهم عند البيت العتيق، أي على مقربة منه، فكان هناك مقام إبراهيم نفسه:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

وكان المكان كله (البيت العتيق) ومقام إبراهيم آمنا لكل من دخله:

- ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 97]

والسبب في ذلك هو – برأينا- لأن الإله يتدلى بنفسه في ذلك الوقت في هذا المكان، فيصبح حرما آمنا:

- ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [القصص: 57]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: 67]

فلا قتال فيه ولا رفث للنساء هناك ولا فسوق ولا جدال في حضرة الإله رب العالمين. لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن الحجيج (من الناس) يبدءون التجهز من بعيد لملاقاة الرب هناك عند البيت العتيق، فيلبسون ملابس الإحرام من عند الأهلة التي هي مواقيت للناس من أجل ملاقاة ربهم بنفسه، فيمكثوا في البيت العتيق عاكفين فيه، منتظرين قدوم الإله بنفسه إلى هناك في وقت محدد.

السؤال: متى يأتي ربك إلى هناك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه مع بداية أشهر الحج العشرة (أي عشرة أيام بلياليها) تبدأ مراسم تدلي الإله (رب العالمين) بنفسه، فتبدأ مراسم السماء بتجهيز المكان على نحو أن تتنزل الملائكة والروح بإذن ربهم أولا، فتسود السكينة في المكان، ويعم الأمن والسلام، فيصبح كل من دخل منطقة البيت العتيق بما فيها مقام إبراهيم في مأمن:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۞ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ۞﴾ [آل عمران: 96-97]

وأصبح كل من سكن عند البيت (كقريش مثلا) آمنا:

- ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۞ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۞ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۞ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ۞﴾ [قريش: 1-4]

فيبدأ الحجيج بالقدوم إلى البيت من الأماكن المخصصة لدخول البيت وهي المواقيت. ومن هناك يبدأ التجهز لهذا اللقاء العظيم بالإحرام:

- ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۞﴾ [البقرة: 189]

فتكون تلك المواقيت هي أبواب البيت العتيق، وما أن يقربوا من البيت حتى يكونوا قد اقتربوا من الصراط الذي يكون ربنا بنفسه عليه:

- ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞﴾ [هود: 56]

وما أن يبدأ الناس بالوصول حتى يبدءوا شعائر الحج، فيقومون بفعل الطواف والعكوف ويكونون ركعا سجدا:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۞﴾ [الحج: 26]

فيقومون لحظة الوصول إلى هناك بفعل الطواف بالبيت العتيق:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ٢٩﴾ [الحج: 27-29]

ويكونون أيضا في حالات قيام وركوع وسجود:

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]

كما يكونون أيضا في حالة انتظار (أي عكوف) حتى يأتي ربهم بنفسه إلى هناك، فيكونون إذن في حالة عكوف ماداموا في حالة انتظار:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

السؤال: متى يأتي الله بنفسه إلى هناك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن الله يأتي بنفسه إلى ذلك المكان في يوم الحج الأكبر:

- ﴿وَأَذَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوۡمَ ٱلۡحَجِّ ٱلۡأَكۡبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبۡتُمۡ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُمۡ غَيۡرُ مُعۡجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٣﴾ [التوبة: 3]

ولو تدبرنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أنه على الرغم من أن الحج أشهر (وليس شهور) معلومات:

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]

(للتفصيل انظر مقالتنا ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته: باب الشهر)

إلاّ أن هناك يوم محدد بذاته أسمه يوم الحج الأكبر (وَأَذَانٌ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ)، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا يسمى هذا اليوم على وجه التحديد يوم الحج الأكبر؟ أي لم يكون هناك يوم في الحج يسمى يوم الحج الأكبر أصلا؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذا هو اليوم الذي يأتي الإله فيه بنفسه، لأن الله هو أكبر، قال تعالى:

- ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [العنكبوت: 45]
- ﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الأنعام: 19]

السؤال: متى هو ذلك اليوم؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه يوم الوقوف بعرفات.

السؤال: لماذا؟ وأين الدليل على ذلك؟

باب عرفات

نحن نظن أن يوم الوقوف بعرفات هو يوم الحج الأكبر، لأن هذا – برأينا- هو اليوم الذي يأتي فيه الإله بنفسه إلى هناك، ليقضي للناس حوائجهم، وليسبغ عليهم نعمه.

(دعاء: ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن، إنك أنت السميع البصير- آمين)

السؤال: لماذا عرفات؟ وما هو عرفات أصلا؟ ولم اختير هذا المكان ليكون هو يوم الحج الأكبر؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نفتري القول بأن عرفات هو ذلك الجبل الذي تجلى الإله له عند ملاقاة موسى في الميقات المحدد، وهو الجبل الذي جعله الله دكا. انتهى.

الدليل

قال تعالى:

- ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]

السؤال: كيف نفهم أن الله قد دك ذلك الجبل؟

رأينا المفترى: دعنا ندقق في الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝١٨ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ [الفجر: 18-21]

السؤال: ما الذي سيحصل للأرض عندما يدكها الله دكا دكا؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه عندما يدك الله الأرض دكا دكا، فإن ذلك يؤدي إلى تسويتها أفقيا وعامودا، فلا ترى فيها عوجا ولا أمتا:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ۝١٠٧﴾ [طه: 105-107]

فنحن نظن أن دك الأرض دكا دكا (أي دكتين) يودي إلى تسويتها بطريقة أفقية فلا يكون فيها عوجا، وبطرقة عامودية أيضا فلا يكون فيها أمتا (أي بروز).

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ)

السؤال: ما علاقة هذا بدك الجبل الذي تجل له ربه؟

- ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

رأينا المفترى: لمّا كان ما حصل للجبل هو عبارة عن دكة واحدة (جَعَلَهُ دَكًّا) فإن ذلك لم يؤدي إلى تسوية الأرض التي يقع عليها الجبل تسوية أفقية و عامودية معا، وإنما كانت تسوية واحدة، بدليل أنه تبقى للجبل (نحن نظن) بروز ظاهر فوق الأرض التي يقع عليها. ولو راقبنا جبل عرفات (أي جبل النور) وحاولنا مقارنته بما حوله من الجبال الأخرى القريبة منه، لما وجدنا أنه هو الجبل الأعلى، فهناك جبال أكثر علوا منه تقع حوله، وهو الأقل ارتفاعا من بينها جميعا، ليكون السؤال المثير هو: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن هذا الجبل لم يدك إلاّ دكة واحدة:

- ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ۝١٤﴾ [الحاقة: 14]
- ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

لذا، نحن نفتري أنه مادام أن هناك دكة واحدة فهناك إذن دكة ثانية.

السؤال: لمن تحصل الدكة الواحدة؟ ولمن تحصل الدكتان الاثنتان؟

رأينا المفترى: نحن نرى أن الدكة الواحدة قد حصلت للجبل الذي تجلى له رب العالمين:

- ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

بينما ستحصل الدكتان للأرض:

- ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ [الفجر: 21]

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن الجبال كلها لا تدك إلا دكة واحدة ثم تنسف بعد ذلك نسفا:

- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ۝١٠٥ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ۝١٠٦﴾ [طه: 105-106]

وهذا لا محالة حاصل عندما تقوم الساعة. أما قبل ذلك، فإن جلّ ما حصل هو أن هناك جبل واحد، محدد بذاته، قد وقع عليه فعل الدك مرة واحدة وكان ذلك نتيجة تجلي الإله له، فكان هو – برأينا- جبل النور:

- ﴿... فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: 143]

السؤال: لماذا يسمى جبل عرفات على وجه التحديد جبل النور؟

رأينا المفترى: لما كان الله هو نور السموات والأرض:

- ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝٣٥﴾ [النور: 35]

فإن النتيجة الحتمية لتجلي الإله لهذا الجبل هو – برأينا المفترى- اكتساب ذلك الجبل شيئا من نور الله، فكان هو بذاته جبل النور.

(دعاء: اللهم ربنا اهدنا بالنور الذي أنزلت إلى نورك، فذرنا نقتبس من نورك، فنكن في أنصارك، لتجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمتك هي العليا، فتخرجنا بها من الظلمات إلى النور بإذنك، إنك أنت الحكيم العليم - آمين)

تلخيص ما سبق

عندما يتجهز الناس لأداء فريضة الحج من كل فج عميق، فإن واقع الحال لا تتيح للجميع إتمام فريضة الحج، فقد يحصر جزء من هؤلاء الناس فلا يستطيعون الوصول إلى البيت العتيق في أشهر الحج نتيجة لظرف ما، فما يكون على هؤلاء إلا (نحن نظن) القيام بما تنص عليه الآية الكريمة:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ...١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ونحن نفهم ذلك على نحو أن يجهز المسلم الذي لم يستطع إتمام الحج والعمرة لله (لأنه كان من الذين أحصروا) ما تيسر من الهدي (أي الأضحية)، ثم عليه في الوقت ذاته أن يتوقف عن حلق رأسه طيلة فترة أشهر الحج وهي عشرة (أي عشرة أيام بلياليها)، فيبقى الهدي الذي جهزه هذا المسلم الذي أحصر معكوفا طيلة الفترة الزمنية كلها (أي فترة العشرة أشهر)، وما أن يأتي يوم النحر حتى يقوم هذا المسلم بتقديم هديه بعد الصلاة:

- ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ٣﴾ [الكوثر: 1-3]

وما أن يأتي ذلك اليوم ويقوم المسلم الذي أحصر بتقديم ما جهز من الهدي حتى يكون الهدي قد بلغ محله، وهنا يحق للمسلم الذي أحصر (نحن نفتري القول) أن يحلق رأسه بعد تقديمه لهذا الهدي الذي قد بلغ محله الآن.

ولو تفقدنا الآيات الكريمة السابقة لوجدنا بأنها تبين لنا أن الله قد أمر رسوله الكريم بالصلاة ثم النحر، وأن كل شانئ للنبي (الذي قام بهذا الفعل) هو أبتر. ونحن نرى (ربما مخطئين) أن كل أبتر هو الذي ليس له صلة بغيره. فما بالك بمن قد قطع صلته مع ربه، أليس هذا هو الأبتر؟ من يدري؟!

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المسلم الذي يقدم هديه في يوم النحر هو الذي حافظ على صلته بربه، فلا يمكن أن يكون أبترا. انتهى.

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون ممن لهم حظ عظيم في الكوثر، وأسألك وحدك أن أكون ممن يصلون لك ثم ينحرون، وأعوذ بك أن أكون ابترا، إنك أنت الغفور الرحيم - آمين).

كما نفتري الظن من عند أنفسنا بأن من الواجب على الذي أحصر أن يقوم بفعل آخر وهو الصيام، أي صيام الأشهر العشرة من الحج. فإن هو فعل هذه الأمور الثلاثة (تقديم الهدي، وعدم حلق حتى يبلغ

الهدي محله وصيام أشهر الحج العشرة)، فإنه قد ظفر (نحن نظن) بالأجر الذي كان من الممكن أن يحصل عليه لو أنه كان من الذين أمنوا فوصلوا إلى البيت العتيق:

- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا جدا: نحن نظن أن تقديم الهدي في يوم النحر هو من أجل المحافظة على الصلة المباشرة مع الله، فلا يكون من فعل ذلك أبترا.

الدليل

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة على وجه التحديد:

- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

لوجدنا أنها تفصل – برأينا المفترى من عند أنفسنا- بين نوعين من الحجيج وهم الذين تمتعوا بالعمرة إلى الحج من جهة مقابل الذين لم يتمتعوا بالعمرة إلى الحج من جهة أخرى. لتكون التساؤلات الآن هي:

⇐ من هو الحاج المتمتع؟
⇐ ومن هو الحاج غير المتمتع؟
⇐ وما الفرق بين الاثنين؟
⇐ وما هي الواجبات المفروضة على كل واحد منهما؟

رأينا المفترى: إن هذا النوع من التفكير (ربما المغلوط) يقودنا على الفور إلى طرح التساؤل المبدئي التالي: ما معنى التمتع؟ أي متى يمكن أن يطلق على الحاج صفة الحاج المتمتع؟ ومتى يمكن أن نصف الحاج على أنه حاج غير متمتع؟

باب التمتع

دعنا نتجرأ هنا على تقديم افتراء (ربما غير المسبوق) حول هذه القضية التي جاءت فيها أقوال العلماء أهل الدراية من قبلنا على أوجه كثيرة. ونحن أميل إلى الظن بأن افتراءنا هنا (إن صح طبعا) قد يقلب الأمور كلها رأسا على عقب. فبعيدا عن التراث السابق حول هذه القضية، نحن نرى (ربما مخطئين) أن التمتع فعل متعلق بوجود النساء، قال تعالى:

- ﴿۞ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٤﴾﴾ [النساء: 24]

فلو تفقدنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا أن الاستمتاع يكون في النساء، فالرجال هم الذين يتمتعون بالنساء (فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ).

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا الفصل واضحا بين الأكل والتمتع واللهو (بالأمل):

- ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا۟ وَيَتَمَتَّعُوا۟ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [الحجر: 3]

وهنا يبرز السؤال الحتمي وهو: كيف يختلف الأكل عن التمتع؟ وكيف يختلف التمتع عن اللهو (بالأمل)؟

رأينا المفترى: لو دققنا في السياق القرآني التالي: لوجدنا أن الطيبات هي خاصة بالرزق من جهة وبالنساء من جهة أخرى:

- ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾﴾ [المائدة: 5]

ولكن لو راقبنا الآيات القرآنية على مساحة النص القرآني، لوجدنا أنه عندما يأتي ذكر الأكل مع الطيبات، يأتي ذكرها صراحة:

- ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: 57]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾ [البقرة: 172]
- ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۚ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الأعراف: 160]
- ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى ۖ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ [طه: 81]

- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ [المؤمنون: 51]
- ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ۝٢٦٧﴾ [البقرة: 267]
- ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ قُلۡ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا خَالِصَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣٢﴾ [الأعراف: 32]

لكن – بالمقابل-عندما يأتي الحديث عن النساء، فإن لفظ الطيبات تأتي منفردة لوحدها، قال تعالى:

- ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٢٦﴾ [النور: 26]

لتكون المقابلة بين الطعام من جهة والنساء من جهة أخرى على النحو التالي:

الطعام		النساء	
خبيث	طيب	خبيث	طيب
وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ	أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ	ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ	وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ

ولو عدنا إلى الآية الكريمة السابقة، لوجدنا أن هناك فعل خاص بالأكل وفعل خاص بالتمتع:

- ﴿ذَرۡهُمۡ يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلۡهِهِمُ ٱلۡأَمَلُۖ فَسَوۡفَ يَعۡلَمُونَ ۝٣﴾ [الحجر: 3]

لتكون النتيجة التي نحاول أن نفتريها على النحو التالي: مادام أن ذكر الأكل قد جاء مستقلا عن فعل الأكل في الآية الكريمة نفسها (يَأۡكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ)، فربما يحق لنا أن نستنبط القول بأن التمتع الوارد بالآية الكريمة (وَيَتَمَتَّعُواْ) ليس له علاقة بالأكل الوارد في الآية نفسها (يَأۡكُلُواْ)، فما هو إذن فعل التمتع الوارد بالآية إن لم يكن خاصا (كما نزعم) بالطيبات من الرزق؟

رأينا المفترى (1): نحن نظن أن فعل الأكل خاص بالطيبات من الرزق

رأينا المفترى (2): نحن نظن أن فعل التمتع فعل خاص بالنساء، قال تعالى:

- ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَۖ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ۝٢٦﴾ [النور: 26]

السؤال: ما علاقة هذا بقوله تعالى (فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ) في معرض الحديث عن الحج؟

- ﴿...فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

رأينا المفترى من عند أنفسنا الخطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن من تمتع بالعمرة إلى الحج هو كل حاج اصطحب زوجاته من النساء معه إلى هناك، فكن حاضرات المسجد الحرام في وقت الحج. انتهى.

نتيجة مفتراة مهمة جدا: نحن نظن (ربما مخطئين) أن الحاج لا يسمى حاجا متمتعا إلا إن كان ممن أصطحب زوجاته من النساء معه إلى المسجد الحرام لإتمام فريضة الحج.

السؤال: فمن هو إذن الحاج غير المتمتع بالعمرة إلى الحج؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحاج غير المتمتع بالعمرة إلى الحج هو من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام. انتهى.

الدليل

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في الآية الكريمة قيد البحث من هذا الجانب:

- ﴿...فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ألا تجد أن هناك فصلا واضحا بين من كان أهله حاضري المسجد الحرام مقابل من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ)؟

رأينا المفترى: مادام أن الآية الكريمة تبيّن لنا أن هناك مجموعة من الحجيج وهم الذين لم يكن أهلهم حاضري المسجد الحرام (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ)، فهناك إذن بالمقابل من كان أهله حاضري المسجد الحرام، فمن هم هؤلاء الذين كان أهلهم حاضري المسجد الحرام؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من كان أهلهم حاضري المسجد الحرام هم الذين تمتعوا بالعمرة إلى الحج. انتهى.

ولو تفقدنا الآية الكريمة نفسها، لوجدناها تتحدث في جانب منها عن من كان أهله حاضري المسجد الحرام (مقابل من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام)، أليس كذلك؟

ولعل هذا يدعونا أن نخالف ما وصلنا من عند أهل الدراية في هذه الجزئية. فلقد كان ظن معظم أهل الدراية من قبلنا (كما نقل لنا أهل الرواية عنهم) على نحو أن المقصود هنا هم سكان البيت الحرام، أي أهل مكة، أليس كذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نرفض جملة وتفصيلا هذا الرأي لأن الآية الكريمة (كما نفهمها) تتحدث عن حضور المسجد الحرام ولا تتحدث عن من كان ساكنا عند المسجد الحرام كما فعل إبراهيم مثلا عندما أسكن من ذريته هناك:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

فلو جاءت الآية على نحو:

ذلك لمن لم يكن أهله ساكني المسجد الحرام

لربما وافقناهم الرأي، وظننا أن المقصود هم كل من سكن عند البيت الحرام من أهل مكة. ولكن لمّا كانت الآية تتحدث عن حضور المسجد الحرام وليس عن السكن عند المسجد الحرام، فإننا نتجرأ على الظن بأن المقصود هم كل من حضر إلى البيت في أيام الحج سواء كان ممن يسكن عند البيت من أهل مكة أو قدم إلى هذا المكان من بعيد من أجل إتمام الحج والعمرة لله، وليس أدل على ذلك من قوله تعالى:

- ﴿أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِيۖ قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٣﴾ [البقرة: 133]

فما دام أن الموت قد حضر يعقوب (إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ)، فهو إذن قد وصل إلى المكان الذي كان يعقوب متواجدا فيه حينئذ، ولكن الموت – لا شك عندنا- لا يسكن ذلك المكان قبل أن يحضر يعقوب كما أنه لن يمكث فيه بعد أن يقضي على يعقوب. فالموت إذن قد حضر ليعقوب لأنه جاء إليه في مهمة خاصة ومحددة، أليس كذلك؟

وهذا المنطق (ربما المغلوط) يشجعنا على تقديم الافتراءات التالية عن الحضور:

⇐ أن الذي يحضر في مكان ما لا يكون متواجدا فيه من قبل
⇐ أن الذي يحضر في مكان ما لا يبقى متواجدا فيه بعد ذلك إلى الأبد
⇐ أن الذي يحضر إلى مكان ما يصل إلى المكان من أجل إتمام مهمة محددة بعينها
⇐ الخ

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التي تتحدث عن حضور الموتُ يعقوبَ، لوجدنا أن هذه الافتراءات متوافرة: فالموت حضر إلى يعقوب من مكان آخر، والموت حضر إلى يعقوب في مهمة خاصة (وهي أن يقضي على يعقوب)، والموت لم يبقى متواجدا في ذلك المكان بعد أن أنهى مهمته فيه.

ولا ينطبق هذا المشهد على يعقوب وحده، وإنما ينطبق على كل من حضره الموت كيعقوب، قال تعالى:

- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾﴾ [البقرة: 180]
- ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ [النساء: 18]

فالموت إذن (نحن نستنبط) ينتقل من مكان إلى مكان آخر مادام أن مهمته القضاء على كل من حضره، أليس كذلك؟

وهذا لا ينطبق فقط على الموت، وإنما ينسحب على الأشخاص العاديين من مثلي ومثلك، فعندما يحضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين، فهم إذن يقدمون من مكان آخر غير المكان الذي ستجري فيه القسمة، وهم يأتون إلى مكان القسمة من أجل طلب حصتهم من القسمة (فلولا ذلك ما حضروا أصلا)، وهم لا يستمرون في المكوث في هذا المكان بعد أن تنتهي القسمة:

- ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٨﴾﴾ [النساء: 8]

ويبين الله لنا في الآية الكريمة التالية، بأن الكثيرين سيحضرون حول جهنم:

- فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (68)
- ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾﴾ [مريم: 68]

وربما ترشدنا هذه الآية الكريمة (إن صح فهمنا لها) أن الحشر يتم في مكان غير المكان الذي تتواجد فيه جهنم، وذلك لأنه ما أن يتم حشرهم في ذلك المكان (فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ) حتى يتم إحضار جزء كبير منهم بعد ذلك حول جهنم (ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا).

والآية الكريمة التالية تبين لنا بأن الجميع سيحضر لدى ربهم في يوم الحساب:

- ﴿وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [يس: 32]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن هذا المنطق لا ينطبق على الأشخاص فقط بل ينسحب على الأشياء كذلك، فأعمال العباد تُحضر في يوم الحساب كما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ [آل عمران: 30]

السؤال: ألا يدل ذلك على أن الإحضار يتم بجلب الأشياء والأشخاص من مكان آخر؟ من يدري؟!

والآن، لندقق في الآية الكريمة التالية لتتأكد لدينا هذه الافتراءات التي قدمناها عن معنى الإحضار، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأحقاف: 29]

فهل كان الجن متواجدون عند محمد على الدوام أم أن قدومهم كان من مكان آخر إلى هذا المكان الذي كان يتواجد فيه محمد ليستمعوا هناك القرآن؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا مهمة جدا جدا: نحن نظن بأن من يحضر مكانا ما، فهو الذي يأتي (أو يؤتي به) إلى ذلك المكان من مكان آخر. وليس أدل على ذلك – برأينا- مما جاء في نهاية الآية الكريمة نفسها. فالجن قد صرفوا إلى محمد ليستمعوا القرآن (وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ)، وما دام أنهم جاء إلى هذا المكان من مكان آخر، فهم إذن قد حضروه (فَلَمَّا حَضَرُوهُ)، فظلوا حاضرين ماداموا ينصتوا للقرآن (فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟)، وما أن انتهت مهمة سماعهم للقرآن حتى كان الأمر قد قضي (فَلَمَّا قُضِىَ)، وما أن قضي ذلك الأمر حتى ولوا إلى قومهم منذرين (وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ)، فما استمروا في المكوث في المكان نفسه الذي حضروا فيه لسماع القرآن.

السؤال: ما علاقة هذا كله بالآية الكريمة قيد البحث التي تتحدث عن من كان أهله حاضري المسجد الحرام:

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 196]

نتيجة مفتراة مهمة جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن هذه الآية الكريمة تتحدث عن من كان أهله حاضري المسجد الحرام (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ)، أي من قدموا إلى المسجد الحرام من مكان آخر، وكان ذلك من أجل غاية محددة بذاتها (وهي إتمام الحج والعمرة لله)، وأن مكوثهم في هذا المكان لن يكون على سبيل الدوام، بدليل أنهم لا محالة راجعون (إِذَا رَجَعْتُمْ). انتهى.

عودة على بدء

السؤال: ما الواجبات المفروضة على كل نوع منهما (أي من كان أهله حاضري المسجد الحرام مقابل من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن على الحاج المتمتع بالعمرة إلى الحج (أي من كان أهله حاضري المسجد الحرام، أي كل الذين قدموا إليه من بعيد من أجل إتمام الحج والعمرة لله) القيام بفعل واحد وهو الهدي، وفي حال عدم استطاعة أي من هؤلاء تقديم الهدي، يشرع له حينئذ اللجوء إلى البديل، وهو الصيام:

- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ولكن – بالمقابل- يجب على من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (أي الحاج غير المتمتع) القيام بفعل الصيام مباشرة دون الحاجة إلى الهدي. انتهى.

الدليل

دعنا ندقق في الآية الكريمة نفسها مرة أخرى من هذا المنظور المفترى من عند أنفسنا، قال تعالى:

- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

فنحن نطلب بداية من القارئ الكريم أن يقرأ الآية على النحو التالي:

- ﴿... فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ... ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ونحن نفهم أن على كل حاج متمتع بالعمرة إلى الحج (أي كان أهله حاضري المسجد الحرام) أن يقدم ما استيسر من الهدي، ولا يحق له أن لا يفعل ذلك إلا في حالة واحدة وهي عدم استطاعته على ذلك

(فَمَن لَّمْ يَجِدْ). أما إن هو وجد، أي كان قادرا على تقديم الهدي، فالهدي أولى، ولا يجوز له الصيام بدلا من ذلك (فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ)

والآن نطلب من القارئ الكريم أن يقرأ الآية الكريمة على النحو التالي:

- ﴿... فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ... ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

وهنا بالضبط نتوقف لنطرح على الفور التساؤل المثير التالي: على ماذا يعود اسم الإشارة ذَٰلِكَ في الآية الكريمة؟

رأينا المفترى والخطير جدا جدا: نحن نظن أن مفردة ذلك تعود على شيء واحد فقط، كما في قوله تعالى:

- ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2]
- ﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٣١﴾ [البقرة: 231]
- ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ٤٨﴾ [النساء: 48]

ولما يكون الحديث عن أكثر من شيء واحد، كأن يكون الحديث عن جزئين لأمر واحد، فنجد اسم الإشارة ذَٰلِكُمَا كما في قوله تعالى:

- ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ٣٧﴾ [يوسف: 37]

كما نجد اسم الإشارة ذَٰلِكُمْ عند الحديث عن أكثر من شيء واحد، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ٤٩﴾ [البقرة: 49]
- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ٥٤﴾ [البقرة: 54]

فتصبح الصورة على نحو وجود ثلاث أسماء للإشارة هي ذَٰلِكَ و ذَٰلِكُمَا و ذَٰلِكُم ، كما في الشكل التوضيحي التالي:

ذَٰلِكَ	تعود على شيء واحد فقط ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ [البقرة: 2]
ذَٰلِكُمَا	تعود إلى شيء واحد يتجزأ إلى جزئيين ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَهُم بِٱلْأٓخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ ۝٣٧﴾ [يوسف: 37]
ذَٰلِكُم	تعود على أكثر من شيء واحد، ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝٤٩﴾ [البقرة: 49]

السؤال: ما علاقة هذا كله بمفردة ذَٰلِكَ في قوله تعالى؟

- ﴿... فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِي ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ...۝١٩٦﴾ [البقرة: 196]

رأينا المفترى: ما دام أن المفردة هي ذَلِك، فإنها – برأينا- تعود على شيء واحد وهو (نحن نفتري الظن) الصيام، ولا تعود على الصيام والهدي اللذين يردان في الآية الكريمة معا. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذَٰلِكَ (أي الصيام) مطلوب على وجه التحديد ممن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِي ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ). انتهى.

فتصبح الصورة للتفريق بين الحاج المتمتع والحاج غير المتمتع عندنا على النحو التالي:

الحاج المتمتع (من كان أهله حاضري المسجد الحرام)	مطلوب منه الهدي، ويمكن له الصيام في حالة أنه لم يجد (القدرة عنده على) الهدي
الحاج غير المتمتع (من لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام)	مطلوب منه الصيام ولا يتوجب عليه الهدي إطلاقا

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن لهذا علاقة مباشرة بطهارة البيت، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]
- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

لو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا أن الأمر الإلهي بتطهير البيت قد جاء مرة لإبراهيم، وفي هذه المرة كانت الطهارة من أجل الطائفين والقائمين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

بينما جاء الأمر الإلهي مرة أخرى لإبراهيم وإسماعيل معا، وكانت الغاية من التطهير هذه المرة من أجل الطائفين والعاكفين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

ولو لاحظنا الفرق بين الحالتين لوجدنا أن إبراهيم لم يؤمر بطهارة البيت من أجل العاكفين وإنما أمر بطهارة البيت للقائمين، ولكن إبراهيم وإسماعيل قد أمرا بتطهير البيت من أجل العاكفين.

إبراهيم	إبراهيم وإسماعيل
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]	﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

السؤال: ما الغاية من ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأن القائمين خاصة بالصلاة:

- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا ۚ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ [المائدة: 6]

بينما العاكفين خاص بالحجيج (أي من حضر المسجد الحرام من أجل إتمام الحج والعمرة لله)، لذا نحن نتجرأ على الظن بأن إبراهيم وإسماعيل هما من أُمرا ليطهرا البيت من أجل الحجيج.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: عندما أسكن إبراهيم من ذريته عند البيت، لم يكن يتواجد هناك أحد غير من أسكنهم إبراهيم هناك، ولم يكن البيت أصلا مرفوعا، لأن إبراهيم هو من عمد إلى رفع القواعد من البيت. ولم يقدم إبراهيم على هذا العمل إلا بعد أن اشتد ساعد ولده إسماعيل، لأنهما هما من رفعا القواعد من البيت معا:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ [البقرة: 127]

فنحن نتخيل أن ما حصل على أرض الواقع هو على نحو أنه ما أن بوأ لإبراهيم مكان البيت، حتى طلب منه أن يطهر البيت للطائفين والقائمين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: 26]

فكانت جل العبادة طواف (لِلطَّائِفِينَ) وقيام (وَالْقَائِمِينَ) وركوع سجود (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ). ولكن ما أن بدأت أفئدة من الناس تهوي إلى من أسكنهم إبراهيم من ذريته هناك، وما أن اشتد ساعد إسماعيل، حتى بدءا برفع القواعد من البيت، وهنا جاء الأمر الإلهي لإبراهيم بأن يؤذن في الناس بالحج:

- ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾ [الحج: 27]

حتى أصبحت العبادة على نحو طواف (لِلطَّائِفِينَ) وعكوف (وَالْعَاكِفِينَ) وركوع سجود (وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)

وهنا بالضبط جاء الأمر الإلهي لإبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت للطائفين والعاكفين والركع السجود:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ۝١٢٥﴾ [البقرة: 125]

فبدأت مناسك وشعائر الحج تطبق منذ ذلك الوقت.

وهنا نتوقف على الفور لطرح التساؤلات التالية عن طهارة البيت:

⇐ ما معنى طهارة البيت؟

- ⇐ وكيف طهر إبراهيم أولا البيت للطائفين والقائمين والركع السجود؟
- ⇐ وكيف طهرا إبراهيم وإسماعيل البيت بعد ذلك للطائفين والعاكفين والركع السجود؟
- ⇐ وكيف يمكن أن تتم طهارة البيت؟
- ⇐ ولماذا أصلا أمر إبراهيم وإسماعيل بطهارة البيت؟
- ⇐ الخ

كما لا نتردد أن نطرح التساؤلات حول الشعائر الأخرى وهي الطواف والقيام والركوع السجود:

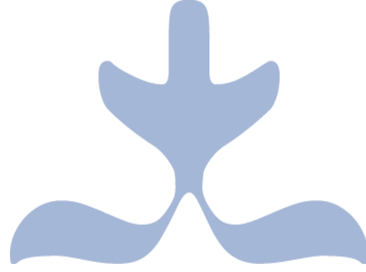
- ⇐ ما هو الطواف؟
- ⇐ ما هو القيام؟
- ⇐ ما هو الركوع السجود؟
- ⇐ ما الفرق بين كل واحدة من هذه الشعائر مع الأخرى؟
- ⇐ وما علاقة كل واحدة منهما بالأخرى؟
- ⇐ الخ

هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيقه في الأجزاء القادمة من هذه المقالة. وسنرى علاقة هذا كله بفريضة الحج، وخاصة ما يتعلق منها بالبيت العتيق، وخاصة مكان البيت وقواعده وسقفه، ثم سنعرج بعد ذلك على قصة شعيب على وجه التحديد، وعلاقة إبراهيم وموسى ومحمد بهذا المكان وبهذه الشعائر والمناسك الخاصة بفريضة الحج نفسها، في محاولة منا لفهم فقه هذه العبادة العظيمة التي شرعها الله لعباده المؤمنين.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

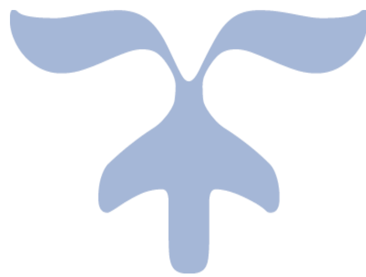
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
26 تشرين أول 2016



فقه الحج

الجزء السابع



فقه الحج – الجزء السابع

لنبدأ هذا الجزء الجديد من المقالة بالاقتباس التالي من موسوعة الويكيبديا عن الأغنية الشهيرة (القلب يعشق كل جميل) التي أنشدتها أم كلثوم في 3 شباط من عام 1971، وهي قصيدة للشاعر الكبير بيرم التونسي. وجاء في موسوعة الويكيبيديا عن هذه القصيدة ما نصه:

"عندما توفي الشاعر بيرم التونسي في يناير 1961، كان قد ترك لأم كلثوم بعضاً من أشعاره، ومن هذه الأشعار كانت هذه الأغنية التي تحدث عن الحب الإلهي، وعن السلام الداخلي الذي يتحقق بزيارة مكة المكرمة، وتنتهي الأغنية بمشهد يتخيل فيه الشاعر نفسه (وإن لم يقل ذلك) في الجنة، ويتمنى أن يكون مصير كل أحبابه مثل مصيره." انتهى الاقتباس.

أما نص القصيدة فهو على النحو التالي:

القلب يعشق كل جميل ... وياما شفتِ جمال يا عين
واللي صدق في الحب قليل ... وإن دام يدوم يوم ولا يومين
واللي هويته اليوم ... دايم وصاله دوم
لا يعاتب اللي يتوب ... ولا بطبعه اللوم
واحد مافيش غيره ... ملا الوجود نوره
دعاني لبيته ... لحد باب بيته
واما تجلى لي ... بالدمع ناجيته
******* ... *******
كنت ابتعد عنه ... وكان يناديني
ويقول مصيرك يوم ... تخضع لي وتجيني
طاوعني يا عبدي ... طاوعني انا وحدي
ما لك حبيب غيري ... قبلي ولا بعدي
أنا اللي أعطيتك ... من غير ما تتكلم
وانا اللي علمتك ... من غير ما تتعلم
واللي هديته إليك ... لو تحسبه بإيديك
تشوف جمايلي عليك ... من كل شيء أعظم
سلم لنا ... تسلم
مكة وفيها جبال النور ... طالّة على البيت المعمور
دخلنا باب السلام ... غمر قلوبنا السلام
بعفو رب ... غفور
فوقنا حمام الحما ... عدد نجوم السما

طاير علينا يطوف ألوف تتابع ألوف
طاير يهني الضيوف بالعفو والمرحمة
واللي نظم سيره واحد ما فيش غيره
******* *******
جينا على روضه هلا من الجنة
فيها الأحبة تنول كل اللي تتمنى
فيها طرب وسرور وفيها نور على نور
وكاس محبه يدور واللي شرب غنى
وملايكة الرحمٰن كانت لنا ندمان
بالصفح والغفران جاية تبشرنا
يا ريت حبايبنا ينولوا ما نلنا
يا رب توعدهم يا رب يا رب واقبلنا
دعاني لبيته لحد باب بيته

وغايتنا هنا أن نبين أن هذا الشاعر الكبير قد عبّر بطريقته عن نظرته الخاصة لزيارة البيت العتيق، فهو يرى أن هذه الزيارة هي دعوة خاصة ومباشرة من ربه إلى لقاءه عند بيته العتيق، فهو يرى بأن الإله يتجلى هناك ليملأ الوجود نوره، كما يرى أن المناجاة تكون مباشرة بين العبد وربه في ذلك المكان والزمان على وجه التحديد، والمقطع التالي ربما يخلص مراد الشاعر بشكل واضح:

واحد مافيش غيره ملا الوجود نوره
دعاني لبيته لحد باب بيته
واما تجلى لي بالدمع ناجيته

وسنحاول أن نتابع في هذا الجزء من المقالة مثل هذا النوع من التفكير، بمحاولة فهم ما يخص فقه عبادة الحج كما جاءت في كتاب الله الكريم، ظانين في الوقت ذاته أننا سنتجرأ على افتراءات ربما تكون غير مسبوقة، وهي من الخطورة بمكان تدعونا أن نطلب من كل من لا يستطيع سماع ما يخالف العقيدة التي ألفى عليه آباءه أن يتوقف فورا عن القراءة، ويتركنا وشأننا نخرص وحدنا، فلا يشغل نفسه فيما لا يعنيه. سائلين الله وحده أن يؤتينا رشدنا، وأن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يزدنا علما، ونعوذ به وحده أن نفتري عليه الكذب أو نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع البصير – آمين.

أما بعد،

القضية الأولى: واجنبني وبني أن نعبد الأصنام

لو تدبرنا قصة إسكان إبراهيم جزء من ذريته عند بيت الله المحرم، لوجدناها قد جاءت مصاحبة لدعوة إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام، وذلك لأن هذه الأصنام كانت هي السبب في ضلال كثير من الناس، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 35-37]

وهنا نتوقف لنطرح كثيرا من التساؤلات التي هي - برأينا - مثيرة فعلا للتفكير، نذكر منها:

- ⇐ لماذا دعا إبراهيم ربه أن يجنبه هو شخصيا عبادة الأصنام في هذا المقام؟
- ⇐ ألم يكن إبراهيم هو أول من ثار على عبادة قومه للأصنام من ذي قبل؟
- ⇐ ألم يكن إبراهيم هو من جعل أصنام قومه جذاذا من ذي قبل؟
- ⇐ ألم يكن فِعلُ إبراهيم هذا هو السبب الذي جعل قومه يوقعون به أشد العذاب الذي يستطيعونه حينئذ؟
- ⇐ ألم يكن الله هو من نجا إبراهيم من عذاب قومه نتيجة ثورته على عبادة قومه للأصنام؟
- ⇐ فكيف إذن بإبراهيم يعود بعد هذا كله ليطلب من ربه أن يجنبه هو شخصيا عبادة الأصنام؟
- ⇐ ألا يمكن أن نستدل من ذلك أن إبراهيم قد خشي على نفسه عبادة الأصنام فعلا؟
- ⇐ فهل كان من المحتمل أن ينكص إبراهيم على عقبيه فيعود إلى عبادة الأصنام كما كان قومه يفعلون من قبل؟
- ⇐ وإذا كانت هناك احتمالية (ولو قليلة) أن يعود إبراهيم نفسه إلى عبادة الأصنام، فهل كان هذا ممكن لبنيه؟
- ⇐ وكيف يمكن أن تقع ذرية إبراهيم من بعده في هذا المطب؟
- ⇐ فهل يمكن لهذه الأصنام (إن كانت فعلا حجارة لا تسمن ولا تغني من جوع كما صوروها لنا في كتب التراث) أن تسبب الضلال لإبراهيم نفسه ولمن هم من ذرية هذا النبي الرسول العظيم؟
- ⇐ ولماذا دعا إبراهيم ربه أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام هنا بالذات عندما أسكن بعضا منهم في هذا الواد غير ذي الزرع؟
- ⇐ لِم لَم يدع إبراهيم ربه بمثل هذا الدعاء عند ذريته الذين تركهم هناك في الأرض المقدسة؟
- ⇐ الخ.

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن إبراهيم لم يدع ربه بمثل هذا الدعاء في الأرض المقدسة (بيت المقدس) لأن عبادة الأصنام غير ممكنه هناك. ولكن إبراهيم دعا ربه هنا في الواد غير ذي الزرع أن يجنبه وبنيه عبادة الأصنام وذلك لأنّ عبادة الأصنام هنا (نحن نفتري الظن) ممكنة.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك بسيط جدا، وهو- برأينا - على النحو المفترى من عند أنفسنا التالي: من أجل أن تعبد الأصنام، فلابد من وجودها، أي لابد لمن أراد أن يعبد الأصنام أن يتوافر له شيء من هذه الأصنام.

السؤال: ما علاقة هذا بعبادة الأصنام في الأرض المقدسة مقابل عبادتها في الواد غير ذي الزرع؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن عبادة الأصنام في الأرض المقدسة (بيت المقدس) غير ممكنة لعدم توافر الأصنام هناك. أما عبادة الأصنام في أرض الواد غير ذي الزرع (البيت العتيق) ممكنة لأن الأصنام متوافرة فيها. انتهى.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى: لأن الأرض المقدسة تخلو من توافر الأصنام فيها بينما تتواجد الأصنام في البيت العتيق؟

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على مثل هذا التساؤل تتطلب معرفة ماهية الأصنام التي تُعبد. فبداية يجب التخلي عن الفكرة الشعبية التي مفادها أن الأصنام عبارة عن حجارة صماء لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي – برأينا- آلهة من دون الله بدليل أن إبراهيم قد خشي على نفسه وعلى بنيه (وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الأَصْنَامَ) أن يقعوا فريسة لها لأنها فعل يمكن أن تضلهم كما أضلت كثيرا من الناس (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ). فحتى تصبح تلك الحجارة الصماء أصناما (آلهة)، فلابد أن تكمن فيها القدرة على أن تضل شخصا بمواصفات إبراهيم نفسه أو أبناءه من بعده. لذا نحن نستنبط الظن (ربما مخطئين) أن الحجارة (التي نعرفها) لا تصبح أصناما إلا عندما يكون مكنونا فيها من القدرة على ضلالة الناس:

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 35-37]

فلو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لوجدنا أن صريح اللفظ يبين لنا بأن الأصنام هي نفسها من أوقعت كثيرا من الناس في الضلالة (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ)، لذا نحن لا نتردد أن نكرر الاستنباط بأن الحجارة (التي نعرفها) لا تصبح أصناما إلا إن كانت قادرة على إحداث الضلالة للناس.

ويقودنا مثل هذا الافتراء إلى الظن بأن الأرض المقدسة تخلو من مثل هذه الحجارة (التي هي فعلا أصناما)، بينما تتوافر هذه الحجارة (التي هي فعلا أصناما) في أرض البيت الحرام.

السؤال: وأين هي الحجارة (التي هي فعلا أصناما) في البيت الحرام.

جواب مفترى: نحن نظن أن الأصنام هي الحجارة التي تكون مؤهلة لأن يعكف عليها الناس. انتهى.

الدليل

دعنا نعود إلى قصة إبراهيم منذ البداية، فهذا إبراهيم يبادر قومه بالتساؤل التالي:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢﴾ [الأنبياء: 52]

فإبراهيم ينظر بداية إلى هذه الحجارة على أساس أنها تماثيل، ولكن ردة فعل القوم كانت على النحو التالي:

- ﴿قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣﴾ [الأنبياء: 53]

وهنا لا يتردد إبراهيم بأن يتوعد (بالكيد) هذه التماثيل التي أصبح يصفها إبراهيم نفسه على أنها أصناما:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٥٤ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ۝٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ۝٥٦ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ۝٥٧﴾ [الأنبياء: 52-57]

نتيجة مفتراة (1): وصفت الحجارة الصماء مرة على أنها تماثيل

نتيجة مفتراة (2): وصفت الحجارة الصماء مرة أخرى على أنها أصناما.

السؤال: ما الفرق بين التماثيل والأصنام إذن؟

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن الهدف هو الاعتكاف، فلا ضير أن تسمى هذه الحجارة تماثيل. ولكن ما أن يصبح الهدف هو العبادة حتى تصبح أصناما.

نتيجة مفتراة (1): التمثال هو حجر موجود من أجل الاعتكاف

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: 52]

نتيجة مفتراة (2): الأصنام هو حجر موجودة من أجل العبادة

- ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: 71]

السؤال: هل يوجد هناك في أرض البيت العتيق تماثيل يمكن العكوف عليها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم

السؤال: هل يوجد هناك في أرض البيت العتيق أصنام قد عبدت؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا.

السؤال: ما هي التماثيل التي تتواجد في أرض البيت الحرام؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نظن أن التماثيل التي تتوافر في أرض البيت الحرام هي الحجارة التي يعكف عليها الناس هناك.

السؤال: على ماذا يعكف الناس في تلك الأرض (البيت العتيق)؟

جواب مفترى: نحن نظن أن الناس تعكف هناك على التمثال الموجود في تلك الأرض وهو البيت العتيق. فالبيت العتيق هو – برأينا- التمثال الأكبر في تلك الأرض. انتهى.

تلخيص ما سبق: هناك في تلك الأرض يقع أول بيت وضع الناس، فكان عبارة عن حجارة، لكنها حجارة ذات سر عظيم، فلو عمد الناس على عبادتها هي بذاتها، لأصبحت صنما، ولكن لما كان الناس يعكفون على ذلك البيت (كحجارة)، ولا يعبدونها (كصنم)، كان البيت العتيق عبارة عن تمثال، فأصبح ملاذا للعاكفين، قال تعالى:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾﴾ [البقرة: 125]

فالمتدبر للنص القرآني يجد أن الله هو من طلب من نبيه إبراهيم أن يطهر بيته (أي البيت العتيق) للعاكفين.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: البيت العتيق هو عبارة عن تمثال يحق للناس العكوف عليه، لأن فيه (نحن نرى) من السر العجيب الذي يجعل الناس يعبدونه لو أنهم اتخذوه صنما. انتهى.

السؤال: ما هو السر الموجود في البيت الحرام الذي كان من الممكن أن يتخذه الناس صنما، فيعبدونه من دون الله، لأنه لا شك يفعل لهم الأعاجيب لو أنهم فعلا فهموا السر المكنون فيه؟

إن هذا السؤال: ينقلنا فورا إلى الباب الثاني من هذه المقالة وهو باب السقف المرفوع.

القضية الثانية: باب السقف المرفوع وإسقاط السماء كسفا (البلد الآمن)

دعنا نحاول تدبر الآية الكريمة التالية:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92]

فلو حاولنا جلب هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أنها قد وردت في سياق الحديث عن الخطاب الذي دار بين محمد من جهة وقومه من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 89-92]

إن أكثر ما يهمنا في هذا الطرح هو التساؤل التالي: لماذا طلب قوم محمد على وجه التحديد أن يسقط السماء عليهم كسفا؟ وهل فعلا جاء هذا الطلب من قبل قوم آخرين لرسولهم غير قوم محمد لمحمد؟

جواب مفترى: إن ما تكاد تطير له الألباب (حسب فهمنا للنص القرآني) أن هذا الطلب (أي إسقاط السماء كسفا) لم يأت إلا (1) من قوم محمد (وهم من كانوا يسكنون الواد غير ذي الزرع) و (2) من قوم شعيب (أصحاب الأيكة)، وهم من ظننا أيضا أنهم يسكنون أرض الواد غير ذي الزرع:

- ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ

ﭐلۡأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسۡقِطۡ عَلَيۡنَا كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧﴾ [الشعراء: 176-187]

(للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من هذه المقالة خاصة ما يتعلق بمعنى الأيكة)

السؤال: لِم لَم يأت مثل هذا الطلب إلا على لسان قوم شعيب (أصحاب الأيكة) ومن قوم محمد فقط؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن محمد وشعيب (من بين جميع رسل الله) هم من كانا يملكان إمكانية أن يسقطا السماء على قومهما كسفا.

السؤال: لماذا لم تكن الإمكانية متوافرة لإسقاط السماء على القوم كسفا عند الرسل الآخرين؟ ولماذا كان محمد وشعيب (على وجه التحديد) يستطيعان ذلك؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن محمدا وشعيبا (على وجه التحديد) كانا يتوافر لهما إمكانية إسقاط السماء على قومهما كسفا لأنهما كانا يملكان الأدوات اللازمة لإسقاط السماء كسفا.

الدليل

دقق عزيزي القارئ – إن شئت – في الآية الكريمة نفسها، قال تعالى:

- ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92]

السؤال: هل جاء طلب هؤلاء القوم على هذا النحو من فراغ؟ ألا ترى - عزيزي القارئ - أن الآية الكريمة ترشدنا إلى الظن بأن محمدا قد أخبر قومه بأنه يستطيع هو بنفسه أن يسقط السماء كسفا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفهم (ربما مخطئين) هذه الآية الكريمة على النحو التالي: حصلت المواجهة بين محمد وقومه، وكانت واحدة من الآيات التي أخبر محمد قومه لإثبات صدق دعوته هي قوله لهم بأنه يستطيع أن يسقط السماء كسفا. وهنا جاء دور قومه المجادلون في آيات الله، الذين يتحينون كل فرصة لإثبات بطلان دعوة نبيهم، فطلبوا من محمد تنفيذ قوله لهم (بأنه يستطيع أن يسقط السماء كما زعم) عليهم كسفا حتى يؤمنوا بالرسالة التي جاءهم (كرسول) بها.

ولعل الدقة تتطلب (نحن نرى) أن نتدبر ترتيب المفردات خاصة موقع مفردة (عَلَيۡنَا) في هذه الآية الكريمة قيد البحث، لنسأل بناء على ذلك التساؤل التالي: لم وردت هذه المفردة بعد عبارة (كَمَا زَعَمۡتَ)؟

- ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا أَوۡ تَأۡتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ٩٢﴾ [الإسراء: 92]

ولم لم تأت سابقة لهذه العبارة (كَمَا زَعَمْتَ) على النحو التالي؟

أو تسقط السماء علينا كما زعمت كسفا

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نتخيل أن محمدا قد أوصل لهم الرسالة التي مفادها أنه يستطيع أن يسقط السماء كسفا وكفى. لذا جاءت عبارة (كَمَا زَعَمْتَ) سابقة لمفردة علينا، ومن هنا جاء طلب القوم (نحن نتخيل) برهان ذلك (أي إسقاط السماء كما زعم) عليهم، فجاءت عبارة (عَلَيْنَا) لاحقة لعبارة (كَمَا زَعَمْتَ):

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 92]

ولم يأت النص القرآني على نحو:

أو تسقط السماء علينا كما زعمت كسفا

فلو جاء الطلب على هذا النحو، لظننا بأن محمدا قد توعدهم بأن يسقط السماء عليهم كسفا. ولربما حق لنا أن نفهم الكلام على أنه يقع في باب التهديد. لذا نحن نتجرأ على القول بأن محمدا لم يهدد قومه بإسقاط السماء عليهم، ولكنه أخبرهم فقط بالاستطاعة المتوافرة عنده بأنه يستطيع أن يسقط السماء، فكان ذلك (نحن نفهم) من باب الإخبار وليس من باب التهديد، فحاول القوم (نحن نتخيل) حينئذ استغلال هذه المعلومة التي أخبرهم بها محمد لإثبات أن قوله لهم ليس أكثر من زعم من محمد نفسه، فطلبوا منه برهان ذلك بإسقاط السماء (أي الاستطاعة المتوافرة عنده) عليهم:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 92]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (1): نحن نفهم الآية إذن على نحو أن محمدا قد أخبر قومه بالاستطاعة المتوافرة عنده لإسقاط السماء (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ)

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا (2): طلب القوم من محمد برهان استطاعته تلك بإسقاط السماء عليهم كسفا (أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاء كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا)

ولو حاولنا تدبّر الآية الكريمة نفسها أكثر، لوجدنا بأن القوم يتجرؤون على طلبين اثنين (يكادان يكونان من قبيل عمل المستحيل بالنسبة للعقل البشري العادي)، وهما:

1. إسقاط السماء عليهم كسفا

2. الإتيان بالله والملائكة قبيلا

ولكن لو دققنا أكثر في نص الآية الكريمة، لوجدنا أن الطلب الأول كان يتخلله قولهم له (كما زعمت):

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92]

لكن لا نجد مثل هذه العبارة (كَمَا زَعَمْتَ) في الطلب الآخر وهو الإتيان بالله والملائكة قبيلا. ونحن نفهم الموقف على النحو التالي: كان طلبهم الخاص بإسقاط السماء عليهم كسفا هو – برأيهم- من باب ما كان محمد قد زعمه (أي قاله لهم بنفسه)، فقالوا:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92]

فمحمد إذن (نحن نفهم) قد قال لهم ذلك، لكنهم فهموه على أنه ليس أكثر من كلام مزعوم، يستحيل تنفيذه على أرض الواقع. فلقد ظن القوم أن ما قاله لهم محمد من هذا الباب هو كلام مبالغ فيه، ربما (بالنسبة لهم) غير قابل للتنفيذ، ولكي يستغلوا الموقف لصالحهم، فقد جاء تحديهم له بأن ينفذ ذلك على أرض الواقع (أي عليهم)، ليثبت لهم صدق دعواه، ومن ثم صدق رسالته.

السؤال: لماذا قال لهم محمد أنه يستطيع أن يسقط عليهم السماء كسفا؟ هل كان فعلا يبالغ فيما قال؟ وهل كان فعلا كلاما مزعوما (كما ظنوا) فلا يستطيع محمد تنفيذه على أرض الواقع؟

جواب: كلا وألف كلا، لقد كان محمد يستطيع أن ينفذ ذلك، فيسقط السماء عليهم كسفا.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لأن محمدا (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) كان يملك أدوات إسقاط السماء كسفا. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟ وهل فعلا يمكن أن تسقط السماء كسفا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا: نحن نفتري القول أن هناك إمكانية أن تسقط السماء كسفا.

السؤال: وأين الدليل على ذلك؟

رأينا المفترى: دعنا بداية نتدبر معنى مفردة " تُسْقِطَ" التي ترد في الآية الكريمة نفسها:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾﴾ [الإسراء: 92]

السؤال: ما معنى مفردة (تُسْقِطَ)؟

جواب مفترى: لو تتبعنا هذه المفردة ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، لوجدناها قد وردت في السياقات التالية:

- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾ [الأنعام: 59]
- ﴿وَٱتَّخَذَ قَوۡمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِنۡ حُلِيِّهِمۡ عِجۡلٗا جَسَدٗا لَّهُۥ خُوَارٌۚ أَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمۡ وَلَا يَهۡدِيهِمۡ سَبِيلًاۘ ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُواْ ظَٰلِمِينَ ١٤٨ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيۡدِيهِمۡ وَرَأَوۡاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمۡ يَرۡحَمۡنَا رَبُّنَا وَيَغۡفِرۡ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ١٤٩﴾ [الأعراف: 148-149]
- ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٤٩﴾ [التوبة: 49]
- ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩﴾ [سبأ: 9]

السؤال مرة أخرى: ما هو السقوط إذن؟ وكيف يمكن أن تسقط السماء؟

رأينا المفترى: نحن نطلب منك - عزيزي القارئ- أن تحاول أن تتصور كيفية سقوط الورق عن الشجرة (وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ)، فهل يمكن أن نصف هذا المشهد باستخدام فعل الوقوع، كأن نقول مثلا "وقعت الورقة عن الشجرة"؟

جواب مفترى: أنا شخصيا استبعد احتمالية الرضا بمثل هذا الوصف، فالورقة لا تقع وقوعا وإنما تسقط سقوطا. انتهى.

السؤال: ما الفرق؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأنه بالإضافة إلى أن السماء يمكن أن تسقط كسفا كما جاء في أكثر من سياق قرآني، إلا أن السماء كلها يمكن أن تقع وقوعا كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: 65]

لنخرج من هذا النقاش بالاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا التالية عن ورق الشجر:

افتراء (1): الورق يسقط عن الشجرة سقوطا

افتراء (2): الورق لا يقع عن الشجرة وقوعا

لكن بالمقابل، نحن نفتري ما يلي فيما يخص السماء:

افتراء (3): يمكن للسماء أن تُسقط كسفا

افتراء (4): يمكن للسماء أن تقع وقوعا

السؤال: ما الفرق بين أن تقع السماء أو أن تسقط السماء كسفا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن فعل الوقوع (إذا ما حصل) فإنه يحدث مرة واحدة، دفعة (جملة) واحدة، وبشكل سريع جدا. أما السقوط فلا يحدث دفعة واحدة، ولا يحدث مرة واحدة، ولا يحدث بشكل سريع.

الدليل

نحن نفتري القول بأن لساننا العربي يجيز لنا أن نقول "سقطت الطائرة" مثلا، لكنه لا يجيز لنا أن نقول "وقعت الطائرة". ليكون السؤال المبدئي هو: لماذا؟ أي لماذا تسقط الطائرة سقوطا ولا تقع وقوعا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: عندما نقول بأن الطائرة مثلا قد سقطت، فهذا يعني أن سقوطها قد حصل من ارتفاع، ولكنها (أي الطائرة) لا تصل إلى الأرض كتلة واحدة، فهي تتفتت في جو السماء قبل أن تصل أجزاؤها المتناثرة إلى الأرض شيئا فشيئا، فسقوطها إذن يشبه سقوط الأوراق عن الشجر. فورق الشجر يتطاير في جو السماء شيئا فشيئا حتى يصل إلى الأرض متناثرا هنا وهناك، ففعل السقوط يحدث بشكل بطيء ويؤدي إلى تفتت الكتلة كلها، فتصل أجزاؤها متناثرة على الأرض. ونحن نفتري الظن بأنه لو أن هناك احتمالية بأن تقع الطائرة وقوعا، لوصلت كلها – برأينا- جملة واحدة إلى الأرض. وهذا أقرب إلى المستحيل، لذا فالطائرة تسقط ولا تقع.

السؤال: ماذا عن السماء؟

جواب: نحن نفتري الظن بأن السماء يمكن أن تقع وقوعا كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٦٥﴾ [الحج: 65]

كما يمكن أن تسقط سقوطا كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿أَفَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَىٰ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِن نَّشَأۡ نَخۡسِفۡ بِهِمُ ٱلۡأَرۡضَ أَوۡ نُسۡقِطۡ عَلَيۡهِمۡ كِسَفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ لِّكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ ٩﴾ [سبأ: 9]

السؤال: ما الفرق إذن بين سقوط السماء ووقوع السماء؟

رأينا: لو تدبرنا جميع السياقات الخاصة بسقوط السماء، لوجدناها على نحو أنها تسقط كسفا، قال تعالى:

- ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 92]
- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء: 187]
- ﴿أَفَلَمْ يَرَوْاْ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾ [سبأ: 9]
- ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: 44]

السؤال: ما معنى كسفا إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن كسفا تعني (كما نفهمها طبعا) أجزاء متقطعة غير متصلة، وليس أدل على ذلك من صورة السحاب المركوم:

- ﴿وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤﴾ [الطور: 44]

تخيلات مفتراة: لو سقطت السماء كسفا، لرأيناها كما نرى السحاب المركوم الذي يكون عبارة عن كتل متقطعة منفصلة عن بعضه البعض. لكن ماذا لو أن السماء وقعت على الأرض وقوعا؟

جواب مفترى: نحن نظن أنه لو وقعت السماء على الأرض، لوصلت إلى الأرض كلها جملة واحدة، مرة واحدة.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ليس هناك قدرة لأحد غير الله وحده أن يجعل السماء تقع وقوعا على الأرض، وذلك لأن الله (نحن نفتري القول) هو الذي يمسكها أن تقع على الأرض، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٦٥﴾ [الحج: 65]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: مادام أن الله هو وحده من يمسك السماء، فلا يمكن أن تقع إلا بإذنه (وَيُمْسِكُ السَّمَاء أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ). انتهى.

السؤال: ماذا عن إسقاط السماء كسفا؟ فهل هذا ممكن لأحد غير الله؟

جواب مفترى: نعم، نحن نظن أن هناك احتمالية إسقاط السماء كسفا، وأن هذا ممكنا لغير الله، بدليل ما طلبه القوم من شعيب:

- ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ۝١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ۝١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ۝١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۝١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧﴾ [الشعراء: 176-187]

وبدليل ما طلبه القوم من محمد:

- ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾ [الإسراء: 90-92]

السؤال: ما الفرق بين ما يمكن أن يقوم به الله وما يمكن أن يقوم به بشر مثل شعيب ومحمد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه لو شاء الله لجعل السماء كلها تقع على الأرض وقوعا مرة واحدة، جملة واحدة. فالله هو وحده من يمسك السماء والأرض أن تزولا كليا، فلا أحد غيره قادر بعد ذلك على أن يمسكهما إن زالتا:

- ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ۝٤١﴾ [فاطر: 41]

لكن ما يستطيع البشر (كشعيب أو كمحمد) فعله فلا يتعدى (نحن نرى) إمكانية إسقاط السماء كسفا، أي أن تسقط هذه الكينونة مجزئة شيئا فشيئا، فلا يؤدي ذلك إلى زوال السماء.

السؤال: ما هي أدوات إمساك السماء أن تقع؟

جواب مفترى: يد الله

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ۝٤٧﴾ [الذاريات: 47]

السؤال: ما هي أدوات إمساك السماء أن تسقط كسفا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نظن أن ما يمسك السماء أن تسقط كسفا هو الأساس (foundation) التي بنيت عليه القواعد من البيت:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

فنحن نظن (ربما مخطئين) بأن مكان البيت الذي بوأه الله لإبراهيم هو الأساس الذي يمسك السماء أن تسقط سقوطا. انتهى.

الدليل

من أجل جلب الدليل على مثل هذا الافتراء الذي نظن أنه من الخطورة بمكان أن يقلب موازين التفكير، علينا أن نخرج في استراحة قصيرة لنتدبر ما جاء في السورة الكريمة التالية التي تتحدث عن قصة أصحاب الفيل، قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [الفيل: 1-5]

باب قصة أصحاب الفيل

حاول عزيزي القارئ – إن شئت- أن تتوقف لساعات قليلة لنتدبر معا هذه الآيات الكريمة بعيدا عن الصورة الذهنية التي رسمت في مخيالك بسبب ما وصلك من عند سادتنا أهل الدراية كما نقله لنا هل الرواية عنهم في بطون كتب التراث عن هذه الآيات الكريمة، فدعنا نحاول نضع القصص الشعبية (التي هي برأينا أبعد ما تكون عن الحقيقة التي تسطرها آيات الكتاب الكريم) جانبا لفترة قصيرة من الزمن، ومن ثم محاولة تقديم فهما جديدا مفترى من عند أنفسنا عن القصة نفسها، وسنترك لك حرية الاختيار بعد ذلك بين ما سطره أهل الدراية من علم وما نحاول نحن افتراءه من "تخريصات" ربما تكون من نسج خيالنا. فلك أن تتمسك بإرث الآباء (وهو ما لا نلومك عليه) أو أن تأخذ بآرائنا الجديدة (وهو ما لا ننصحك كثيرا به).

أما بعد،

دعنا ننطلق في النقاش هنا بطرح التساؤلات التالية حول الآيات الكريمة التي وردت في هذه السورة العظيمة:

- ⇐ من هم أصحاب الفيل؟
- ⇐ لماذا جعل الله كيدهم في تضليل؟
- ⇐ كيف جعل الله كيدهم في تضليل؟
- ⇐ لماذا أرسل الله عليهم طيرا أبابيل؟
- ⇐ ما هي تلك الطير الأبابيل التي أرسلت عليهم؟
- ⇐ كيف رمتهم تلك الطير بحجارة من سجيل؟
- ⇐ ما هي أصلا تلك الحجارة التي هي من سجيل؟
- ⇐ وما هو سجيل أصلا؟
- ⇐ كيف جعلتهم كعصف مأكول؟

⇐ ما هو أصلا العصف المأكول؟
⇐ الخ.

إن غايتنا من طرح مثل هذه التساؤلات (في محاولة منا لفهم هذه الآيات الكريمة) ربما تتبلور أكثر بعد مناقشة التساؤل المحوري التالي: لماذا أرسل الله على هؤلاء القوم (على وجه التحديد) جنوده (الطير الأبابيل)؟

جواب مقترح: ربما يرد القارئ الكريم على سؤالنا هذا بالقول المعهود وهو أن هؤلاء القوم قد حاولوا الاعتداء على بيت الله الحرام. ومادام أن للبيت رب يحميه (كما جاء على لسان جد النبي الكريم عبد المطلب كما تروي كتب التراث)، فلا بد إذن من تدخل الإله بنفسه لحماية بيته من اعتداء القوم، أليس كذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن هذا الفهم غير دقيق، وذلك لأن الاعتداء على البيت قد حصل أكثر من مرة في مراحل زمنية متعاقبة، لكن مع ذلك لم يحصل التدخل الإلهي المباشر في كل مرة حاولت مجموعة من الناس الاعتداء على هذا البيت. فنحن نقرأ في كتب التراث أنه خلال فترة صدر الإسلام الأولى مثلا قام الحجاج بن يوسف بهدم البيت عندما تصدى عبد الله بن الزبير لدولة بني أمية في مكة، كما نقرأ في بعض كتب التراث أن القرامطة مثلا قد سرقوا الحجر الأسود ونقلوه إلى البحرين فترة طويلة من الزمن قبل أن تتمكن الدولة الإسلامية حينئذ من إرجاعه إلى موطنه الأصلي. ولا شك عندنا أن محاولات اعتداء عديدة أخرى قد وقعت على البيت في الفترات الزمنية المتعاقبة، وهنا بالضبط نتوقف على الفور لنطرح التساؤل المثير التالي: لماذا لم يتدخل الإله (كأن يرسل الطير الأبابيل) في كل مرة يحصل فيها اعتداء على بيته؟ من يدري؟!

السؤال بطريقة أخرى: ماذا لو قام نفر من الناس (هذه الأيام) بالاعتداء على البيت، فهل سيتدخل الإله بنفسه فيرسل عليهم جنده (كالطير الأبابيل مثلا) لصد الخطر الداهم على البيت كما فعل مع أصحاب الفيل؟!

جواب مفترى من عند أنفسنا: كلا وألف كلا. ذلك لن يحصل.

السؤال: لماذا إذن حصل تدخل الإله في قصة أصحاب الفيل فقط؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما قام به أصحاب الفيل يقع في نطاق الفعل الذي يستدعي التدخل الإلهي المباشر، بينما ما قامت به الأقوام الأخرى في الفترات الزمنية المتعاقبة من اعتداءات على البيت لا يؤدي إلى التدخل الإلهي المباشر.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لو دققنا في قصة إبراهيم نفسه، لوجدنا بأن إبراهيم يرفع القواعد من البيت، أليس كذلك؟

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾ [البقرة: 127]

السؤال: إذا كان إبراهيم قد رفع مع ولده إسماعيل القواعد من البيت، فهل كان البيت حينئذ قائما؟ ألا نستطيع أن نستنبط أن البيت أصلا قد كان مهدما من قبل أن يعمد إبراهيم مع ولده إسماعيل على رفع القواعد منه؟ هل تدخل الإله ليحمي بيته من قبل ذلك حتى لا يتم هدم البيت وحتى يصل إلى إبراهيم وكل البشرية من بعده قائما؟ ألم يبوء الله لإبراهيم مكان البيت فقط؟

- ﴿وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ٢٦﴾ [الحج: 26]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: عندما بوأ الله لإبراهيم مكان البيت، لم يكن البيت (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) قائما. لذا نحن نتجرأ على طرح التساؤل التالي: لماذا لم يكن البيت قائما على الدوام؟ ولماذا لم يتدخل الإله بنفسه لحماية بيته حتى يبقى قائما في كل وقت وحين؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن هدم البيت ممكنا في كل وقت وحين، وأن هذا الفعل (أي هدم البيت) لا يؤدي إلى التدخل الإلهي المباشر. لكن يبقى التساؤل المثير قائما: لماذا حصل التدخل الإلهي المباشر في قصة أصحاب الفيل على وجه التحديد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن ما تجرأ عليه أصحاب الفيل لم يكن من قبيل هدم البيت وكفى، فهم قد تجرؤوا على ما هو أكثر من ذلك، حتى استحق التدخل الإلهي المباشر.

السؤال: ما الذي فعله أصحاب الفيل على وجه التحديد حتى تطلب الأمر أن يتدخل الإله بنفسه لصد خطرهم عن البيت.

جواب مفترى خطير جدا جدا: إنه الكيد، قال تعالى:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ ٥﴾ [الفيل: 1-5]

لو تدبرت عزيزي القارئ هذه الآيات الكريمة نفسها، لبان لك على الفور أن هؤلاء القوم قد كان لهم كيد، وأن الله هو من صد كيدهم، فجعله في تضليل (أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ). لنخرج من هذا النقاش بالفكرة المحورية التالية: كان سبب التدخل الإلهي المباشر ضد أصحاب الفيل مدفوعا أصلا بكيد هؤلاء القوم. ليكون السؤال الآن هو: ما هو كيد هؤلاء القوم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أنه مادام أن هؤلاء القوم قد كانوا ذا كيد، فإن الله وحده هو القادر على صد خطرهم، قال تعالى:

- ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: 15-17]

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدناها مصاحبة لذكر السماء (ذات الرجع) والأرض (ذات الصدع)، قال تعالى:

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ ١١ وَٱلۡأَرۡضِ ذَاتِ ٱلصَّدۡعِ ١٢ إِنَّهُۥ لَقَوۡلٞ فَصۡلٞ ١٣ وَمَا هُوَ بِٱلۡهَزۡلِ ١٤ إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا ١٦ فَمَهِّلِ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَمۡهِلۡهُمۡ رُوَيۡدَۢا ١٧﴾ [الطارق: 11-17]

ليكون سؤالنا الآن هو: لماذا ارتبط كيد الكافرين (الذي لا يمكن أن يصده إلا كيد رب العالمين) مع كينونتي السماء (ذات الرجع) والأرض (ذات الصدع)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن أصحاب الفيل (وهم أصحاب كيد) قد جاءوا إلى البيت من أجل غاية محددة بذاتها. فالهدف ليس فقط هدم حجارة البيت، لأن هذا الفعل قد فعله أقوام أخرى غيرهم ولم يجر عليهم العقاب الإلهي المباشر. فما يميز اعتداء أصحاب الفيل على البيت عن الاعتداءات الأخرى هو وجود الكيد عند هؤلاء القوم على وجه التحديد، لتكون النتيجة المفتراة من عند أنفسنا هي الآن على النحو التالي: لا شك – عندنا- أن في جعبة أصحاب الفيل كيد (أي هدف غير معلن) أكبر بكثير من مجرد هدم حجارة البيت العتيق. انتهى.

السؤال: ماذا كان كيد أصحاب الفيل (أي هدفهم غير المعلن صراحة) عندما قدموا إلى البيت العتيق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا خطير جدا جدا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نفتري القول بأن كيد أصحاب الفيل كان يتعلق بزلزلة أركان السماء والأرض. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن أصحاب الفيل قد قدموا إلى البيت في مهمة خطيرة وفريدة من نوعها، وهي – برأينا- العمل على التلاعب بميزان السماء والأرض، وبكلمات أكثر دقة نحن نفتري الظن بأن أصحاب الفيل كانوا يخططون لإسقاط السماء كسفا (أي السماء ذات الرجع) وتغيير التوازن في الأرض (ذات الصدع).وهذا عمل لا يستطيع أحد أن يتصدى له إلا رب السموات والأرض، فاستدعى الأمر حينئذ التدخل الإلهي المباشر، فأرسل عليهم جنوده من الطير الأبابيل التي رمتهم بحجارة من سجيل، فجعلتهم كعصف مأكول.

الدليل

لو تدبرنا الآيات الكريمة التي تصور لنا ماهية الكيد، لوجدنا قصة يوسف حاضرة على الفور، فلقد كان إخوة يوسف هم أول من عمدوا إلى الكيد بأخيهم:

- ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقۡصُصۡ رُءۡيَاكَ عَلَىٰٓ إِخۡوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيۡدًاۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لِلۡإِنسَٰنِ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٥﴾ [يوسف: 5]

ولعل تحذير يعقوب ليوسف من كيد إخوته كان له علاقة مباشرة بالرؤيا التي راءاها يوسف:

- ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥﴾ [يوسف: 4-5]

فلو قص يوسف على إخوته رؤياه هذه، لكانت النتيجة الحتمية هي كيد إخوته له (قَالَ يَا بُنَيَّ لاَ تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُواْ لَكَ كَيْدًا).

ولو تابعنا تفصيل القصة نفسها، لوجدنا أن نسوة المدينة قد كدن أيضا بيوسف:

- ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ۝٢٨﴾ [يوسف: 28]
- ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٣ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ [يوسف: 33-34]

وسنرى لاحقا عند متابعة النقاش في قصة يوسف بحول الله وتوفيق منه كيف أنه لو حصل النسوة على ما أردن، ولو فعلا نفذ كيدهن العظيم، لتغيرت موازيين الأرض كلها. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير – آمين.

ولو تدبرنا قصة موسى مع فرعون، لوجدنا أن فرعون قد جمع كيده ثم أتى:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ [طه: 60-62]
- ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾ [طه: 64]

وسنرى لاحقا عند متابعة النقاش في قصة موسى مع فرعون بحول الله وتوفيق منه كيف أنه لو فعلا نفذ كيد فرعون، هن العظيم، لتغيرت موازيين الأرض كلها. فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع البصير – آمين

نتيجة مفتراة (1): إن أول موجبات الكيد هو عدم التصريح علانية بالهدف المنشود. فإخوة يوسف سيكيدون له، لكنهم لم يعلنوا ذلك صراحة، وكذلك كان النسوة غير معلن. فبالرغم من توافر الهدف المبطن عندهن إلا أنهن لم يعلن ذلك صراحة على الملأ. وكذلك كان كيد فرعون، فمن كان له كيد فلابد أن يكون ممن يسرون النجوى، وانظر عزيزي القارئ في الآية الكريمة السابقة مرة أخرى من هذا الجانب:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَىٰ ۝٦٢﴾ [طه: 60-62]

فمن كان له كيد، فإنه يدبر الأمر إذن بسرية مطلقة، تتطلب التخطيط الخفي من أجل تحقيق الهدف غير المعلن (الكيد).

نتيجة مفتراة (2): نحن نظن أن واحدة من مقومات الكيد هو الاستعلاء، فمن دبر الكيد ضد خصمه، فهو لا شك ممن ينشدون الاستعلاء، فامرأة العزيز تقول ذلك بصريح اللفظ، فهي من تريد العلو مقابل من دبرت ضده الكيد (أي يوسف)، ليكون من الصاغرين:

- ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ۝٣٢﴾ [يوسف: 32]

ولو تدبرنا قصة فرعون نفسه، لوجدنا أن الكيد حاضر فيها بشكل جلي ومرتبط بشكل مباشر مع الاستعلاء في الأرض:

- ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠﴾ [طه: 60]
- ﴿فَأَجْمِعُوا۟ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُوا۟ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ۝٦٤﴾ [طه: 64]

ولو دققنا في تفاصيل كيد فرعون، لوجدنا قصة الصرح حاضرة:

- ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ۝٣٧﴾ [غافر: 36-37]

فبناء الصرح كان برأينا واحدة من أدوات الكيد الذي يكون غايته الاستعلاء في الأرض، فهذه الآيات الكريمة (كما نفهمها) تبين لنا بأن كيد فرعون قد وصل إلى أسباب السموات والأرض، فمشكلة فرعون الحقيقة هي مع رب السموات والأرض، فهو إذن يريد أن يصل أسباب السموات والأرض ليطلع إلى إله موسى.

ولو دققنا في السياق القرآني التالي، لوجدنا أن الكيد حاضر عند كل من كانت هذه غايته:

- ﴿مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ۝١٥﴾ [الحج: 15]

لذا، نحن نتجرأ على استنباط القول بأن الكيد موجه بالدرجة الأولى ضد رب السموات والأرض، لذا فإن القادر على صده هو الإله نفسه:

- ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ [الطارق: 16-15]

فمن كاد ليوسف مثلا، فهم إذن من احتجوا على الحكمة الإلهي التي آثرت يوسف عليهم:

- ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91]

فكان إخوة يوسف (وهم من كادوا له) إذن من الخاطئين. وكانت امرأة العزيز من الخاطئين لأنها لا شك لم ترض بالحكمة الإلهية من امتناع يوسف عن الوقوع معها في فعل الفاحشة:

- ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ۚ وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29]

ولو رجعنا إلى قصة إبراهيم مع قومه، لوجدنا الكيد فيها حاضرا أيضا:

- ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: 57-52]
- ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنبياء: 71-68]

فإبراهيم يكيد بآلهتهم، وهم بالمقابل يريدون به كيدا، لذا نحن نتجرأ على تقديم الافتراء الخطير جدا التالي الذي هو لا شك من عند أنفسنا: نحن نظن أن الكيد موجه في الأساس ضد الإله نفسه، فهو إذن صراع آلهة. ومادام الأمر على هذه الشاكلة، فإن المنتصر هو في النهاية الإله الأوحد رب العالمين، وذلك لأن كيده لا محالة متين:

- ﴿فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا الْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ [القلم: 45-44]

فمادام أن الكيد (نحن نرى) موجه ضد الإله نفسه، فالله هو إذن من يستدرج كل من يكيد من حيث لا يعلم.

(دعاء: أعوذ بك رب أن أكون من الذين يكيدون، فأشهدك وحدك أني قد أسلمت لك حنيفا مسلما وما أنا من المشركين،

وأدعوك وحدك أن تكيد لي، فإنه لا يصرف عني كيدهم إلا أنت، سبحانك، لا قوة إلا بك، إنك أنت العزيز الحكيم - آمين)

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أن كل من كان له كيد، فهو إذن في مواجهة مباشرة مع رب العالمين، لأنه بذلك لا يرضى بالحكمة الإلهية.

السؤال: ما علاقة هذا كله بقصة أصحاب الفيل؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أصحاب الفيل كان عندهم كيد موجه ضد الإله نفسه، لذا وجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع الله، فكان الله هو من تكفل بصد كيدهم بكيده المتين:

- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: 45]

وستكون النتيجة التي لا جدال فيها أن كل من كان صاحب كيد (غير الله) سيجد نفسه أنه هو المكيد:

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦﴾ [الطور: 42-46]

لو دققنا في هذه الآيات الكريمة، لوجدنا المصاحبة واضحة بين الكافرين الذين هم لا شك مكيدون (فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ) من جهة وسقوط السماء كسفا من جهة أخرى (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا). لذا دعنا نسطر الافتراءات التالية بناء على فهمنا لما جاء في هذه الآيات الكريمة:

⇐ هناك من يريد كيدا (أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ)

⇐ الذين كفروا هم لا محالة المكيدون (فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ)

⇐ هؤلاء يزعمون أن لهم آلهة غير الله (أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ)

⇐ يمكن لهؤلاء أن يروا كسفا من السماء ساقطا (وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا)

⇐ إذا رأى هؤلاء كسفا من السماء ساقطا، سيقولون بأنه سحاب مركوم (يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ)

⇐ جاءت الدعوة إلى عدم مواجهة هؤلاء مواجهة مباشرة من الناس (فَذَرْهُمْ)

⇐ سيلاقى هؤلاء القوم (أصحاب الكيد) يومهم الذي فيه يصعقون (حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ)

⇐ لن يغني عنهم في ذلك اليوم كيدهم شيئا (يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا)

⇐ لن يكونون إذن منصورين (وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ)

⇐ الخ.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا كله؟

رأينا المفترى الخطير جدا جدا (لا تصدقوه إن شئتم): نحن نفتري القول أن بعض الناس يمكن أن يصل كيدهم إلى درجة محاولة إسقاط السماء كسفا وزعزعة أركان الأرض كلها. انتهى.

باب العذاب الذي وقع على قوم شعيب (أصحاب الأيكة)

جاء التصوير القرآني لما حصل لقوم شعيب (أصحاب الأيكة) في سورة الأعراف على النحو التالي:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًاۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْۖ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَاۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٧﴾ * قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَاۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَاۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَاۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًاۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَاۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَاۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ شُعَيْبًا كَانُواْ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [الأعراف: 85-93]

لتكون أول الاستنباطات المفتراة من عند أنفسنا عن عذاب هؤلاء القوم هو أن العذاب قد وقع عليهم على نحو أنه رجفة:

- ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 91]

وتأكدت هذه الصورة الذهنية مرة أخرى في سورة العنكبوت على النحو التالي:

- وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (36) فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (37)
- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ٣٦ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٣٧﴾ [العنكبوت: 36-37]

وفي سورة هود جاء التصوير القرآني لعذاب القوم على نحو أنه صيحة، قال تعالى:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ٨٥ وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا ۚ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ ۖ وَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ٨٦ وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ فَٱصْبِرُوا۟ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ٨٧ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ ٨٩ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ٩٠ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ٩١ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَا ۚ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ شُعَيْبًا كَانُوا۟ هُمُ ٱلْخَٰسِرِينَ ٩٢ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ٩٣﴾ [الأعراف: 85-93]

وفي سورة الشعراء كان ذلك كله قد حصل في يوم واحد، سمي بمفردات النص القرآني يوم الظلة:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ١٧٧ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ١٧٨ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ١٧٩ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٨٠ ۞ أَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُخْسِرِينَ ١٨١ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ١٨٢ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ١٨٣ وَٱتَّقُوا۟ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلْجِبِلَّةَ ٱلْأَوَّلِينَ ١٨٤ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ١٨٥ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ١٨٦ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ١٩١﴾ [الشعراء: 177-191]

السؤال المحوري: لماذا كان عذاب قوم شعيب على نحو رجفة؟ ولماذا كان عذابهم على نحو صيحة؟ ولماذا سمي اليوم الذي وقع عليهم العذاب فيه يوم الظلة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا (1): نحن نفتري القول بأن العذاب الذي وقع عليهم بداية كان عبارة عن رجفة لأن الأرض كلها قد رجت:

- ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلۡأَرۡضُ رَجّٗا ٤﴾ [الواقعة: 4]

جواب مفترى من عند أنفسنا (2):نحن نفتري القول بأن العذاب قد وقع عليهم بعد ذلك على نحو صيحة من السماء:

- ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ١٢ وَثَمُودُ وَقَوۡمُ لُوطٖ وَأَصۡحَٰبُ لَـٔيۡكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَحۡزَابُ ١٣ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ١٤ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ مَّا لَهَا مِن فَوَاقٖ ١٥﴾ [ص: 12-15]

جواب مفترى من عند أنفسنا (3): نحن نفتري القول بأن ذلك كله قد حصل في يوم سمي يوم الظلة، لأن السماء (نحن نرى) كانت قد أسقطت كسفا، فظن القوم أنه سحاب مركوم:

- ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤ فَذَرۡهُمۡ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوۡمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصۡعَقُونَ ٤٥ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي عَنۡهُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٤٦﴾ [الطور: 44-46]

السؤال: لماذا وقع عليهم العذاب بداية على نحو رجفة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن الرجفة لها علاقة بما حدث في السماء والأرض حينئذ، فنحن نتخيل بأن من الاستحالة بمكان أن ترج الأرض إلا عندما يختل توازنها. فمن أجل أن ترج الأرض كلها، فلابد من التلاعب بالميزان الذي وضعه الله بعد أن رفع السماء، قال تعالى:

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ٩﴾ [الرحمن: 7-9]

فلو دققنا في قصة ميقات موسى وقومه للقاء ربه، لوجدنا أن القوم قد أخذتهم الرجفة:

- ﴿وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ ١٥٥﴾ [الأعراف: 155]

وقد تجرأنا على الظن في مقالات سابقة لنا أن الرجفة قد حصلت حينئذ بسبب انكشاف الغمام عندما تجلى الإله لهم؛ فإذا ما تجلى الإله، فإن أول موجبات هذا التجلي هو انكشاف الغمام الذي يأتي

سابقا لقدوم الإله ليحجب رؤيته المباشرة من قبل الجميع، وما أن ينكشف شيء من الغمام حتى تحصل الصاعقة، فتدك كل ما يصله النور الإلهي كما حصل للجبل يوم أن تجلى له ربه:

- ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف: 143]

وهذا – برأينا- هو ما أحدث الرجفة في الأرض عندما وقع العذاب على قوم شعيب الذين أخذتهم الرجفة حينئذ، وكان ذلك (نحن نرى) بسبب تجلي الإله نفسه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا: مادام أن الإله قد تجلى بنفسه، فلابد أن ترجف الأرض كلها، لأنها ببساطة لا تستطيع تحمل هول المشهد.

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن قوم شعيب قد أخذتهم الرجفة:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [العنكبوت: 36-37]

لأن الله جاء بنفسه ليوقع بهم العذاب الذي طلبوه من رسولهم، فهم الذين طلبوا أن يسقط عليهم نبيهم شعيبا السماء كسفا. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- في هذا السياق القرآني جيدا:

- ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ ۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: 177-191]

وبالفعل (نحن نتخيل) نفذ شعيب تهديده لهم، فأسقط عليه السماء كسفا، فظنوا أنه سحاب مركوم:

- ﴿وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [الطور: 44-46]

فما أغنى عنهم كيدهم شيئا، فلاقوا يومهم الذي يوعدون، فكان هو – برأينا- يوم الظلة:

- ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١٨٧ قَالَ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ۝١٨٨ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٨٩ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٩٠ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٩١﴾ [الشعراء: 187-191]

ونحن نتجرأ على القول بأن هذا اليوم كان يوم ظلة، لأن الإله قد جاء بنفسه في ظلل من الغمام:

- ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾ [البقرة: 210]

فإذا ما جاء الله بنفسه في ظلل من الغمام والملائكة، فإن الأمر لا محالة قد قضي. انتهى.

ولو تدبرنا قصة شعيب مع قومه أكثر، لوجدنا بأن ذكر الميزان قد كان حاضرا فيها على الدوام، قال تعالى:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨٥﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ۝٨٤﴾ [هود: 84]
- ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: 85]

ليكون السؤال الآن هو: ما هي قصة الميزان في قوم شعيب؟ فهل حقا كان القوم يتلاعبون بالميزان الذي نعرفه (كما صور لنا ذلك الفكر الشعبي السائد)؟ وهل لو أخسر قوم ما الميزان (بالصورة النمطية التي نعرفها)، فهل سيجلب ذلك عليهم العذاب الإلهي المباشر؟ ألم تخسر جميع الأقوام على مر العصور الميزان الذي نعرفه؟ ألا يخسر كثير من الناس الميزان (الذي نعرفه) في أيامنا هذا؟ فما بال العذاب الإلهي المباشر لا يقع علينا إذا؟ نحن نتساءل فقط.

رأينا المفترى: دعنا من هذه "..." التي نظن أنها لا تسمن ولا تغني من جوع، ولنتدبر الأمر بشيء من الجدية التي يتطلبها النص القرآني، فلو عدنا إلى قصة الميزان كما جاءت في كتاب الله، لوجدنا أن الأمر فعلا أمر جلل، أكبر بكثير من مجرد الميزان البشري الذي يستخدمه الناس في كيل الحبوب والخضار والفاكهة في الأسواق التجارية. فإليك عزيزي القارئ الآيات الكريمة التي تتحدث عن الميزان بمفردات القرآن نفسه، ثم حاول بنفسك أن تتدبر ماهية الميزان الذي يتحدث عنه النص القرآني.

فالله هو من أنزل الميزان:

- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ ١٧﴾ [الشورى: 17]

والله هو نفسه من رفع السماء ووضع الميزان:

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ٧﴾ [الرحمن: 7]

والله هو من أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان:

- ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ ٢٥﴾ [الحديد: 25]

السؤال: ما هو إذن هذا الميزان الذي يتحدث عنه النص القرآني؟ فهل هو فعلا الميزان الذي صنعه الحداد أو النجار في معمله؟ من يدري؟!

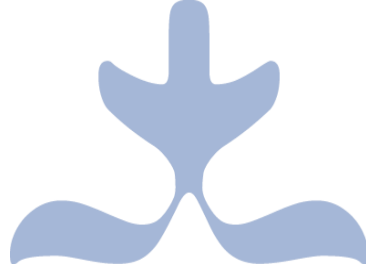
السؤال الجوهري: لم جاءت قصة الميزان خاصة بقوم شعيب على وجه التحديد؟ ولِم لم ترد عند الحديث عن قصة أي قوم آخرين؟ فما خصوصية هؤلاء القوم فيما يتعلق بالميزان؟

هذا ما سنتناوله بحول الله وتوفيق منه في الأجزاء القادمة من هذه المقالة.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

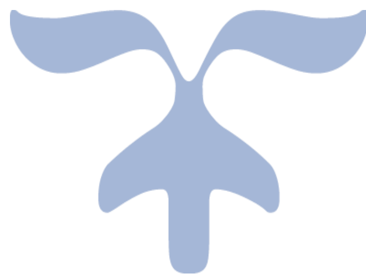
آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
7 تشرين ثاني 2016



فقه الحج

الجزء الثامن



فقه الحج – الجزء الثامن

افترينا الظن في الجزء السابق من هذه المقالة بأن العذاب الإلهي المباشر قد نزل بأصحاب الفيل لأنهم كانوا أصحاب كيد ما كان يستطيع صده إلا من كان ذا كيد متين وهو الله نفسه، وذلك لأن كيدهم (نحن نرى) كان موجها ضد الإله نفسه، لذا وجدوا أنفسهم في مواجهة مباشرة مع الله، فكان الله هو من تكفل بصد كيدهم بكيده المتين:

- ﴿وَأُمْلِي لَهُمْۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم: 45]

وافترينا الظن كذلك بأن هذه هي النتيجة الحتمية لكل من كان صاحب كيد (غير الله)، فهو من سيجد نفسه أنه هو المكيد:

- ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣ وَإِن يَرَوْاْ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُواْ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ۝٤٤ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ ۝٤٥ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ۝٤٦﴾ [الطور: 42-46]

وزعمنا القول (ربما مخطئين) بأن كيد هؤلاء القوم قد وصل إلى درجة محاولة إسقاط السماء كسفا وزعزعة أركان الأرض كلها. فأصحاب الفيل قد قدموا إلى البيت ليس من أجل هدم جدرانه ونثر حجارته هنا وهناك فقط (كما صور لنا ذلك الفكر الشعبي السائد)، وذلك لأن هدم حجارة البيت هو عمل يمكن ترميمه حتى وإن تجرأ على فعله بعض الناس، بالضبط كما حصل أكثر من مرة عبر الفترات الزمنية المتعاقبة، حيث هدمت حجارة البيت، ولم ينزل العقاب الإلهي المباشر بمن فعل ذلك، وقد تم إعادة ترميم بناء البيت من جديد أكثر من مرة. لكن العقاب الإلهي المباشر قد وقع على أصحاب الفيل لأنهم (نحن نظن) قد تجرءوا على فعل ما يتجاوز هذا الحد، فلقد كان كيدهم – برأينا- على نحو أن لا يبقوا للبيت وجود في ذلك المكان. وسنرى لاحقا (بحول الله وتوفيق منه) أن هذا هو السبب الذي من أجله جلبوا معهم الفيل، فهي الأداة التي كانوا سيحاولون بواسطتها (نحن نتخيل) إفناء البيت عن الوجود، فلا يبقوا له أثرا في أرض الواد غير ذي الزرع.

وسنرى في هذا الجزء من المقالة بأن الغاية المرجوة عندهم كانت على نحو (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) أن يعيدوا توازن الكون بطريقة جديدة غير الطريقة التي أرادها الله. فالله نسأل أن يعلمنا ما لم نكن نعلم وأن يهدينا لأقرب من هذا رشدا وأن يزدنا علما، ونعوذ به أن نفتري عليه الكذب أو أن نقول عليه ما ليس لنا بحق، إنه هو السميع البصير.

أما بعد،

السؤال: كيف كان من الممكن تنفيذ مرادهم هذا؟

عودة قصيرة على قصة إبراهيم

لو تدبرنا ما حصل مع إبراهيم فيما يخص البيت، لوجدنا بداية أن الله هو من بوأ لإبراهيم مكان البيت:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾﴾ [الحج: 26]

ونحن نفهم ذلك على نحو أن البيت لم يكن قائما بذاته (كبناء) حينئذ، فجلّ ما كان موجود هو مكان البيت، أليس كذلك؟

ولو تدبرنا ما حصل بعد ذلك، لوجدنا بأن إبراهيم قد عمد إلى رفع القواعد من البيت مع ولده إسماعيل:

- ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: 127]

ولم يعمل إبراهيم مع ولده إسماعيل على بناء سقف لذلك البناء الذي رفعوا قواعده، فأصبح البيت (نحن نتخيل) على شكل أيكة:

- ﴿وَإِن كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الحجر: 78]

وذلك لأن سقفه كان موجودا ولكنه مرفوعا. وقد افترينا القول بأن سقفه كان قد رفع من ذي قبل:

- ﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾﴾ [الطور: 4-5]

ليكون السؤال الآن هو: لماذا رفع سقف البيت أصلا؟

عودة على قصة آدم الأولى: تخيلات أغرب من الخيال نفسه

عندما اتخذ الله قراره بخلافة آدم، كان الحدث الأول بعد ذلك هو إسكان آدم وزوجه الجنة:

- ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [البقرة: 35]
- ﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الأعراف: 19]

وافترينا الظن في أكثر من مقالة سابقة لنا بأن تلك الجنة كانت على الأرض، فسكن آدم وزوجه في الأرض المقدسة (بيت المقدس)، فكانت المنطقة بأكملها مباركة:

- ﴿وَأَوۡرَثۡنَا ٱلۡقَوۡمَ ٱلَّذِينَ كَانُواْ يُسۡتَضۡعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلۡأَرۡضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۖ وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلۡحُسۡنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْۖ وَدَمَّرۡنَا مَا كَانَ يَصۡنَعُ فِرۡعَوۡنُ وَقَوۡمُهُۥ وَمَا كَانُواْ يَعۡرِشُونَ ١٣٧﴾ [الأعراف: 137]
- ﴿وَنَجَّيۡنَٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١﴾ [الأنبياء: 71]
- ﴿وَلِسُلَيۡمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةٗ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦٓ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَاۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيۡءٍ عَٰلِمِينَ ٨١﴾ [الأنبياء: 81]
- ﴿وَجَعَلۡنَا بَيۡنَهُمۡ وَبَيۡنَ ٱلۡقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا قُرٗى ظَٰهِرَةٗ وَقَدَّرۡنَا فِيهَا ٱلسَّيۡرَۖ سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ١٨﴾ [سبأ: 18]

ولكن ما أن وقع آدم في مصيدة الشيطان، حتى جاء القرار الإلهي للجميع بالهبوط منها:

- ﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾ [البقرة: 38]

(دعاء: اللهم رب أدعوك وحدك أن يأتيني منك هدى، إنك أنت العليم الحكيم - آمين)

فخسر آدم (بسبب معصيته ربه) ما كان له في تلك الجنة.

السؤال: ما الذي خسره آدم فعلا بعد هبوطه من تلك الجنة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتجرأ على الظن بأن واحدة من أهم الأشياء التي خسرها آدم حينئذ (بسبب معصيته ربه) هو بيته في تلك الجنة. فمن صفات الجنة الأساسية هي وجود الكواعب (جمع كعبة):

- ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ [النبأ: 31-33]

فما عاد آدم يتمتع بالسكن في ذلك البيت. انتهى.

الدليل

قبل أن تحصل المعصية من قبل آدم كانت تلك الأرض (أي الأرض المقدسة) مباركة لأن الإله (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) كان متواجدا هناك حينئذ، فكان قريبا من مكان الشجرة بدليل اسم الاشارة هَذِهِ في هذه الآيات الكريمة:

- ﴿وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ وَكُلَا مِنۡهَا رَغَدًا حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٣٥﴾ [البقرة: 35]

- ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسۡكُنۡ أَنتَ وَزَوۡجُكَ ٱلۡجَنَّةَ فَكُلَا مِنۡ حَيۡثُ شِئۡتُمَا وَلَا تَقۡرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٩﴾ [الأعراف: 19]

ولكن ما أن وقع آدم في المعصية حتى حصل الجوع والعري والظمأ والضحى من قبل آدم وزوجه، وكانت أول ردات الفعل لما فعله آدم وزوجه حينئذ هو (نحن نتخيل) ابتعاد الإله عن المكان كله، فجاء الخطاب بصيغة النداء، وأصبحت الشجرة بعيدة، بدليل اسم الإشارة تِلْكُمَا التي ترد في هذه الآية الكريمة التي تبين لنا ما حصل بعد المعصية الأولى:

- ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمۡ أَنۡهَكُمَا عَن تِلۡكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمَا عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٢﴾ [الأعراف: 22]

(للتفصيل انظر المقالات السابقة)

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل ابتعاد الإله نفسه عن المكان؟ وهل فعلا ابتعد الإله بنفسه عن مكان المعصية؟ وكيف حصل ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا غريبة جدا: لما كان الإله موجودا في تلك الأرض (الأرض المقدسة)، كان توازن الكون كله مبني على بقعة محددة في تلك الأرض، فكان ميزان السماء والأرض (نحن لا زلنا نتخيل) موجودا هناك (وسنرى لاحقا بحول الله وتوفيقه ماهية هذا الميزان). ولكن لما ابتعد الإله بنفسه عن مكان المعصية، تم نقل هذا الميزان إلى مكان آخر غير المكان الذي حصلت فيه المعصية.

نتيجة مفتراة (1): كانت الأرض قبل المعصية جنة خالصة، وكانت موزونة بطريقة محددة، فكانت تضاريسها هي تضاريس جنة المأوى

نتيجة مفتراة (2): بعد أن حصلت المعصية لم تعد الأرض جنة خالصة لأنه تم إعادة توزينها من جديد، فأصبحت تضاريسها تضاريس الأرض التي نعرفها الآن.

(للتفصيل انظر مقالتنا تحت عنوان: سفينة نوح ونظرية تشكل القارات)

السؤال: كيف تم ذلك؟

رأينا المفترى: ما أن ابتعد الإله عن مكان المعصية، حتى تم نقل ذلك الميزان من الأرض المباركة إلى أرض الواد غير ذي الزرع، فكان أول بيت وضع للناس هناك:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

الدليل

لما كان آدم متواجدا في الجنة، لم يكن ليصنف من فئة الناس، وذلك لأن آدم قد خلق أصلا بشرا:

- ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الحجر: 28]
- ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [ص: 71]

فآدم لم يخلق أساسا من ذكر وأنثى، لأن من كان من الناس فهو من جاء خلقه من ذكر وأنثى، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: 13]

ولكن لما عهد الله لآدم، ولما لم يكن لآدم عزم، كانت النتيجة الحتمية هي النسيان عند آدم، فتحول آدم من صفته البشرية الأولى إلى صفة الإنسانية (بسبب النسيان)، فأصبح من الناس لأنه نسي:

- ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾﴾ [طه: 115]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: كيف تم خلق المسيح عيسى بن مريم وكذلك مقالتنا تحت عنوان: نظرية الأمانة)

فتم نقل البيت من مكانه الأول في الأرض المباركة إلى مكانه الثاني في أرض الواد غير ذي الزرع. وكانت النتيجة الحتمية أن أصبح مكان البيت الأول في الأرض المقدسة غير مبارك ولكن استمرت المباركة حوله:

- ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: 1]

وذلك لأن مركزه، أي البيت الأول (أي الكعبة) قد نقل (نحن نفتري القول) إلى مكان آخر، فانتقلت البركة من هناك إلى أرض الواد غير ذي الزرع، فكان البيت بحد ذاته مباركا، ولكن لم تكن المنطقة حوله مباركة:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: كان البيت العتيق (الكعبة) متواجدا أصلا مكان المسجد الأقصى الجديد، وكان المكان كله مباركا، كما في الشكل التوضيحي التالي:



لكن حصل (نحن نتخيل) أن تم نقل الكعبة ذاتها (مكان المسجد الأقصى ذاته) إلى أرض الواد غير ذي الزرع، فانتقلت جزء من المباركة من مكان المسجد الأقصى (الكعبة) ووضعت في أرض الواد غير ذي الزرع، فكان البيت العتيق بحد ذاته مباركا فقط. وبقيت الأرض التي كانت محيطة بالبيت العتيق في الأرض المقدسة مباركة، وانتقلت البركة التي كانت في مكان البيت العتيق نفسه مع الكعبة المنقولة من هناك: قال تعالى:

- ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا ٱلَّذِي بَٰرَكۡنَا حَوۡلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنۡ ءَايَٰتِنَآۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ ١﴾ [الإسراء: 1]
- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

السؤال: ما الذي حصل بعد ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل ما جرى بعد ذلك على النحو التالي: تحصل لآدم من الذرية ولدان (إدريس وإسرائيل)، فحصل الخلاف بينهما على ملكية ذلك البيت، فتم حسم الخلاف بتقريب القربان. وبالفعل تم تقريب القربان، فتقبل الله من أحدهما (إدريس) ولكنه لم يتقبله من الآخر (إسرائيل):

- ﴿۞ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ٢٧﴾ [المائدة: 27]

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: لماذا قدم لوطا بناته بدلا من ضيوفه)

ولكن لما كان هذا الأمر غير مقبولا عند إسرائيل، طوعت له نفسه قتل أخيه إدريس، فقتله:

- ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ۝٣٠﴾ [المائدة: 30]

فظن أنه بذلك قد حاز على ملكية البيت الذي لم يكن أصلا من نصيبه، لكن هل فعلا استطاع إسرائيل أن يحوز على ملكية ذلك البيت؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لمّا كان إسرائيل من المعتدين، ولما كانت ملكية البيت ليست من نصيبه (بالحكمة الإلهية التي آثرت إدريس على أخيه إسرائيل)، لم يكن الله (نحن نفتري القول) ليدع هذا المعتد (أي إسرائيل) أن يسكن البيت، فما الذي فعله الله لكي يصد إسرائيل عن حيازة ملكية ذلك البيت؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن (ربما مخطئين) بأن الله قد منع إسرائيل من التمتع بملكية البيت (الذي لا حق له به) وذلك عن طريق رفع سقفه:

- ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 4-5]

فما عاد أصلا بيتا، فأصبح قائما على شكل أيكة.

ومع توالي الأيام، تم الاعتداء على حجارة هذا البيت، فتهدمت جدرانه، وتناثرت حجارته، وما تبقى منه إلا مكانه. وما أن وصل الأمر إلى إبراهيم حتى كان مكان البيت فقط موجودا، فبوأه الله لإبراهيم:

- ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦﴾ [الحج: 26]

وجل ما فعله إبراهيم حينئذ هو رفع القواعد من البيت فقط، لتحديد مكانه الذي بوأه الله له؛ وما دام أن إبراهيم قد رفع القواعد من البيت من أجل غاية واحدة وهي تحديد مكان البيت، فهو إذن لم يعمد إلى وضع سقف له، لأن سقفه كان أصلا موجود لكنه مرفوعا:

- ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 4-5]

نتيجة مفتراة (1): مكان البيت موجود، لم يلحقه تخريب

نتيجة مفتراة (2): رفع إبراهيم القواعد من البيت في ذلك المكان

نتيجة مفتراة (3): سقف البيت موجود لكنه مرفوعا

نتيجة مفتراة (4): لم يعمد إبراهيم إلى وضع سقف لذلك البيت.

لتكون الصورة في ذهننا حينئذ على النحو التالي: كان مكان البيت (foundation) موجودا وكان سقفه (ceiling) موجودا أيضا.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من مثل هذا الخيال المفترى من عند أنفسنا؟

جواب: نحن نتجرأ على الظن بأن جل ما يمكن للبشر أن يتدخلوا فيه (فيما يخص هذا البيت على وجه التحديد) هو البناء الذي يقع بين مكان البيت (foundation) والسقف (ceiling) كالقواعد والجدران. لكنهم لا يستطيعون العبث بالمكان والسقف.

السؤال: كيف يمكن التخلص من البيت نهائيا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأنه من الاستحالة بمكان القضاء على البيت (أي بيت) قضاء مبرما بمجرد هدم جدرانه ونثر حجارته. ولكن يمكن التخلص من البيت (أي بيت) بالتخلص من أساسه (foundation) وسقفه (ceiling)، أي بنسف ما رفعت القواعد عليه وهو الأساس (foundation) وبالتالي إسقاط سقفه (ceiling). فلو أدرت أنا أن أهدم بيتا عاديا، فلا يمكن فعل ذلك بمجرد هدم الجدران وطرح حجارته جانبا، ولكن لابد من التخلص من الأساسات التي بني عليها البيت وإسقاط سقفه.

السؤال: ما علاقة هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا مع قصة أصحاب الفيل؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأن أصحاب الفيل لم يقدموا إلى مكان البيت العتيق من أجل هدم جدرانه وطرح حجارته جانبا، لأن هذا عمل يمكن ترميمه حتى لو نجحوا في ذلك، فجدران البيت قد تم ترميمها أكثر من مرة في الفترات الزمنية المتعاقبة. لكن كان هدف أصحاب الفيل (وهم ذو كيد عظيم) أن يأتوا بنيان البيت من القواعد حتى يخر السقف، فهم قد قدموا إلى مكان البيت (نحن نتخيل) وفي نيتهم القضاء على البيت قضاء مبرما، فلا يعود له وجود في ذلك المكان إطلاقا، وبالتالي لا يمكن ترميم الضرر الذي كان من الممكن أن يحدثوه في البيت بمجرد هدم جدرانه ونثر حجارته. ونحن نفتري الظن بأن هدفهم هذا لا يمكن أن يتحقق على أرض الواقع إلا بأن يأتوا ذلك البنيان من القواعد حتى يخر السقف على الأرض.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أنهم فعلا نجحوا في ذلك؟

تخيلات مفتراة أغرب من الخيال نفسه: نحن نظن بأنه لو نجح أصحاب في الفيل في مهمتهم تلك، واستطاعوا أن يأتوا على بنيان البيت من القواعد لخر السقف (المرفوع) مباشرة. انتهى.

السؤال: وما الذي كان من الممكن أن يحدث لو أنهم فعلا استطاعوا أن يأتوا بنيان البيت من القواعد ولو أنهم استطاعوا أن يجعلوا سقف البيت المرفوع يخر على الأرض؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نتخيل (ربما مخطئين) بأنهم لو نجحوا في ذلك لاختل توازن الكون كله، ولتشكلت تضاريس الأرض كلها مرة أخرى من جديد. انتهى.

الدليل

ربما يتعجل القارئ في طلب الدليل على مثل هذا الافتراء الخطير جدا الذي هو لا شك من عند أنفسنا، ولكي تتضح الصورة في ذهن القارئ لما نحاول جاهدين قوله، دعنا نجلب الآيات الكريمة التالية التي جاءت في سياق الحديث عن ما فعله قوم إبراهيم عندما أرادوا أن يوقعوا به أشد العذاب. فلقد قرر القوم بداية أن يبنوا له بنيانا:

- قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (97)
- ﴿فَمَا ٱسۡطَٰعُوٓاْ أَن يَظۡهَرُوهُ وَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقۡبٗا ٩٧﴾ [الكهف: 97]

فهم إذا من أرادوا بإبراهيم كيدا، لكن جاء التدخل الإلهي ليكونوا هم الأسفلين:

- ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيۡدٗا فَجَعَلۡنَٰهُمُ ٱلۡأَسۡفَلِينَ ٩٨﴾ [الصافات: 98]

وما أن أتموا ذلك البنيان حتى عمدوا إلى إلقاء إبراهيم في النار العظيمة التي أعدوها له من فوق ذلك البنيان، وكان ذلك من أجل تنفيذ كيدهم، فكان الله لهم بالمرصاد:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ ١٤﴾ [الفجر: 14]

فقد كان القوم قد مكروا مكرا عظيما كادت أن تزول منه الجبال:

- ﴿وَقَدۡ مَكَرُواْ مَكۡرَهُمۡ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكۡرُهُمۡ وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ ٤٦﴾ [إبراهيم: 46]

فمادام أنهم قد مكروا، لذا سيجدوا الله نفسه لا محالة هو خير الماكرين:

- ﴿وَإِذۡ يَمۡكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثۡبِتُوكَ أَوۡ يَقۡتُلُوكَ أَوۡ يُخۡرِجُوكَۚ وَيَمۡكُرُونَ وَيَمۡكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٣٠﴾ [الأنفال: 30]

فلقد كان مكرهم على نحو التخلص من هذا الرجل (إبراهيم) كما حاول أهل مكة التخلص من محمد. فكان ذلك من باب المكر. فجاءت ردة فعل الإله على النحو التالي: لقد أتي الله بنيانهم من القواعد:

- ﴿قَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنۡيَٰنَهُم مِّنَ ٱلۡقَوَاعِدِ ...٢٦﴾ [النحل: 26]

السؤال: ما الذي حصل عندما أتى الله بنيان القوم من القواعد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تدبرنا تتمة الآية الكريمة السابقة، لوجدنا بأنه ما أن يتم الإتيان على أي بنيان من القواعد حتى تكون النتيجة الحتمية هي أن يخر السقف:

- ﴿... فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ وَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٦﴾ [النحل: 26]

نتيجة مفتراة مهمة جدا: إذا ما أُتي البينان من القواعد، فإن السقف لا محالة سيخر. لذا نحن نستنبط القول بأن إسقاط السقف (حتى يخر على الأرض) مرتبط بأن يؤتي البنيان من القواعد، فسقف البنيان (أي بنيان) لن يبقى ثابتا "معلقا" بين السماء والأرض إذا ما تم إتيان البنيان (أي بنيان) من القواعد. انتهى.

السؤال: ما علاقة هذا بقصة البيت المعمور والسقف المرفوع؟

- ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾ [الطور: 1-5]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لما ظننا (ربما مخطئين) بأن السقف المرفوع هو سقف البيت المعمور، فإن النتيجة الحتمية ستكون (كما نفهمها) على نحو أنه ما أن يتم الإتيان على بنيان هذا البيت من القواعد حتى يخر السقف (المرفوع).

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو نجح أصحاب الفيل فعلا في مهمتهم؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن بأنه لو تمكن أصحاب الفيل فعلا من إتيان بنيان البيت من القواعد لخر السقف المرفوع، ولأسقطت السماء كسفا، ولاختل توازن الكون كله. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن في البيت العتيق سر الميزان الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض، وهذا الميزان هو الذي يحفظ التوازن في الكون كله. انتهى.

السؤال: لماذا تدخل الإله بنفسه فأرسل جنوده (الطير الأبابيل) على أصحاب الفيل على وجه التحديد؟

جواب مفترى: لما كان كيد أصحاب الفيل (نحن نتخيل) على نحو التلاعب بالميزان، ما كان الله ليسمح بأن يختل توازن الكون، لأن الله هو من تعهد بأن يكون المكان حرما آمنا، فالله هو من مكّن للناس حرما آمنا. انتهى.

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

السؤال: ما معنى أن ذلك حرما آمنا؟ وكيف مكن الله للناس حرمنا آمنا؟ ولماذا يمكن أن يتخطف الناس من حوله؟

رأينا المفترى: لو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن البيت هو سر الأمن في ذلك المكان:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

فإبراهيم هو من دعا الله أن يجعل هذا البلد كله آمنا:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥ وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنٗا وَٱرۡزُقۡ أَهۡلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلٗا ثُمَّ أَضۡطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ١٢٦﴾ [البقرة: 125-126]
- ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ ٣٥﴾ [إبراهيم: 35]

لكن الله هو من قرر بأن يكون أول بيت وضع للناس ببكة هو المكان الذي فيه آيات بينات (مقام إبراهيم)، فكان كل من دخل هذا المكان آمنا:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيۡتٖ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكٗا وَهُدٗى لِّلۡعَٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]
- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

فأصبح البيت الحرام آمنا:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت: 67]

وكانت النتيجة أن قريش (سكان البيت الحرام) قد آمنهم الله من الخوف بعد أن أطعمهم من الجوع:

- ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ ٤﴾ [قريش: 1-4]

السؤال: ما سر الأمن في ذلك المكان على وجه التحديد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الحرم آمنا لأنه ببساطة تحت المراقبة المباشرة من الله، فالله (نحن نفتري الظن) لن يسمح لأحد أن يتلاعب فيه، لأنه لو نجح أحد في ذلك لاختل توازن الكون كله.

البيت المعمور

السؤال: ما هو البيت المعمور؟ وما معنى أنه بيت معمور؟ وكيف يكون البيت معمورا؟

- ﴿وَٱلطُّورِ ۝١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ۝٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ۝٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ۝٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ۝٥﴾ [الطور: 1-5]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأن مفردة "الْمَعْمُورِ" التي ترد في سياق الآيات الكريمة هذه لها علاقة مباشرة بفعل "عمر" ومشتقاته التي ترد في سياقات قرآنية عديدة. فالله هو من استعمر الناس في الأرض التي أنشأهم منها، قال تعالى:

- ﴿۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمۡ صَٰلِحٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا فَٱسۡتَغۡفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيۡهِۚ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٞ مُّجِيبٞ ۝٦١﴾ [هود: 61]

ولا شك عندنا أنه ما أن استعمر الله الناس في الأرض حتى قاموا هم أنفسهم بعمارتها، قال تعالى:

- ﴿أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗ وَأَثَارُواْ ٱلۡأَرۡضَ وَعَمَرُوهَآ أَكۡثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتۡهُمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ [الروم: 9]

ولم يقتصر فعل العمارة على الأرض وإنما حصل في أجزاء محددة منها كالمساجد مثلا، قال تعالى:

- ﴿مَا كَانَ لِلۡمُشۡرِكِينَ أَن يَعۡمُرُواْ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلۡكُفۡرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ وَفِي ٱلنَّارِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ۝١٧ إِنَّمَا يَعۡمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمۡ يَخۡشَ إِلَّا ٱللَّهَۖ فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝١٨ ۞ أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ كَمَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَجَٰهَدَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ لَا يَسۡتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٩﴾ [التوبة: 17-19]

فبالرغم أن الناس يشتركون جميعا في عمارة الأرض إلا أن فئة محددة منهم (وهم المؤمنون) هم الذين يقومون بعمارة المساجد على وجه التحديد.

لنخلص من هذا النقاش بافتراء الظن بأن البيت العتيق هذا البيت معمورا (على الدوام)، وذلك لأنه من الاستحالة بمكان أن يؤتي على بنيانه من القواعد حتى يخر السقف. فالبيت الحرام (أي الكعبة) قد جعله الله على مر الزمان قياما للناس، وذلك لأنها قائمة لا تنقض:

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ۝٩٧﴾ [المائدة: 97]

ولو تدبرنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا التفريق واضحا بين الحج من جهة والعمرة من جهة أخرى، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ونحن نفتري الظن بأن العمرة ليست أكثر من عمل تعبدي يتحصل بمجرد القيام في البيت الحرام. فالناس يذهبون للعمرة (نحن نفتري الظن) من أجل الدخول في ذلك المكان وهو الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا. فمجرد وصولك إلى مقام إبراهيم فقد أديت مناسك العمرة:

- ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلّٗىۖ وَعَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]

وقد كان مقام إبراهيم هو محل ذلك الأمن:

- ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

ففي هذا البيت توجد آيات بينات، وفيه هناك مقام إبراهيم، ويتحصل الأمن لكل من دخل في هذا المكان. ولعلي أكاد أجزم الظن بأن إبراهيم قد اتخذ ذلك المكان مقاما له من أجل طلب الأمن الإلهي.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن البيت هو مكان آمن لكل من دخله (وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا) من الرجال والنساء والولدان، لكن الحج ليس مفروضا إلا على الناس فقط (وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً). وهنا نتوقف لنقدم الافتراءات الخطيرة التالية التي هي لا شك من عند أنفسنا، ونحن إذن نقدم هذه الافتراءات نطلب من القارئ الكريم أن لا يخرجها عن نطاق محاولة الاجتهاد الذي يمكن أن يصيب أو أن يخطئ، لذا لا نطلب من أحد الإيمان بها كعقيدة إلا أن وجد هو بنفسه أنها تستحق ذلك.

افتراء 1: يمكن دخول البيت الحرام من قبل الجميع (وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ)

افتراء 2: ما أن يدخل أحد هذا المكان حتى يكون من الذين يعمرون مساجد الله، فتتحصل له العمرة

افتراء 3: تبقى النساء والولدان في هذا المكان لأداء مناسك العمرة فقط (أي الحصول على الأمان)

افتراء 4: يستطيع الناس (المكلفون من الذكور) دخول المكان والحصول على الأمان، وبالتالي الظفر بالعمرة

افتراء 5: يكلف هؤلاء الناس بأداء مناسك وشعائر الحج، فيصعدون على عرفات وحدهم (من دون النساء والولدان) في يوم الحج الأكبر

افتراء 6: تبقى النساء ويبقى الولدان في منطقة المسجد الحرام فلا يكلفون بالذهاب إلى عرفات:

- ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾ [البقرة: 196]

الدليل

لو تفقدنا هذه الآية الكريمة، لوجدنا بأن أهل الرجل مكلفون فقط بحضور المسجد الحرام وكفى (ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ). ولو تدبرنا في فعل النبي الكريم، لوجدنا بأنه قد جاء خطابه في حجة الوداع يوم الحج الأكبر من على جبل عرفات موجها فقط للناس، فجاء في خطبته (كما نقلت لنا) ما نصه:

أيُّها النَّاسُ، اسمعوا قولي، فإنِّي لا أدري لعلِّي لا ألقاكم بعدَ عامي هذا، بِهذا الموقِفِ أبدًا. أيُّها النَّاسُ، إنَّ دماءَكم وأموالَكم عليكُم حرامٌ، إلى أن تلقوا ربَّكم كحُرمةِ يومِكم هذا، وَكحُرمةِ شَهرِكم هذا، وإنكم ستلقونَ ربَّكم، فيسألُكم عن أعمالِكم وقد بلَّغتُ، فمن كانت عندَهُ أمانةٌ فليؤدِّها إلى من ائتمنَهُ عليْها وإنَّ كلَّ ربًا موضوعٌ، ولكن لَكم رؤوسُ أموالِكم، لا تظلِمونَ ولا تُظلَمونَ قضى اللَّهُ أنَّهُ لا ربًا وإنَّ ربا العبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ موضوعٌ كلُّهُ، وإنَّ كلَّ دمٍ كانَ في الجاهليَّةِ موضوعٌ، وإنَّ أوَّلَ دمائكم أضعُ دمَ ربيعةَ بنِ الحارثِ بنِ عبدِ المطَّلب- وَكانَ مستَرضَعًا في بني ليثٍ، فقتلتْهُ هُذيلٍ- فَهوَ أوَّلُ ما أبدأُ بِهِ من دماءِ الجاهليَّةِ

أما بعدُ أيُّها النَّاس، إنَّ الشَّيطانَ قد يئِسَ أن يعبدَ في أرضِكم هذِهِ أبدًا، ولَكنَّهُ أن يطاعَ فيما سوى ذلِكَ فقد رضِيَ بِهِ مِمَّا تحقِّرونَ من أعمالِكم، فاحذروهُ على دينِكُم.

أيُّها النَّاسُ: « إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ » ، ويحرِّموا ما أحلَّ اللَّهُ، وإنَّ الزَّمانَ قدِ استدارَ كَهيئتِهِ يومَ خلقَ اللَّهُ السَّمواتِ والأرضَ، وَ «إنَّ عدَّةَ الشُّهورِ عندَ اللَّهِ اثنا عشَرَ شَهراً منْها أربعةٌ حُرُمٌ» ، ثلاثةٌ متواليةٌ، ورجبُ الَّذي بينَ جُمادى وشعبانُ.

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ، فإنَّ لَكم على نسائِكم حقًّا ولَهنَّ عليْكم حقًّا، لَكم عليْهنَّ أن لا يوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تَكرَهونَه، وعليْهنَّ أن لا يأتينَ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ، فإن فعلنَ فإنَّ اللَّهَ قد أذنَ لَكم أن تَهجُروهنَّ في المضاجِعِ، وتضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ، فإنِ انتَهينَ فلَهنَّ رزقُهنَّ وَكسوتُهنَّ بالمعروفِ واستوصوا بالنِّساءِ خيرًا، فإنَّهنَّ عندَكم عَوانٍ لا يملِكنَ لأنفسِهنَّ شيئًا، وإنَّكم إنَّما أخذتُموهنَّ بأمانةِ اللَّهِ، واستحللتُم فروجَهنَّ بِكلمةِ اللَّهِ، فاعقلوا أيُّها النَّاسُ قولي، فإنِّي قد بلَّغتُ وقد ترَكتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم بِهِ فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ نبيِّهِ

أيُّها النَّاسُ، اسمعوا قولِي واعقِلوهُ تعلمُنَّ أنَّ كلَّ مسلمٍ أخو للمسلِمِ، وأنَّ المسلمينَ إخوَةٌ، فلا يحلُّ لامرئٍ من أخيهِ إلا ما أعطاهُ عن طيبِ نفسٍ منه فلا تظلِمُنَّ أنفسَكمُ اللَّهمَّ هل بلَّغتُ قالوا: اللَّهمَّ نعَم، فقالَ رسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليهِ وسلَّم: اللَّهمَّ اشْهَدْ.

الراوي: - المحدث: الألباني - المصدر: فقه السيرة - الصفحة أو الرقم: 454

فلو تدبرت عزيزي القارئ هذه الخطبة، لوجدت أن الرسول الكريم قد وجه الخطاب في بداية كل جزء من خطبته إلى الناس فقط، فكان يقول في بداية كل رسالة أراد إيصالها حينئذ (أيُّها النَّاسُ). ولو تدبرنا الفقرة التالية من خطاب النبي في ذلك الموقف على وجه التحديد، لربما أدركنا على الفور بأن النساء لسن من الناس:

أمَّا بعدُ أيُّها النَّاسُ، فإنَّ لَكم على نسائِكم حقًّا ولَهنَّ عليْكم حقًّا، لَكم عليْهنَّ أن لا يوطِئْنَ فُرُشَكم أحدًا تَكرَهونَه، وعليْهنَّ أن لا يأتينَ بفاحشةٍ مبيِّنةٍ، فإن فعلنَ فإنَّ اللَّهَ قد أذنَ لَكم أن تَهجُروهنَّ في المضاجِعِ، وتضرِبوهنَّ ضربًا غيرَ مبرِّحٍ، فإنِ انتَهينَ فلَهنَّ رزقُهنَّ وَكسوتُهنَّ بالمعروفِ واستوصوا بالنِّساءِ خيرًا، فإنَّهنَّ عندَكم عَوانٍ لا يملِكنَ لأنفسِهنَّ شيئًا، وإنَّكم إنَّما أخذتُموهنَّ بأمانةِ اللَّهِ، واستحللتُم فروجَهنَّ بِكلمةِ اللَّهِ، فاعقلوا أيُّها النَّاسُ قولي، فإنِّي قد بلَّغتُ وقد ترَكتُ فيكم ما إنِ اعتصمتُم بِهِ فلن تضلُّوا أبدًا، أمرًا بيِّنًا كتابَ اللَّهِ وسنَّةَ نبيِّهِ

(للتفصيل انظر مقالاتنا تحت عنوان ثلاثية المرأة)

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري القول بأنه لو كانت النساء حاضرات في ذلك الموقف، لما تردد الرسول الكريم أن يوجه لهن الخطاب أو جزء منه مباشرة، وذلك لأن الرسول الكريم مأمور من ربه بأن يقل لأزواجه وبناته ونساء المؤمنين ما يوحى إليه من ربه:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٥٩﴾ [الأحزاب: 59]

عودة على بدء: قصة أصحاب الفيل

نحن نفتري القول من عند أنفسنا باستحالة وجود قوة كونية (غير الله) تستطيع أن تعبث بأمن هذا المكان، لأن الله هو من مكنه للناس ليكون حرما آمنا:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

ولو حصل أن حاول نفر من الناس (نحن نفتري الظن) العبث بأمن هذا المكان، لجاء التدخل الإلهي مباشر، ولأنزل الله فيهم العقاب المباشر كما فعل مع أصحاب الفيل.

لذا، نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن أصحاب الفيل كانوا (بما كان عندهم من كيد) يعون تماما ما هو مقدمون عليه، فلقد كانت جل غايتهم (كما نفهمها) هي زعزعة أمن ذلك المكان، وكان مخططهم يتضمن ما يلي:

⇐ إتيان البيت من قواعده
⇐ أن يخر السقف
⇐ أن لا يعود البيت آمنا
⇐ الخ

السؤال: لماذا فعلوا ذلك؟ وماذا كانت غايتهم من وراء فعلهم ذاك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه يمكننا هنا أن نقحم (ربما مخطئين) قصة الفيل في هذا النقاش، لنطرح على الفور التساؤل التالي: لماذا الفيل؟ لماذا كان هؤلاء القوم هم أصحاب الفيل؟ وما الغاية المرجوة عندهم من إحضار الفيل في هذا الصراع الكبير؟

جواب مفترى: لمّا كان هؤلاء القوم (نحن نفتري الظن) أصحاب كيد، كانوا إذا على علم عظيم، فهم لا شك يعون تماما ما يفعلون، ولما كانوا أصحاب كيد، كان عليهم أن يتجهزوا بأفضل الوسائل والمعدات لتنفيذ مرادهم الخفي المدبر (أي كيدهم)، ونحن نتجرأ على الظن بأن واحدة من أهم أدوات تنفيذ مخططهم على الشكل المطلوب هو الفيل. فالقوم قد أحضروا الفيل (على وجه التحديد) لغاية محددة بعينها. ولما كان كلام الله مقصود بذاته، فإننا نتجرأ على الظن بأن تنفيذ مراد القوم لا يمكن أن يتم بأي وسيلة أخرى غير الفيل. فلو كان من الممكن استخدام أي وسيلة أخرى، لما ترددوا في ذلك، ولكن لما كان الفيل هو الوسيلة الوحيدة (نحن نفتري الظن) لتنفيذ مرادهم، كان عليهم أن يحضروه معهم، فكانوا هم على وجه التحديد من بين جميع الأقوام الأخرى أصحاب الفيل. فلم يأت ذكر الفيل في أي مكان آخر من كتاب الله غير هذا المكان، ليكون السؤال التالي هو: لماذا؟

استراحة لغوية قصيرة

بداية لابد من محاولة التعرف جيدا على معنى مفردة الْفِيلِ التي ترد في هذا السياق القرآني، قال تعالى:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ① أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ② وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ③ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ④ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ⑤﴾ [الفيل: 1-5]

ليكون السؤال اللغوي الأول هو: ما هو الفيل؟

افتراء (1): نحن نفتري الظن بأن الفيل هو الحيوان الذي نعرفه ويندر وجوده في مناطق شبه جزيرة العرب

افتراء (2): نحن نفتري الظن بأن الفيل هو حيوان ذات فصيلة واحدة فقط

افتراء (3): نحن نفتري الظن بأن الفيل كلمة تدل على النوع، لذا فالفيل الواحد يسمى فيل والمجموعة منه تسمى أيضا فيل. فالكلمة تجمع وتفرد على نفس اللفظ كما في الشكل التوضيحي التالي:

مفرد	جمع
فيل	فيل

ليكون السؤال هو: لماذا أستخدم نفس اللفظ (الْفِيلِ) للمفرد والجمع معا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لو تدبرنا مفردات اللغة (أي لغة)، لوجدنا أن المفرد والجمع في اللغة لا يأتي على نفس الصيغة لجميع المفردات، فنحن نجد أن بعض المفردات لها لفظة تدل على المفرد وأخرى تدل على الجمع (ولد = أولاد)، وبعضها لها مفرد لا جمع له (امرأة = ؟)، وبعضها الآخر له جمع لا مفرد له (؟ = نساء)، وبعضها يكون المفرد والجمع على نفس الصيغة (أرض = أرض)، وبعضها تجمع على أكثر من شكل (شهر = أشهر وشهور) كما في الشكل التوضيحي التالي:

مفرد	جمع 1	جمع 2
سماء	سماوات	
أرض	أرض	
شهر	شهور	أشهر
امرأة	؟	
؟	نساء	

السؤال: لماذا؟ أي لماذا لا تجمع كل المفردات على نفس الشاكلة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن وجود صيغة للمفرد وأخرى للجمع مدفوع بالمعنى المراد في كل حالة من الحالات. فالشكل يحمل في ثناياه المعنى، فتصبح العلاقة بين الشكل والمعنى علاقة غير اعتباطية.

السؤال: ما علاقة المعنى بالشكل في حالتي الإفراد والجمع؟ أي ما علاقة المعنى بشكل الإفراد والجمع في كل حالة من الحالات السابقة؟

افتراء 1: نحن نظن أن الجمع لأي مفردة لا يتحصل إلا إذا كان هناك تباين، وبالتالي تنوع في الصنف

افتراء 2: نحن نظن أن الكلمة لا تجمع إذا كان هناك تطابق، وبالتالي استحالة التنوع في الصنف

افتراء 3: نحن نظن أن الكلمة لا تفرد إذا كان هناك تطابق، وبالتالي استحالة التنوع في الصنف

افتراء 4: نحن نظن أن وجود جمعين للمفردة الواحدة يدل على أن هناك مفردتان مختلفتان تماما في النوع

السؤال: كيف يمكن إثبات هذه الافتراءات باستخدام الأمثلة التوضيحية؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا ندقق في مفردتي السماء والأرض أولا. فلو تدبرنا ما جاء في كتاب الله عن هاتين الكلمتين لوجدنا بأن مفردة السماء تجمع على سماوات بينما تجمع مفردة الأرض على الأرض نفسها، قال تعالى:

- ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٧﴾ [الزمر: 67]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ۝١٢﴾ [الطلاق: 12]
- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَـٰنِ مِن تَفَـٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: 3]
- ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۝١٥﴾ [نوح: 15]

لتصبح الصورة على النحو التالي:

مفرد	جمع	العدد (سبعة)
سماء	سماوات	اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ
أرض	أرض	وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ

السؤال: لماذا تجمع مفردة سماء على سماوات؟

جواب مفترى: لأن السماوات السبع متفاوتة. فكل سماء لها خصوصيتها التي تجعلها مختلفة عن السماء الأخرى. انتهى

السؤال: لماذا تجمع مفردة الأرض على المفردة نفسها (أرض)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لأن الأرض (السبعة) لا تتفاوت. فكل أرض متطابقة تماما مع الأرض الأخرى، فبالرغم من وجود سبعة من الأرض (كما أن هناك سبع سماوات)، إلا أنها جميعا متطابقة، فالأرض الأولى متطابقة تماما مع الأرض الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة.

نتيجة مفتراة (1): مادام أن هناك تفاوت بين الكينونات، فإن صيغة الجمع تختلف عن صيغة المفرد (كما في سماء = سماوات)

نتيجة مفتراة (2): مادام أنه ليس هناك تفاوت بين الكينونات، ومادام أن هناك تطابق، فلا داع بأن تختلف الصيغة في حالة المفرد عن الصيغة في حالة الجمع (كما في أرض = أرض)

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية:

لوجدنا بأن صريح اللفظ يبين لنا (كما نفهمه بالطبع) بأن الله قد خلق سبع سماوات طباقا:

- ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ٣﴾ [الملك: 3]

لنطرح التساؤل التالي على الفور: لماذا جاءت لفظة طباقا مع السماوات؟ ولم لم يأتي مثل هذا اللفظ مع الأرض؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأنه لو كانت السماوات أصلا متطابقة، لما استعدت الضرورة استخدام لفظة () طباقا عند الحديث عن السماوات، ولأصبح من البديهي الفهم أنها أصلا متطابقة، لكن لما كانت السماوات أصلا تتفاوت فيما بينها، كان الله هو من جعلها متطابقة، لكي يتم طيها في نهاية الأمر كطي السجل للكتب، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]

فلكي تطوى السماوات (كطي السجل للكتب) كان لابد من جعلها متطابقة في الحجم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: السماوات متطابقة في الحجم لكنها لازالت متفاوتة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأنه على الرغم من تطابق السماوات في الحجم، إلا أنها لازالت كينونات متفاوتة في غير الحجم، بدليل قوله تعالى:

- ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ [الصافات: 6]
- ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ وَأَوۡحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمۡرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفۡظٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ۝١٢﴾ [فصلت: 12]
- ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ وَأَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ [الملك: 5]

فالسماء الدنيا (على وجه التحديد) هي التي زينها الله بزينة الكواكب، وهي التي زينها الله بمصابيح، وهي التي جعل الله فيها رجوما للشياطين. وهذا (نحن نتخيل) لا ينطبق على السماوات الأخرى. فالسماوات إذن متطابقة في الحجم لكنها متفاوتة في الشكل والغاية. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نكاد نجزم الظن بأن لو صح منطقنا المفترى هذا من عند أنفسنا، لربما استطعنا تسطير بعض الحقائق الكونية فيما يخص السماوات والأرض، نذكر منها:

⇐ هناك سبعا من السماوات
⇐ هذه السماوات متطابقة في الحجم، بدليل أنها ستطوى كطي السجل للكتب
⇐ هذه السماوات متفاوتة في الشكل والوظيفة بدليل أن السماء الدنيا فقط هي من زينها الله بزينة الكواكب وبالمصابيح، وجعلها رجوما للشياطين

لكن بالمقابل:

⇐ هناك سبعا من الأرض
⇐ هذه الأرض جميعا متطابقة في الحجم
⇐ هذه الأرض جميعا متطابقة في الشكل
⇐ هذه الأرض جميعا متطابقة في الوظيفة

السؤال: لماذا تجمع مفردة ولد على أولاد وبنت على بنات؟

جواب مفترى: نحن نظن بأنه مادام أن للمفردة صيغة جمع تختلف عن صيغة المفرد منه (ولد = أولاد)، فلابد من وجود التفاوت. فبالرغم أن الأولاد يشتركون في الصفة الغالبة التي تجعلهم أصلا ضمن فئة الأولاد، إلا أن كل ولد يختلف عن الآخر، فهناك إذن (نحن نكاد نجزم القول) من الفروقات ما يدعو إلى اختلاف اللفظ بين صيغتي المفرد والجمع (ولد = أولاد). فلو كانوا جميعا متطابقين تماما، لما احتجنا (نحن نظن) إلى صيغة للجمع تختلف عن صيغة المفرد.

السؤال: لماذا لا نجد صيغة المفرد لكلمة نساء؟

جواب مفترى: نحن نظن أن من تدخل من الإناث مرحلة "النسوة"، فإنهن جميعا يشتركن في الصفات نفسها. فالنسوة ليست مرحلة عمرية وإنما هي مرحلة وظيفية، وهي مرحلة النكاح:

- ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾﴾ [النساء: 3]

فلا تدخل الأنثى مرحلة النكاح إلا أن أصبحت من النساء، وهذا يتطلب وصول مرحلة المحيض:

- ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: 222]

وهنا يطلب من هؤلاء النساء أن يدنين عليهن من جلابيبهن:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَابِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ [الأحزاب: 59]

فكل من بلغت المحيض، وبالتالي أصبحت مؤهلة لأن تنكح، فهي إذن من النساء.

(للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان حديث الإفك، وثلاثية المرأة)

ونحن نتجرأ على افتراء الظن بأن جميع النساء متطابقات في هذه الصفة، ولا اختلاف بين واحدة وأخرى في هذه الصفة، فكل من بلغت من الإناث مرحلة "النسوة" يشتركن في الصفات ذاتها. لذا لا نجد ضرورة بأن تفرد أنثى من النساء عن أنثى أخرى من النساء. فجاء اللفظ بصيغة الجمع الذي لا مفرد له.

السؤال: لماذا يجمع لفظ أنثى على إناث؟

جواب: لأن الأنوثة متفاوتة، فليس كل الإناث نوع واحد. فبالرغم أنهن جميعا يقعن في فئة الإناث نفسها، إلا أن لكل أنثى خصوصية تجعلها تختلف عن الأنثى الأخرى:

- ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾﴾ [الشورى: 49]

فالإناث لسن جميعا صنف واحد، فكما أن هناك اختلاف بين الذكور (فمنهم من ينجب ومنهم من يجعله الله عقيما)، فإن الإناث مختلفات كذلك:

- ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: 50]

السؤال: لماذا تجمع كلمة سنبلة على سنابل وسنبلات؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن كلمة سنبلة تدل على كمية من فصيلة واحدة، لكن مفردة سنبلات تدل على التنوع في الفصائل. قال تعالى:

- ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: 261]

فالحبة الواحدة قد تنبت سبع سنابل (من نفس الفصيلة)، ولكن عندما تتنوع الفصائل، يأتي اللفظ على نحو سنبلات:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

فهذه – لا شك عندنا- سبع سنبلات من أنواع مختلفة.

وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ينسحب على مفردة بقرة. فهي تجمع على لفظ بقر، كما جاء في قوله تعالى:

- ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [البقرة: 70]

فالبقر إذن قد يتشابه على الناس لأنه ليس صنف واحد، فلكل بقرة ميزاتها وخصائصها الفردية التي تجعلها تختلف عن البقرة الأخرى، فيمكن للبقر أن يتشابه لكنه لا يتطابق.

فها هم قوم موسى يسألون نبيهم عن تلك البقرة، فما استطاعوا أن يذبحوا أي بقرة إلا بعد أن تبين لهم ماهيتها:

- ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ ۖ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ ۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: 67-71]

نتيجة مفتراة: مادام أن مفردة بقرة تجمع على بقر، فإن لكل بقرة من هذه البقر خصوصيتها التي تجعلها مختلفة عن البقرة الأخرى.

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، فالبقر بحد ذاته هو أيضا أصناف متعددة، بدليل أن الملك قد رأى سبع بقرات سمان وسبع عجاف:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]

استنباطات علمية

لو صحت افتراءاتنا هذه، فإننا قد نستطيع تسطير حقائق كونية وعلمية لن تكلفنا الجهد الكبير والمال الوفير لإثباتها في المختبرات العلمية ومعامل التجريب، فنحن لا نحتاج أكثر من فهم المفردة القرآنية فهما دقيقا لنستطيع من خلالها الخروج باستنباطات علمية ربما تشكل دليلا كافيا على أن هذا القرآن ما كان ليفتري من دون الله.

فلو تفقدنا مفردة السماء (سماوات)، لخرجنا بالاستنباط التالي: السماوات متفاوتة في الشكل والوظيفة ولكنها متطابقة في الحجم

ولو تفقدنا مفردة الأرض، لخرجنا بالاستنباط التالي: هناك سبع من الأرض متطابقة تماما في الشكل والحجم والوظيفة

ولو تفقدنا مفردة ولد (أولاد)، لوجدنا أن كل ولد يختلف عن الآخر

ولو تفقدنا مفردة بنت (بنات)، لوجدنا أن كل بنت تختلف عن الأخرى

ولو تفقدنا مفردة النساء، لوجدنا أن جميع النساء متطابقات في هذه الصفة

ولو تفقدنا مفردة بقرة (بقر)، لوجدنا بأن كل بقرة تختلف عن البقرة الأخرى

ولو تفقدنا مفردة بقرة (بقرات)، لوجدنا أن هناك سبع أصناف من البقر

ولو تفقدنا مفردة سنبلة (سنابل)، لوجدنا أن كل سنبلة تختلف عن الأخرى

ولو تفقدنا مفردة سنبلة (سنبلات)، لوجدنا أن هناك سبع أصناف من السنابل

السؤال: هل يمكن أن ينسحب هذا المنطق على جميع مفردات اللغة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نعم.

الدليل

⇐ الفاكهة (فواكه) أصناف

- ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ٥١﴾ [ص: 51]
- ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩﴾ [المؤمنون: 19]

⇐ النخل (نخيل) أصناف

- ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَابٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ٩٩﴾ [الأنعام: 99]

⇐ الزيتونة (زيتون) متنوع

- ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥﴾ [النور: 35]
- ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]

⇐ الرمان صنف واحد

⇐ ﴿۞وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٖ مَّعۡرُوشَٰتٖ وَغَيۡرَ مَعۡرُوشَٰتٖ وَٱلنَّخۡلَ وَٱلزَّرۡعَ مُخۡتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٖۚ كُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوۡمَ حَصَادِهِۦۖ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ١٤١﴾ [الأنعام: 141]

ولو طبقنا هذا المنطق على المفردات العامية، لربما خرجنا باستنباطات مماثلة:

⇐ حمار (حمير) متنوع الأصناف
⇐ الخ
⇐ تفاحة (التفاح) متنوع الأنواع
⇐ برتقالة (برتقال) متنوع الأنواع
⇐ الخ
⇐ بطاطا (صنف واحد)
⇐ طماطم (صنف واحد)
⇐ الخ

خاتمة: لعلنا نستطيع أن نفرد مؤلفات ضخمة لهذه الاستنباطات (وهو ما سنحاول فعله في مقالات منفصلة لاحقا بإذن الله)، ولعلنا لا نتردد أن ندعو طلبة الدراسات اللغوية إلى الخوض في هذا الموضوع لتسطير رسائل ماجستير ودكتوراه في هذا الموضوع الذي نظن أنه سيفتح بحول الله وتوفيقه أفاقا جديدة في التفكير. ولعل الهدف الأساسي من ذلك هو استنباط ما يسمى بك "القواعد اللغوية والنحوية" من كتاب الله، وبالتالي الكف عن تسطير قواعد لغوية من عند أنفسنا (كما هي الحال الدارجة الآن) ومن ثم إسقاطها على ما جاء في كتاب الله، فمثل هذا التصرف (ربما غير المسئول) هو ما أدى – برأينا- في نهاية المطاف إلى الظن بأن هناك في كتاب الله ما يشذ عن تلك القواعد التي سطرتها الأيدي البشرية. فكم من المؤلفات اللغوية ظهرت على مر العصور تحت مسمى غريب اللفظ في القرآن، ويكأن لسان حالهم يقول أن قواعدهم مطلقة الصحة والثبات ولكن المشكلة تكمن في كتاب الله. فنحن نظن أن فعلتهم هذه تناقض ما سطره الله في كتابه الكريم في قوله تعالى:

- ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ۝٢٨﴾ [الزمر: 28]

ومادام أن عقيدتنا مبنية على الإيمان المطلق بأن كتاب الله هو قرآنا عربيا غير ذي عوج، فالمشكلة إذن لا يمكن أن تكمن في كتاب الله (إن وجدنا ما يخالف قواعدنا اللغوية)، ولكن المشكلة الحقيقة تكمن في "القواعد اللغوية" التي سطرتها الأيدي البشرية. فبدل أن ننظر فيما اسمه بغريب القرآن، فإننا ندعو أهل العلم (وخاصة طلبة الدراسات العليا) إلى إعادة النظر في تخريصات الأقدمين اللغوية التي نؤمن يقينا بأن الله ما أنزل بها من سلطان.

لكن يكفينا هنا أن نعود من هذا النقاش الطويل إلى قصة الفيل مرة أخرى، لنطرح على الفور التساؤل التالي: لماذا تفرد وتجمع كلمة فيل على نفس اللفظ (فيل = فيل)؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لما كانت كلمة فيل تفرد وتجمع على نفس اللفظ، فإننا نتجرأ على الظن بأن الفيل نوع واحد، فجميع المخلوقات في هذه الفئة هي صنف واحد لا تفاوت بينها، فليس هناك فرق بين فيل وآخر، فجميعها متطابقة.

نتيجة مفتراة: جاء أصحاب الفيل إلى المكان ومعهم مجموعة من هذه الكائنات المتطابقة (الفيل)، وذلك من أجل غاية محددة بذاتها. فنحن لا نتخيل بأن أصحاب الفيل قد جاءوا إلى المكان ومعهم فيل واحد، وإنما جاء ومعهم مجموعة من هذه الكائنات التي تسمى الفيل.

السؤال: ماذا كانت غايتهم عندما أحضروا معهم هذا الكائن بأعداد كثيرة (وليس فيلا واحدا) إلى مكان البيت؟

جواب مفترى: قبل محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل دعنا نثير التساؤل التالي عن مفردة أصحاب التي ترد في الآية نفسها:

- ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل: 1-5]

رأينا المفترى من عند أنفسنا: بداية، لابد من العودة إلى مفردة "أصحاب" في السياقات القرآنية، فلقد تعرضنا لهذه المفردة أكثر من مرة في مقالات سابقة لنا، وزعمنا الظن بأن مفردة "أصحاب" تحمل في ثناياها المعاني المفتراة التالية:

- ⇐ الصحبة غير دائمة
- ⇐ الصحبة مدفوعة بهدف محدد بعينه
- ⇐ الصحبة لا تعني أن الشخص هو من أوجدها
- ⇐ الصحبة تعني الاستخدام
- ⇐ الخ

الدليل

لعل أوضح الأدلة على هذه الافتراءات هي مفردة أصحاب السفينة التي صنعها نوح:

- ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ۝١٥﴾ [العنكبوت: 15]

فبالرغم أن نوحا هو من صنعها:

- ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ۝٣٧﴾ [هود: 37]

كانوا هم (وليس نوح) أصحابها. فكل من تواجد في السفينة كان من أصحابها بالرغم أنه ربما لم يشارك في صنعها.

ثانيا، ربما لا أكاد أتردد في القول أن أصحاب السفينة لم يمكثوا في السفينة طوال حياتهم، وإنما جاء مكوثهم فيها فترة من الزمن، وكانت الغاية من ذلك هي النجاة من العذاب، فالسفينة هي الأداة التي ستحميهم من خطر الطوفان متى حصل.

ثالثا، لا شك عندنا أن السفينة (أداة النجاة) كانت تجري بهم، فتنقلهم من مكان الخطر إلى مكان الأمن:

- ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ الْكَافِرِينَ ۝٤٢﴾ [هود: 42]

السؤال: ما علاقة هذا كله بأصحاب الفيل؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن الفيل لم يكن أكثر من وسيلة لتحقيق مآرب القوم، وستنتهي الحاجة إليها في حال تحقيق تلك المآرب.

السؤال: ما الهدف إذن من استخدامهم للفيل؟

جواب مفترى خطير جدا جدا من عند أنفسنا: نحن نظن بأن الهدف الذي من أجله جلب هؤلاء معهم الفيل إلى البيت هو نقل مكان البيت. انتهى.

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: جاء القوم إلى مكان البيت بهدف إتيان البيت من القواعد، لكي يخر السقف المرفوع، ولكن لما كان هدفهم يتجاوز هذا الحد، كان لزاما عليهم (نحن نرى) أن يجلبوا معهم الفيل من أجل نقل مكان البيت كله.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا مهمة جدا جدا: كان الهدف من جلب الفيل هو من أجل جر "مكان البيت" الذي بوأه الله لإبراهيم كله من أرض الواد غير ذي الزرع إلى مكان آخر سيختارونه هم بأنفسهم.

السؤال: ما الفائدة التي سيجنيها هؤلاء القوم (أصحاب الفيل) من جر مكان البيت كله؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن غايتهم كانت تتمثل في وضع "مكان البيت" الذي بوأه الله لإبراهيم في مكان آخر هم سيختارونه بأنفسهم.

السؤال: ما الذي سيستفيده هؤلاء من نقل مكان البيت من موضعه في ذلك الواد إلى مكان آخر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الغاية كانت (كما نزعم بالطبع) من أجل التلاعب بالميزان. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه لو تمكن هؤلاء القوم من نقل مكان البيت من ذاك الواد غير ذي الزرع، وتم وضعه في مكان آخر، لحصل على الفور إعادة توازن للكون كله بطريقة جديدة كليا، مختلفة عن ما نشاهده الآن على أرض الواقع.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: كان الكون في الفترة التي أسكن الله آدم وزوجه الجنة قد تم توزينه بناء على مكان البيت الذي كان موجودا أصلا في مكان المسجد الأقصى الحالي. ولما وقع آدم بالمعصية، تم نقل "مكان البيت" (foundation) من منطقة المسجد الأقصى إلى منطقة الواد غير ذي الزرع، فحصل بناء على ذلك (نحن لازلنا نتخيل) إعادة توزين للكون كله من جديد، فتغيرت تضاريس الأرض كلها، واختلف توزيع

مناخاتها، فلم تعد الأرض (كل الأرض) جنة كما كانت من ذي قبل، فظهرت القارات، وتباين المناخ، وأصبح التنوع (وبالتالي التباين) بين مناطق الأرض واضحا بعد أن كانت الأرض كلها جنة واحدة قبل المعصية.

السؤال: ما الذي كان من الممكن أن يحصل لو أن هؤلاء القوم قد نحجوا في نقل مكان البيت وتم وضعه في مكان آخر غير الواد غير ذي الزرع؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو نجح هؤلاء القوم في تلك المهمة التي تجرءوا عليها، لحصل "توزين" للكون كله من جديد، ولاختلفت التضاريس من جديد، ولاختلف بالتالي توزيع مناخ الأرض، ولظهر تباين للجغرافيا والمناخ بطريقة جديدة غير التي نعرفها الآن.

السؤال: لماذا سيحصل كل ذلك بمجرد نقل مكان البيت من منطقة إلى منطقة أخرى؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن كل هذا سيحدث بسبب الميزان. فأنت عندما تقوم بتشييد بناء ما، فلابد أن تحرص على "توزين" ذلك البناء، لتضمن الأمن (فلا يتساقط) والديمومة له (في يلحق به الأذى مع توالي الأيام). ولكن لو تم تشييد ذلك البناء بدون استخدام الميزان، فإن ذلك البناء لن يصمد كثيرا وستظهر عيوبه مع توالي الأيام. فالميزان (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) هو ما يضمن دوام واستقرار البناء على الشكل المطلوب على مر الزمان.

السؤال: هل الميزان فعلا بهذه الأهمية التي تدعيها؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الإجابة على هذا التساؤل تتطلب منا الخوض في ماهية الميزان، فما هو الميزان إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأنه لو تدبرنا جميع السياقات القرآنية التي ورد فيها ذكر الميزان، وهي قوله تعالى:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ وَلَا تَنقُصُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ ۚ إِنِّىٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: 84]
- ﴿وَيَٰقَوْمِ أَوْفُوا۟ ٱلْمِكْيَالَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 85]
- ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾﴾ [الشورى: 17]
- ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: 7]

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]

لربما صح أن نخرج بالاستنباطات المهمة التالية عن الميزان:

⇐ الميزان هو شيء وضعه الله مع رفع السماء:

- ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: 7]

⇐ جاءت قصة الميزان مميزة لقوم شعيب:

- ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: 85]
- ﴿۞ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾﴾ [هود: 84]
- ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [هود: 85]

⇐ أنزل الله الميزان مع النبيين كما أنزل معهم الكتاب:

- ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ [الحديد: 25]

⇐ الخ.

نتيجة مفتراة مهمة جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن الميزان لا يقل في الأهمية عن الكتاب، فالله هو من أنزل الكتاب والميزان.

السؤال: ما هو هذا الميزان الذي يبينه النص القرآني؟

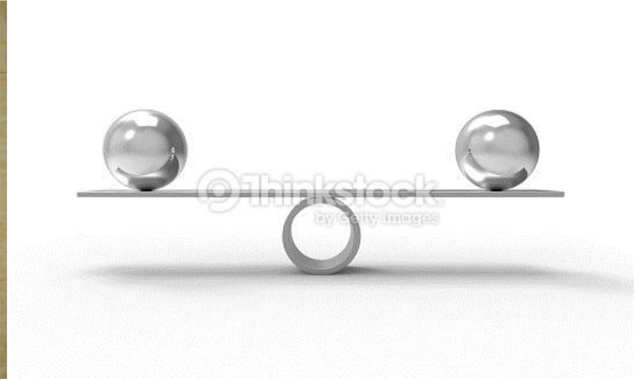
تفنيد الفكر الشعبي السائد

لعلنا نحتاج بداية أن نبرهن بأن الفكر الشعبي السائد عن الميزان هو فكر مغلوط، ربما لا يرقى – برأينا- إلى درجة جدية التصوير القرآني له. فلقد درج العامة من الناس على فهم فكرة الميزان (كما روج لذلك أهل الدراية من قبلنا) على أنه تلك الآلة المصنوعة من قبل البشر والتي يتم بواسطتها قياس الكميات من الخضار والفاكهة والحب وغيرها في الأسواق. فإن أنت ذهبت إلى صاحب البقالة المجاورة لبيتك، وطلبت من عنده كمية من الدقيق مثلا، فإن صاحب البقالة يقوم بـ "توزين" (أي قياس كمية) ما طلبته بواسطة ذلك الميزان الموجود في دكانه، فلا شك أنه سيعطيك رطلا أو رطلين أو ثلاثة من الدقيق (بما يكافئ كمية المال الذي ستدفعه له)، ويتم هذا بعد أن يقوم بتوزين السلعة المطلوبة بتلك الآلة التي يستخدمها في قياس الكميات في متجره، كما في الصور التوضيحية التالية:











source

السؤال: هل هذا هو الميزان الذي يبينه النص القرآني فعلا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن ننفي جملة وتفصيلا مثل هذا الفهم، وذلك لأن توزين الكميات من البضاعة يتم بما يطلق عليه النص القرآني لفظ "القسطاس المستقيم" (أو weight scale بالمفردات الأعجمية)، قال تعالى:

- ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾ [الإسراء: 35]
- ﴿۞ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾ [الشعراء: 181-183]
- ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين: 1-3]

لذا علينا أن نفرق بين الميزان من جهة والقسطاس المستقيم من جهة. لذا نحن نتجرأ على الظن بما يلي:

⇐ الميزان هو لفظ عام يدل على كل ما يمكن أن يستخدم في إحداث التوازن، فالتاجر يستخدم الميزان، والنجار يستخدم الميزان، والبناء يستخدم الميزان، والحداد يستخدم الميزان، وطالب الهندسة يستخدم الميزان، وعامل المختبر الكيميائي يستخدم الميزان، وهكذا. ولكن كل واحد من هؤلاء يستخدم ميزانه الخاص به الذي يحدث بواسطته التوازن، فلا ينتج اختلال أو عدم توازن، لأنه بدون الميزان لن تكون النتائج مرضية لكل صاحب حرفة. وهو ما يسمى بالمفردات الأعجمية scale.

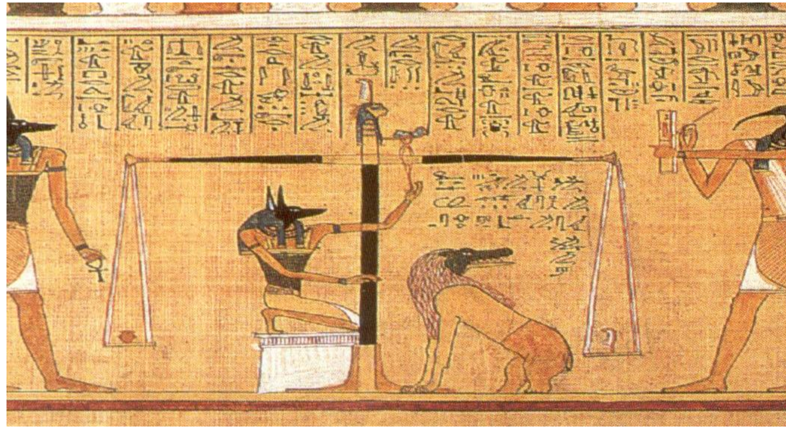
⇐ أما ما يستخدمه التاجر في قياس الكميات في متجره، فهو واحد من هذه الأدوات المتعددة، وهو ما يطلق عليه لفظ القسطاس المستقيم (أو weigh scale بالمفردات الأعجمية).

⇐ هناك أنواع عديدة من الموازين، نذكر منها:

1. Spring scales أو Hydraulic or pneumatic scale

2. Digital scales
3. Supermarket and other retail scale
4. Balance scales
5. Roberval balance scale
6. Pendulum balance scales
7. Hybrid spring and balance scales
8. الخ

⇐ إن فكرة إحداث التوازن ليست جديدة في تاريخ البشرية، وإنما هي فكرة كونية، نجد الدليل عليها في الرسومات الفرعونية من مثل الجدارية العظيمة التالية:

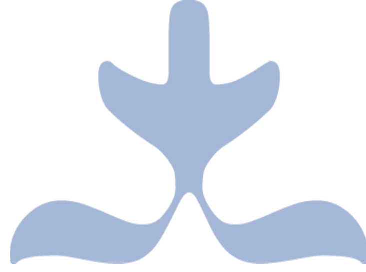


ونحن ندعو علماء الآثار كافة (وخاصة صاحبنا القديم الجديد إبراهيم درويش) إلى جلب هذه الجداريات، ومحاولة تفكيك الشيفرة التي بنيت عليها مثل هذه الجداريات، ليجدوا (نحن نفتري القول) بأن الأمر جد خطير، وأنه يحمل في ثناياه أسرار كونية، نسأل الله أن نكون أول العالمين بها، إنه هو العليم الحكيم – آمين.

وللحديث بإذن الله بقية

دعاء: اللهم ربنا، رافع السماء وواضع الميزان، ندعوك وحدك أن تعلمنا ما لم نكن نعلم وأن تزيدنا علما وأن تهدينا لأقرب من هذا رشدا، إنك أنت السميع العليم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
17 تشرين ثاني 2016



فقه الحج

الجزء التاسع



فقه الحج – الجزء التاسع

تعرضنا في الجزء السابق من هذه المقالة إلى قضية الميزان، وظننا أن الميزان الذي يتحدث عنه النص القرآني هو ميزان الكون، أي هو الأداة التي تحدث التوازن في السماء والأرض، فلا يحدث خلل فيهما مادام هذا الميزان موضوعا. وافترينا الظن بأن الميزان قد وضع مع رفع السماء:

- ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧﴾ [الرحمن: 7]

فأصبح الكون كله يسير بنظام لا يختل بسبب التوازن الذي يحكمه هذا الميزان، وقد تجرأنا على الظن بأن مكان البيت هو ميزان السماء والأرض، لذا تعهد الله بأن يكون هذا المكان آمنا:

- ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنٗا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ ۝٦٧﴾ [العنكبوت: 67]
- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٧﴾ [القصص: 57]

انتقال مفاجئ

السؤال: لماذا تعهد الله بأن يجبى إلى هذا المكان ثمرات كل شيء؟

جواب مفترى: لأن هذا المكان هو واد غير ذي زرع:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ۝٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

السؤال: لماذا كان هذا المكان واد غير ذي زرع؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن من خصائص الواد وجود الصخر:

- ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]

وهذا موسى يناديه ربه بالواد المقدس طوى:

- ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى ۝١٢﴾ [طه: 12]
- ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٣٠﴾ [القصص: 30]

- ﴿إِذۡ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوًى ١٦﴾ [النازعات: 16]
- ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا ٥٢﴾ [مريم: 52]
- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]
- ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ٢٩ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٠﴾ [القصص: 29-30]
- ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلۡغَرۡبِيِّ إِذۡ قَضَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلۡأَمۡرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٤٤ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأۡنَا قُرُونٗا فَتَطَاوَلَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡعُمُرُۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ تَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرۡسِلِينَ ٤٥ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذۡ نَادَيۡنَا وَلَٰكِن رَّحۡمَةٗ مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ٤٦﴾ [القصص: 44-46]
- ﴿وَٱلطُّورِ ١ وَكِتَٰبٖ مَّسۡطُورٖ ٢ فِي رَقّٖ مَّنشُورٖ ٣ وَٱلۡبَيۡتِ ٱلۡمَعۡمُورِ ٤ وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ ٥﴾ [الطور: 1-5]

ولو تفقدنا ما حصل مع بني إسرائيل في ذلك المكان، لوجدنا أن الله قد نزّل عليهم المنّ وسلوى هناك:

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

ولكن هذا لم يكن ليرضي بني إسرائيل على الدوام، فطلبوا من نبيهم ما هو أدنى، فجاء طلبهم على النحو التالي:

- ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 60-61]

السؤال الخطير جدا: لماذا لم يجب الله طلبهم بأن يخرج لهم مما تنبت الأرض؟ ولماذا لم يطلب نبي الله موسى من ربه أن يخرج لهم مما تنبت الأرض؟ فهل كان هذا الطلب سيعجز الإله؟ من يدري؟!

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تفقدنا عبارة "ادْعُ لَنَا رَبَّكَ" على مساحة النص القرآني كله، لما وجدناها قد وردت إلا في سياق الحديث عن موسى وقومه، قال تعالى:

- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾ [البقرة: 68]
- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾ [البقرة: 69]
- ﴿قَالُواْ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠﴾ [البقرة: 70]
- ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيۡهِمُ ٱلرِّجۡزُ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَۖ لَئِن كَشَفۡتَ عَنَّا ٱلرِّجۡزَ لَنُؤۡمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرۡسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤﴾ [الأعراف: 134]
- ﴿وَقَالُواْ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهۡتَدُونَ ۝٤٩﴾ [الزخرف: 49]

ولو تفقدنا هذه السياقات القرآنية كلها، لوجدنا بأنه ما أن يطلب القوم من موسى أن يدع ربه بشيء حتى يقوم موسى على الفور بطلب ذلك (أي ما سألوه) من ربه (انظر الآيات السابقة كلها)، ليكون السؤال الآن على الفور هو: لماذا لم يدع موسى ربه هذه المرة بأن يخرج لقومه مما تنبت الأرض بالرغم أن الطلب قد جاء بالصيغة نفسها (قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ)؟

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٦١﴾ [البقرة: 61]

جواب مفترى: لأنهم كانوا متواجدين في الواد. انتهى.

السؤال: ما معنى ذلك؟

رأينا المفترى: لما كان المكان واد، كان من أهم خصائصه أنه مكان صخري لا يمكن أن يخرج منه الزرع. فطلب الله منهم أن يهبطوا مصرا بدلا من أن ينتظروا أن يخرج لهم ربهم مما تنبت الأرض في ذلك المكان. فذلك المكان (نحن نتخيل) لا ينبت فيه الزرع، فكان لزاما الانتقال إلى مكان آخر إن هم أصروا على ما يريدون:

- ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡ... ۝٦١﴾ [البقرة: 61]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن سؤالهم أن يخرج الله لهم في ذلك المكان مما تنبت الأرض أمر مستحيل مادام أن هذا المكان هو واد. فلقد ضرب موسى بعصاه الحجر في ذلك الواد، فانفجرت منه اثنتا عشر عينا:

- ﴿۞ وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠ وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصۡبِرَ عَلَىٰ طَعَامٖ وَٰحِدٖ فَٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُخۡرِجۡ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۢ بَقۡلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَاۖ قَالَ أَتَسۡتَبۡدِلُونَ ٱلَّذِي هُوَ أَدۡنَىٰ بِٱلَّذِي هُوَ خَيۡرٌۚ ٱهۡبِطُواْ مِصۡرٗا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلۡتُمۡۗ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلۡمَسۡكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٦١﴾ [البقرة: 60-61]

نتيجة مفتراة (1): يمكن أن يخرج من ذلك الواد (الصخري) الماء

نتيجة مفتراة (2): لا يمكن أن يخرج في ذلك الواد مما تنبت الأرض

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: بداية، لابد من ربط مكان البيت الأول (في الواد المقدس طوى) مع مكان البيت الآخر (في الواد غير ذي الزرع)، فكلاهما واد، وكلاهما لا يخرج ما تنبت الأرض، وكلاهما حصل أن تعهد الله بأن يؤتي من يسكنهما الرزق من لدنه، فأنزل المنّ والسلوى على من سكن الواد المقدس طوى (وهم بنو إسرائيل، أي قوم موسى):

- ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ٨٠﴾ [طه: 80]

وتعهد الله بأن يجبى إلى مكان البيت الجديد في الواد غير ذي الزرع ثمرات كل شيء:

- ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]

ولو تفقدنا دعاء إبراهيم ربه لمن سكن هناك في الواد غير ذي الزرع عند بيت الله المحرم، لوجدنا أن إبراهيم نفسه قد طلب لهم الرزق من الثمرات:

- ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: 37]

السؤال: لماذا دعا إبراهيم ربه بأن يرزق من سكن هناك عند بيت الله المحرم من الثمرات؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن إبراهيم يعلم يقينا بأن هذا المكان لا يمكن أن يخرج للناس مما تنبت الأرض، لذا كان لابد من طريقة بديلة للرزق غير الطريقة المعهودة (وهي مما تخرج الأرض). فمادام أن تلك الأرض لا تخرج مما تنبت الأرض، كان لزاما البحث عن طريقة أخرى لديمومة التواجد في ذلك المكان. فلا يمكن أن يدوم التواجد في ذلك المكان إلا بتوافر مصادر الرزق لمن سكن هناك، فكان الله هو من تعهد بنفسه بأن يجبى إلى هذا المكان ثمرات كل شيء.

السؤال: لماذا قضت المشيئة الإلهية بأن يكون مكان البيت الأول في الواد المقدس طوى؟ ولماذا قضت المشيئة الإلهية بأن ينقل هذا البيت إلى الواد غير ذي الزرع على وجه التحديد؟

السؤال بطريقة أخرى: ما خصوصية هذان المكانان فيما يتعلق بمكان البيت؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لما كان مكان البيت هو نقطة الارتكاز التي يتم فيها إحداث التوازن في الكون كله، فإن من أبسط مجالات التفكير هو أن البناء يحتاج إلى قاعدة (foundation) صلبة متينة ليتم إنشاءه عليه، ولما كان بيت الله هو البيت الأول على الأرض، فإن الحاجة تتطلب أن يؤسس هذا البيت على قاعدة متينة:

- ﴿أَفَمَنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقۡوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٍ خَيۡرٌ أَم مَّنۡ أَسَّسَ بُنۡيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٖ فَٱنۡهَارَ بِهِۦ فِي نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩﴾ [التوبة: 109]

فالبنيان (أي بنيان) لا يمكن أن يدوم إذا ما جاء تأسيسه على شفا جرف هار، لأن النتيجة لا محالة ستكون انهيار ذلك البنيان. فالبنيان الذي لا يؤسس على تقوى من الله، سيبقى دائما ريبة في قلوب الذين شيّدوه:

- ﴿لَا يَزَالُ بُنۡيَٰنُهُمُ ٱلَّذِي بَنَوۡاْ رِيبَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾ [التوبة: 110]

وليس أدل على ذلك من مسجد ضرار الذي اتخذه البعضُ كفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله:

- ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسۡجِدٗا ضِرَارٗا وَكُفۡرٗا وَتَفۡرِيقَۢا بَيۡنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَإِرۡصَادٗا لِّمَنۡ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبۡلُۚ وَلَيَحۡلِفُنَّ إِنۡ أَرَدۡنَآ إِلَّا ٱلۡحُسۡنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمۡ فِيهِ أَبَدٗاۚ لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٞ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُطَّهِّرِينَ ١٠٨﴾ [التوبة: 107-108]

فهؤلاء هم من أمثال من مكروا، فأتى الله بنيانهم من القواعد، فخر عليهم السقف:

- ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [النحل: 26]

ولو عدنا إلى قصة أصحاب الفيل، لربما تجرأنا على افتراء الظن بأن القوم قد جاءوا إلى مكان البيت وهدفهم اتخاذ مسجدا جديدا ليكون ضرارا وتفريقا بين المؤمنين أولا، وإرصادا لمن حارب الله ورسوله ثانيا. فلو تمكن هؤلاء القوم من نقل مكان البيت إلى مكان آخر غير ذاك الواد، لنجحت خطتهم في التفريق بين المؤمنين أولا، ومن ثم محاربة الله ورسله جميعا بعد أن يتخذوا مسجدهم الجديد إرصادا لمن حارب الله ورسوله.

السؤال الأول: كيف كان من الممكن أن يكون مسجدهم الجديد (لو نجحوا في تشيده) كفرا وتفريقا بين المؤمنين؟

رأينا المفترى: نحن نظن بأنه لو نجح هؤلاء القوم في بناء مسجدا بديلا للمسجد الأول، لحدثت الفرقة بين المؤمنين، ولظهر بينهم من ينادي إلى أن تهوي أفئدة من الناس إلى هذا البيت الجديد، ولظلت فئة أخرى تنادي بأن تهوي أفئدة الناس إلى المكان الأول. ولو حصل هذا على أرض الواقع، لأصبحت مناسك الحج تقام في مكانين مختلفين. ولكن لما كان البيت الأول حرما آمنا، ظلت مناسك الحج تقام في هذا المكان بغض النظر عن وجود الطوائف والفرق. فبالرغم من ظهور طوائف وفرق كثيرة، إلا أنهم جميعا يؤدون فريضة الحج إلى هذا المكان، فما ظهر عبر الفترات الزمنية المتعاقبة من ينادي بتلبية أي نداء إلى غير هذا المكان. فكان هذا المكان هو الذي يجتمع فيه كل الناس بغض النظر عن انتماءاتهم الطائفية. فكان هو المكان الجامع لكل المؤمنين بالله.

السؤال الثاني: كيف يكون ذلك البيت (المسجد) إرصادا لمن حارب الله ورسوله؟

جواب مفترى خطير جدا جدا لا تصدقوه: نحن نظن أن ذلك البيت هو إرصادا لأنه – برأينا- محطة الرصد (أي المراقبة)، فبوجود ذلك البيت يمكنك أن تقعد لرصد الكون كله. فالمرصد هو المكان الذي تتم فيه مراقبة الآخرين لتجنب وقوع الأذى منهم:

- ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [التوبة: 5]

فالله هو من يطلب من المؤمنين أن يقعدوا للمشركين كل مرصد (وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ)، فلا يصل خطرهم المحتمل إلى المؤمنين، فعند تطبيق هذا المنطق على الناس في الأرض، نجد أن الناس يتخذون أماكن محددة لرصد تحركات بعضهم البعض خاصة في حالة وجود الخصام والعداوة بين الطرفين.

ولازال الناس حتى الساعة يبنون محطات الأرصاد الجوية، ولعل الغاية من تلك المحطات هي مثلا رصد تحركات السحاب المسخر بين السماء والأرض، وبالتالي الخروج بالتنبؤات الجوية التي تفيد الناس في حياتهم اليومية. ولعل مرصد هابل الفلكي، هو المحطة الأرضية التي يراقب من خلالها بعض الناس من أهل العلم ما يجري في الكون الذي يستطيعون الوصول إليه بعدساتهم وأدوات المراقبة الخاصة بهم.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا جدا: إذا كان هناك مراصد كثيرة على الأرض لمراقبة ما يجرى على الأرض من تحركات بشرية (وربما ما يجري بين السماء والأرض)، فإننا نتجرأ على القول بأن البيت العتيق هو المكان الوحيد على الأرض الذي يمكن من خلاله مراقبة الكون كله.

نتيجة مفتراة خطير جدا جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأنه بالإمكان مراقبة ما يجري في الكون كله من ذلك البيت. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن لا نستبعد أن ينعت البعض كلامنا هذا بأنه ضرب من الجنون، وأن الأمر عندنا قد تجاوز كل الخطوط الحمراء. فلهؤلاء نقول بأنه إن حصل اتهام لنا من قبل البعض، فإن ذلك لن يثنينا عن المضي قدما في التفكر بهذا الاتجاه، ونحن نطلب من الجميع أن يرجعوا إلى الوراء، فلا يتابعوا النقاش معنا ما لم يؤمنوا يقينا بأن هذا الكلام لا يقع في باب الجنون. فهؤلاء فقط هم (نحن نظن) من لا يمكن أن يتهموا محمدا بالجنون لو أنهم عاشوا معه (أرجو عدم اقتباس هذه الفقرة للترويج بين الناس بأني أقارن نفسي بمحمد، فمحمد لا شك رسول لا ينطق عن الهوى بينما أنا لست أكثر من بشر يصيب أحيانا ويخطئ كثيرا). على أي حال، إن ما أحاول أن أجهد نفسي لتبيانه هو أن الأغلبية المطلقة من الناس قد ظنوا بأن محمدا قد وصل به الأمر إلى حد الجنون، فجاء الرد الإلهي عليهم على هذا النحو:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [الأعراف: 184]

السؤال: متى أتهم القوم من حول صاحبنا بأن فيه جِنّة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن بأن القوم من حول محمد قد اتهموه بشيء من الجِنّة عندما وجدوا أن محمدا يستطيع أن يراقب ما يجري في الكون كله. فظن القوم أن هذا ليس علما من عند محمد (علمه إياه شديد القوى) وإنما هو من باب ما به (حسب ظنهم) من جِنّة. انتهى.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: دعنا نضع الآية السابقة قيد التدبر الآن، وهي:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝١٨٤﴾ [الأعراف: 184]

في سياقها الأوسع، لنجد أن الآية التالية بعدها مباشرة هي قول الله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا حول هاتين الآيتين الكريمتين معا:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ ۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 184-185]

عندما طلب الله من الذين كانوا حول محمد أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق، فإننا نأخذ الأمر على محمل الجد، ونعتقد جازمين أن هذا أمرا حقيقيا قابلا للحدوث، فهم إذن يستطيعون أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض:

- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]

وإذا كان بإمكان هؤلاء الناس (العاديين) من حيث المبدأ أن ينظروا في ملكوت السموات والأرض، فإن ذلك الأمر لم يكن ليعجز محمدا. فمحمد يستطيع إذن أن ينظر في ملكوت السموات والأرض.

السؤال: ما الذي حصل إذن على أرض الواقع في زمن محمد؟

رأينا المفترى: كان محمد يستطيع أن ينظر في ملكوت السموات والأرض، فكان إذن يستطيع (نحن لازلنا نتخيل) أن يرى ما يجري في الكون كله. ولما كان محمد يستطيع أن يخبر من حوله بما يجري في الكون كله بعد أن ينظر في ملكوت السموات والأرض، وصل الأمر بمن حوله (وهم الذين لا يريدون أن يصدقوه) أن ينعتوا الرجل بأوصاف لا تليق إلا بمن هو على شاكلتهم، فظنوا أن محمدا قد أصابه شيء من الجِنّة، فظنوا أنّ هذا من باب الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنّة:

- ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ٢ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦﴾ [الناس: 1-6]

السؤال: هل كان هذا فعلا من باب الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس من الجِنّة والناس؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فما كان الوسواس الخناس من الجِنّة والناس يستطيع أن يوسوس في صدر محمد، فالله هو من شرح صدر محمد:

- ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ١ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ٢ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ٣ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ٤ فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرٗا ٦ فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب ٨﴾ [الشرح: 1-8]

لذا، لما كان الله هو من شرح لمحمد صدره، فإن من الاستحالة بمكان (نحن نؤمن) أن يستطيع الوسواس الخناس (سواء كان من الجِنّة أو من الناس) أن يوسوس في صدر محمد.

لكن يبقى السؤال: كيف اتهم القوم محمدا بأن فيه شيء من الجِنّة؟

جواب: لما كان ما أخبرهم به محمد حينئذ يستعص على منطق الناس العاديين، كان لابد من إيجاد التبرير لمثل ذلك، فما وجدوا غير اتهامه بأن فيه شيء من الجِنّة:

- ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 184-185]

لكن الله هو من طلب منهم أن يتفكروا، لأن مجرد التفكر ستنتهي بهم (وبغيرهم) إلى النتيجة الحتمية وهي استحالة أن يكون في صاحبنا (محمد) شيء من الجِنّة. وأن صاحبنا ليس إلا نذير، لأنه يستطيع أن يرى ما يجري في الكون، ويستطيع أن يعلم متى يمكن أن يقترب العذاب من القوم.

السؤال: كيف علم محمد ذلك؟

رأينا المفترى: لأنه يستطيع أن ينظر في ملكوت السموات والأرض

الدليل

السؤال الأول: ما هو ملكوت السموات والأرض؟

جواب مفترى: لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بملكوت السماوات والأرض، لوجدناها قد وردت في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ٨٥ قُلۡ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبۡعِ وَرَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٨٧ قُلۡ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيۡهِ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ٨٩﴾ [المؤمنون: 84-89]
- ﴿فَسُبۡحَٰنَ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيۡءٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [يس: 83]
- ﴿أَوَلَمۡ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٖ وَأَنۡ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقۡتَرَبَ أَجَلُهُمۡۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَهُۥ يُؤۡمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]
- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]

ولو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لربما حق لنا أن نستنبط أن ملكوت السموات والأرض بيد الله وحده، ولكن يمكن لنا أن ننظر في ملكوت السموات والأرض بدليل قوله تعالى:

- ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 185]

وقد تحقق النظر في ملكوت السموات والأرض على أرض الواقع لإبراهيم:

- ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ٧٥﴾ [الأنعام: 75]

ليكون السؤال المحوري الآن هو: كيف تمت رؤية إبراهيم لملكوت السموات والأرض؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن النظر في ملكوت السموات والأرض هي التي تمكّن من ينظر في ذلك المراقبة عن كثب لما يجري في السموات والأرض.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نظن أن ملكوت السموات والأرض موجود في مكان ما، يمكن لنا نحن البشر العاديين (كما حصل مع إبراهيم) أن ننظر فيه، لنرى بأم أعيننا ما يجري في الكون كله.

السؤال: أين هو ملكوت السموات والأرض إذن؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: دعنا ندقق في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ١٨٤ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْۖ فَبِأَيِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ ١٨٥﴾ [الأعراف: 184-185]

لو تدبرنا هذه الآيات الكريمة، لربما وجدنا أن الحديث قد جاء موجها لمن هم حول صاحبنا (محمد) حينئذ، وأن الخطاب بالنظر في ملكوت السموات والأرض لم يأت موجها للناس كافة، وإنما جاء خاصا بمن كان حول محمد بدليل اللفظ (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ)، فلو كان الخطاب موجها للناس كافة، لجاء اللفظ على نحو (أفلم تنظروا)، ولكن لما كان الخطاب خاصا بمن كان حول محمد، فقد جاء اللفظ على نحو (أَوَلَمْ يَنظُرُواْ)، أليس كذلك؟

السؤال: ما الذي يمكن أن نستنبطه من هذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من أراد أن ينظر في ملكوت السموات والأرض، فعليه أن يكون متواجدا في ذلك المكان الذي كان يتواجد به من كان حول محمد حينئذ، أي لابد أن يكون ممن يسكن منطقة البيت الحرام (الكعبة). انتهى.

السؤال: لماذا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن النظر في ملكوت السموات والأرض يتم من هناك، أي من عند الكعبة.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن أن في الكعبة نفسها مكانا محددا بعينه، لو نظر الإنسان فيه، لربما استطاع الناظر (نحن نتجرأ على افتراء القول من عند أنفسنا) أن يرى ما يجري في الكون كله، لأنه يكون قد نظر بذلك في ملكوت السموات والأرض.

السؤال: وأين هو ذلك المكان؟

رأينا المفترى الخطير جدا: نحن نطلب من القارئ الكريم أن يتدبر قصة ما يعرف بين العامة وأهل العلم بـ "الحجر الأسود" الموجود في ركن من أركان البيت العتيق، لنطرح من خلال ذلك التساؤلات التالية:

- ما سر الحجر الأسود في الكعبة؟
- ما سر أن يبدأ الطواف حول البيت من هناك؟
- ما الحكمة في أن يقترب الشخص من هذا الحجر باللمس؟
- ما سر أن يقف الإنسان هناك ويطيل النظر في ذلك الحجر؟
- ما سر أن يطوف الناس بذلك البيت سبعة أشواط؟
- الخ.

عودة على بدء: قصة الحج – رؤية جديدة

غالبا ما ظن الناس أن مناسك الحج وشعائره تأتي في باب الإيمان بالغيبيات، وأنها تقع في باب العقائد التي قلما دعت الحاجة إلى تدبرها، فظنوا أنهم بحاجة أن يؤدوا هذه المناسك يقوموا بهذه الشعائر فقط من أجل الإتباع الذي قد لا يقع في باب التدبر الحقيقي الذي يفضي (لا محالة إن صح) إلى نتائج عملية ملموسة على أرض الواقع. فطبق الناس مناسك الحج وشعائره، ورصدوا الأجر في ذلك لما سيتحصل لهم في يوم الدين من الأجر العظيم، فكأن لسان حالهم يقول (نحن نزعم القول) بأننا نقوم بهذه الشعائر مقابل الأجر الذي سنحصل عليه من جراء ذلك في يوم الدين. وأن هذا الحج لن يكون له أثر ملموس في حياتنا الدنيا. ولو تحصل أثر ملموس في الحياة الدنيا، فربما لن يكون أكثر من زيادة في إيمان الشخص الذي يطبق تلك المناسك والشعائر (أي الحاج نفسه) كما طًلبت منه.

الفكر البديل: نحن نظن أنه لو صحّ منطق سادتنا العلماء هذا، لربما انتفت الحاجة إلى المجيء إلى هذا المكان على وجه التحديد، ولربما تحققت هذه العبادة (أي الحج) في أي مكان آخر. لكن هنا يجب أن يثار التساؤل الكبير التالي: ما الحكمة من المجيء إلى هذا المكان على وجه التحديد لأداء مناسك الحج وشعائره؟ وهل يمكن أن تتحقق الغاية المنشودة من الحج في غير هذا المكان على وجه التحديد؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، نحن نظن أنه مادام أن الحج لله وحده، فلا يمكن أن يتم إلا بالقدوم إلى هذا المكان على وجه التحديد:

- ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٩٧﴾ [آل عمران: 97]

ليكون السؤال الآن هو: ما سر القدوم إلى هذا المكان لأداء مناسك الحج وشعائره؟ أو بكلمات أكثر دقة نحن نسأل: ما الغاية من أداء مناسك الحج وشعائره في هذا المكان على وجه التحديد؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو تفقدنا الآيات الكريمة التالية، لوجدنا أن الله قد جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه؟

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢ لَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى ثُمَّ مَحِلُّهَآ إِلَى ٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٣٣ وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَلَهُۥٓ أَسۡلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُخۡبِتِينَ ۝٣٤ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ عَلَىٰ مَآ أَصَابَهُمۡ وَٱلۡمُقِيمِي ٱلصَّلَوٰةِ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣٥ وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ۝٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمۡ لِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٣٧﴾ [الحج: 27-37]
- ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡفُلۡكَ تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٦٥ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ

﴿٦٦ لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج: 65-67]

ليكون السؤال الآن هو: ما هو المنسك؟ ولماذا جعل الله لكل أمة منسكا هم ناسكوه (لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ) ؟

رأينا المفترى: قبل محاولتنا الإجابة على هذا التساؤل، فإننا نجد لزاما التعرض لمفردات الآية نفسها، لنتفقدها من خلال ما جاء بها، قال تعالى:

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج: 67]

فالآية الكريمة تؤكد الحقائق التالية:

1. أن الله جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه (لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ)
2. أن الطلب الإلهي جاء بعدم منازعة الرسول في الأمر (فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ)
3. أن الطلب الإلهي جاء لمحمد بالدعوة إلى ربه (وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ)
4. أن التأكيد الرباني جاء لمحمد بأنه على هدى مستقيم (إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ)

لذا، نحن نحاول أن نتدبر هذه الحقائق تباعا. ولنبدأ بالطلب الإلهي بعدم منازعة الرسول في الأمر (فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ). فما معنى ذلك؟ نحن نسأل.

رأينا المفترى: لو تفقدنا مفردة المنازعة في السياقات القرآنية، لوجدنا أن الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها) ترشدنا بحول الله وتوفيقه إلى مبتغانا، قال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥٓ إِذۡ تَحُسُّونَهُم بِإِذۡنِهِۦۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ ثُمَّ صَرَفَكُمۡ عَنۡهُمۡ لِيَبۡتَلِيَكُمۡۖ وَلَقَدۡ عَفَا عَنكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٥٢﴾ [آل عمران: 152]

فهذه الآية الكريمة تبين لنا (ربما بما لا يدع مجالا للتأويل) بأن المنازعة لا تحصل إلى بوجود أكثر من رأي في قضية مطروحة للنقاش مطلوب فيها اتخاذ قرار كما حصل مع الفريقين اللذين تنازعا في أمر فتية الكهف (إِذۡ يَتَنَٰزَعُونَ بَيۡنَهُمۡ أَمۡرَهُمۡۖ):

- ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْۖ فَقَالُواْ ٱبْنُواْ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًاۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ٢١﴾ [الكهف: 21]

فلقد كانت المنازعة محتملة عندما كان هناك أكثر من رأي في الأمر، مادام أن هناك فريقين: فريق غلب الفريق الآخر، فكان هذا الفريق الغالب هو صاحب القول الفصل، فكان هو صاحب القرار باتخاذ المسجد على فتية الكهف (قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا).

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المنازعة قد حصلت في زمن الرسول فكان هناك من عنه رأي يختلف عن رأي الرسول نفسه. حاول عزيزي القارئ – إن شئت- أن تتدبر الآية الكريمة مرة أخرى من هذا المنظور:

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ ٦٧﴾ [الحج: 67]

والله هو من بيّن لنا بأنه إن حصلت مثل هذه المنازعة، فإن القرار الصائب هو النزول عند رأي الرسول، قال تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩﴾ [النساء: 59]

وبخلاف ذلك، سيكون الفشل هو النتيجة الحتمية:

- ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًاۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٤٣﴾ [الأنفال: 43]
- ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ٤٦﴾ [الأنفال: 46]

وليس أدل على ذلك مما حصل مع من كان في منازعة في زمن نبي الله موسى، قال تعالى:

- ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ٦٢﴾ [طه: 61-62]

ومادام أن هؤلاء القوم قد أسروا النجوى، فهم إذن (نحن نتخيل) قد اتخذوا القرار بمعصية الرسول (موسى):

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَنَٰجَيۡتُمۡ فَلَا تَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَمَعۡصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوۡاْ بِٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ۝٩﴾ [المجادلة: 9]

السؤال: ما علاقة هذا كله بالآية الكريمة قيد التدبر:

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحج: 67]

رأينا المفترى: مادام أن الآية الكريمة تتحدث عن المنسك، فإن الخلاف (كما نتخيله) كان بين فريقين، فكان الفريق الأول هو فريق الرسول نفسه وكان الفريق الآخر هو الذي نازع الرسول في الأمر، وكان جل المنازعة (نحن نزعم الظن) حول ذلك المنسك، فكان لابد من اتخاذ القرار الصائب الذي لا شك هو قرار الرسول نفسه.

السؤال: كيف حصلت المنازعة بينهم حول المنسك؟ وما هو المنسك الذي اختلف القوم فيه؟ وكيف فَضّ الخلاف في ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا غريبة جدا: تروي لنا كتب السيرة قصة وضع الحجر الأسود في مكانه، وإذا كنا نصدق الرواية بمجملها، إلا أننا نتجرأ على المخالفة في تفصيلاتها. فنحن نتخيل الأمر قد حصل على أرض الواقع على النحو التالي: كان الحجر الأسود هو المنسك الذي اختلف قوم محمد فيه، وكان الخلاف (على غير ما جاء من عند أهل الدراية) قد دبّ بينهم في المكان المناسب الذي يجب أن يوضع فيه هذا الحجر. فكان لابد من وضع الحجر في مكانه الصحيح، وكان صاحب الحجة الصحيحة في ذلك هو محمد نفسه. فكان لابد للقوم جميعا أن ينزلوا عند قرار محمد في هذا الأمر، وبالفعل عمد محمد بنفسه إلى وضع ذلك الحجر في مكانه الصحيح. وما أن وضع محمد بنفسه ذلك الحجر في مكانه الصحيح (نحن لازلنا نتخيل) حتى جاءه التوجيه الإلهي بأن يدعو إلى ربه، وبذلك كان محمد على هدى مستقيم، قال تعالى:

- ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ۝٦٧﴾ [الحج: 67]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المنسك الذي جعله الله لهذه الأمة هو ذلك الحجر، ويمكن مقارنة هذا الأمر بما جعله الله للأمم السابقة، فمادام أن الله قد جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه، كان لابد من عقد المقارنة بين منسكنا الذي جعله الله لنا ومنسكهم الذي جعله الله لهم . فالطور (أو حائط المبكى) هو - برأينا - المنسك الذي جعله الله لأمة موسى، فكان هو إذن المكان الذي يؤمه أولئك القوم لأداء حجهم. لذا، نحن نتجرأ على افتراء الظن من عند أنفسنا بأن النسك هو أمر خاص بعبادة الحج. انتهى.

الدليل

لو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن النسك تختلف عن الصلاة، بدليل الربط والفصل بينهما في الآية الكريمة التالية:

- ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٦١ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام: 161-162]

ولو تفقدنا ما جاء في الآية الكريمة التالية أيضا، لوجدنا بأن النسك تختلف عن الصيام وعن الصدقة بدليل الربط والفصل بينهما، قال تعالى:

- ﴿وَأَتِمُّواْ ٱلۡحَجَّ وَٱلۡعُمۡرَةَ لِلَّهِۚ فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ وَلَا تَحۡلِقُواْ رُءُوسَكُمۡ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡهَدۡيُ مَحِلَّهُۥۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ بِهِۦٓ أَذٗى مِّن رَّأۡسِهِۦ فَفِدۡيَةٞ مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ فَإِذَآ أَمِنتُمۡ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلۡعُمۡرَةِ إِلَى ٱلۡحَجِّ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۚ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمۡ يَكُنۡ أَهۡلُهُۥ حَاضِرِي ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١٩٦﴾ [البقرة: 196]

ففعل النسك هو – برأينا- زيارة المنسك الذي جعله الله لكل أمة.

السؤال مرة أخرى: ما هو المنسك؟

رأينا المفترى: لو تفقدنا هذه السياقات القرآنية جميعا، لوجدنا بأنها تتحدث عن أركان الإسلام الرئيسية وهي:

⇐ الصلاة
⇐ الصدقات
⇐ الصيام
⇐ الحج

ليكون منطقنا المفترى من عند أنفسنا الآن على النحو التالي: إذا كانت الصلاة قد وردت مرتبطة بالنسك (قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي)، وإذا كانت النسك مرتبطة أيضا بالصدقات والصيام (مِّن صِيَامٍ أَوۡ صَدَقَةٍ أَوۡ نُسُكٖۚ)، فإننا نتجرأ على الظن بأن النسك هو فعل خاص بالحج. فكثير من أفعال الحج هي مناسك:

- ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ يَعۡلَمۡهُ ٱللَّهُۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٧ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ

وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝١٩٨ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١٩٩ فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ۝٢٠٠﴾ [البقرة: 197-200]

ونحن نتجرأ على الظن بأن مناسك الحج هي عبارة عن أماكن محددة بذاتها، وأن الذي يؤدي هذه المناسك هو الذي يقوم بزيارة هذه الأماكن، وليس أدل على هذا – برأينا- من الدعاء الخالد لإبراهيم وولده إسماعيل عندما رفعا القواعد من البيت، فإبراهيم وإسماعيل يطلبان من ربهما أن يريهم مناسكهم:

- ﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝١٢٧ رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٢٨﴾ [البقرة: 127-128]

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن مناسك الحج هي أماكن محددة يمكن أن ترى (وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا).

والدقة تستدعي منا أن نتدبر التفريق بين مناسك الحج من جهة وشعائر الحج من جهة أخرى، فلو دققنا في السياقات القرآنية التالية، لوجدنا الفصل واضح بين المناسك والشعائر:

- ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ۝١٥٨﴾ [البقرة: 158]
- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: 2]
- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ۝٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لۡيَقۡضُواْ تَفَثَهُمۡ وَلۡيُوفُواْ نُذُورَهُمۡ وَلۡيَطَّوَّفُواْ بِٱلۡبَيۡتِ ٱلۡعَتِيقِ ۝٢٩ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ وَأُحِلَّتۡ لَكُمُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡۖ فَٱجۡتَنِبُواْ ٱلرِّجۡسَ مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ وَٱجۡتَنِبُواْ قَوۡلَ ٱلزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيۡرَ مُشۡرِكِينَ بِهِۦۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخۡطَفُهُ ٱلطَّيۡرُ أَوۡ تَهۡوِي بِهِ ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٖ سَحِيقٖ ۝٣١ ذَٰلِكَۖ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ ۝٣٢﴾ [الحج: 27-32]

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

فهذه الآيات الكريمة ترشدنا بأن الصفا والمروة من شعائر الله (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ اللّهِ)، كما ترشدنا بأن البدن هي أيضا من شعائر الله (وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ).

وتبين لنا الآية الكريمة التالية بأن هناك في الحج ما يسمى بالمشعر الحرام:

- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

ولو دققنا في السياقات القرآنية جيدا، لربما صح لنا أن نقول بأن مناسك الحج هي الأفعال الإلزامية في الحج، بينما الشعائر هي – برأينا- من الأعمال التطوعية التي تجلب لنا الفضل من ربنا، فليس علينا جناح أن نطوف بالصفا والمروة لأنهما من شعائر الله، فهذه أفعال خاصة بالحج والعمرة:

- ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنۡ حَجَّ ٱلۡبَيۡتَ أَوِ ٱعۡتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: 158]

وكذلك هي البدن من شعائر الله، فهذه ليست إلزامية على كل حاج، وإنما هي من الشعائر التي لنا فيها الخير:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

وليس علينا جناح أن نذكر الله عند المشعر الحرام بعد الإفاضة من عرفات:

- ﴿لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ فَإِذَآ أَفَضۡتُم مِّنۡ عَرَفَٰتٖ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلۡمَشۡعَرِ ٱلۡحَرَامِۖ وَٱذۡكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمۡ وَإِن كُنتُم مِّن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

ولو تفقدنا هذه النصوص السابقة جميعا، لوجدنا بأن الشعائر منسوبة لله (شَعَآئِرِ ٱللَّهِ)، بينما النسك منسوبة لنا (مَنَاسِكَنَا ، مَّنَٰسِكَكُمۡ)

- ﴿فَإِذَا قَضَيۡتُم مَّنَٰسِكَكُمۡ فَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكۡرِكُمۡ ءَابَآءَكُمۡ أَوۡ أَشَدَّ ذِكۡرٗاۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا وَمَا لَهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنۡ خَلَٰقٖ ٢٠٠﴾ [البقرة: 200]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية مرة أخرى، لوجدنا بأن الطواف بالصفا والمروة (التي هي من شعائر الله) يقع في باب التطوع:

- ﴿۞ إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ١٥٨﴾ [البقرة: 158]

لكن بالمقابل فإن زيارة البيت العتيق، والوقوف بعرفات في يوم الحج الأكبر، فهي أفعال (نظن أنها تقع في باب أداء المناسك، لذا فهي أفعال إلزامية خاصة بالحج، فلا يصح الحج بدونها.

السؤال: ما الغاية من وجود المناسك؟ وما الغاية من وجود الشعائر؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الغاية من الشعائر هو جلب الفضل:

- ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾ [البقرة: 198]

لذا، يقع تعظيم شعائر الله في باب تقوى القلوب:

- ﴿ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ٣٢﴾ [الحج: 32]

ومادام أن الشعائر لها علاقة بتقوى القلوب، فإن ذلك هو ما يناله الإله منا:

- ﴿وَٱلْبُدْنَ جَعَلْنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَآفَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْقَانِعَ وَٱلْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَٰهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ٣٦ لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ ٣٧﴾ [الحج: 36-37]

لذا، نحن نتجرأ على القول بأن أفعال الحج تنقسم إلى قسمين رئيسيين، هما:

1. أفعال يعود مردودها إلى الله، وهذه هي الشعائر التي ينال الله منا التوى بسببها
2. أفعال يعود مردودها إلى الإنسان نفسه، وهذه هي المناسك

لذا، نحن نتجرأ على الظن بأن ما يستفيده الإنسان في آخرته هو ما ينتج من تقوى من أداءه الشعائر (لأن الشعائر مضافة إلى الإله نفسه: شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ). بينما ما يستفيد منه الإنسان في دنياه، فهو ناتج عن ما ينتج من قيامه بتلك المناسك (لأن المناسك منسوبة للشخص نفسه: مَنَاسِكَنَا ، مَّنَٰسِكَكُمْ)

السؤال: وكيف يكون ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: دعنا ندقق في الآية الكريمة التي تتحدث عن البدن، قال تعالى:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

فالله إذن يطلب منا أن نأكل من البدن متى وجبت جنوبها، كما يطلب منا أن نطعم منها القانع والمعتر، ليكون السؤال هو: لماذا؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما يكون الناس في حج، فإن من شعائر الحج هي تلك البدن، أي بهيمة الأنعام التي رزقنا الله إياها، فواحدة من موجبات الحج هي شكر الله على ما رزقنا من بهيمة الأنعام:

- ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٖ ٢٧ لِّيَشۡهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمۡ وَيَذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ فِيٓ أَيَّامٖ مَّعۡلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلۡأَنۡعَٰمِۖ فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡبَآئِسَ ٱلۡفَقِيرَ ٢٨﴾ [الحج: 27-28]

وقد طلب الله منا أن نذكر اسمه عليها مادامت صواف:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

ونحن نفهم ذلك على نحو ذكر اسم الله عليها مادامت لم تسلخ بعد عن جلدها، أي مازالت صواف، ولكن ما أن يتم ذبحها وسلخ الجلد عنها حتى تصبح بدن، أي بدنا خالصا، فقد جاء قول الله بخصوص نجاة فرعون على النحو التالي:

- ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنۡ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ٩٢﴾ [يونس: 92]

فقد نجىّ الله فرعون، فكان بدنا خالصا، فما كان له جسم:

- ﴿۞ وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤﴾ [المنافقون: 4]

فمادام الشخص جسما، فهو إذن يستطيع القول، ولكن ما أن يصبح جسدا حتى لا يقوى على الكلام، وإن كان له صوت كخوار العجل الذي لم يكن أكثر من جسد:

- ﴿وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأعراف: 148]
- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 88]

والجسد لا يستطيع أكل الطعام:

- ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾﴾ [الأنبياء: 8]

فعجل السامري كان جسدا لأن له خوار، لكنه لا يستطيع الكلام (أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ) ولا أكل الطعام مادام أنه أصلا جسدا (جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ)، لذا كان ما ألقي على كرسي سليمان ليس أكثر من جسد:

- ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: 34]

فهو إذن لا يستطيع الكلام (وإن كان له صوت كالخوار) ولا يستطيع أكل الطعام (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان مادلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته).

لكن ما أن يكون بدنا حتى يكون قادرا على الأكل، لكنه لا يقوى على الكلام حتى وإن كان له خوار، كبهيمة الأنعام مثلا التي تكون صواف. ولكن ما أن يتم ذبحها وسلخ الجلد عنها حتى تصبح قد وجبت جنوبها:

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: 36]

وهنا نستطيع أن نأكل منها ونطعم القانع والمعتر. ليكون السؤال هو: لماذا جاء الأمر الإلهي لنا بالأكل من هذه البدن إذا ما وجبت جنوبها؟ ولماذا أمرنا الله أن نطعم منها القانع والمعتر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن محاولة الإجابة على هذا التساؤل (في نطاق منطقنا المفترى من عند أنفسنا هذا) يعيدنا من جديد إلى قضية فقه الأضحية الذي تعرضنا له سابقا، محاولين أن نسطّر فهمنا المفترى من عند أنفسنا لهذه الشعيرة الكبيرة التي شرعها الله لنا في يوم النحر.

باب الأضحية مرة أخرى

تأتي هذه الشعيرة في يوم العيد الذي يعتبر يوم الجائزة للحاج، فبعد أن يتم الحاج مناسك الحج يقوم بتقديم الأضحية، كشعيرة متوجة لمناسك الحج التي قام بها. ليكون السؤال على الفور هو: لماذا؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الأضحية هي عبارة عن شعيرة تتيح للحاج الاحتفال بتلك الجائزة التي قدموا من كل فج عميق للحصول عليها من ربهم مباشرة في أيام الحج. فالله هو من فرض الحج على عباده كفعل تعبدي خاص بالله نفسه، بدليل قوله تعالى بأن لله على الناس حج البيت:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [آل عمران: 96-97]

فيقوم الحاج بزيارة الله في بيته المحرم:

- ﴿رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [إبراهيم: 37]

فيكون الحاج هو الزائر، ويكون الله هو المزور، فيتم الحاج مناسك الحج كلها، وما أن يتمها على الوجه المطلوب حتى تكون النتيجة الحتمية انتظاره الجائزة من ربه مباشرة، وما أن يحصل الحاج على هذه الجائزة في يوم الحج الأكبر:

- ﴿وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾ [التوبة: 3]

حتى تكون الفرحة قد تمت، ويعبر الحاج عن فرحته هذه بالنحر، فيقدم الأضحية التي طًلب منه أن يأكل هو منها وأن يطعم كذلك القانع والمعتر.

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: 36]

السؤال: لماذا يطلب من الحاج أن يأكل منها ويطعم القانع والمعتر؟

جواب مفترى: لما كانت الأضحية هي علامة احتفالية بمناسبة سعيدة، فإن الأكل منها لا يقع في باب الصدقات التي تقدم للفقراء والمساكين وغيرهم ممن توجب لهم الصدقات، كما جاء في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٩﴾ * إِنَّمَا

ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 58-60]

فمادام أن المناسبة سعيدة، وهي الاحتفال بالفرحة الكبرى، فإن الأكل منها له شرف كبير، فحري بالمسلم أن يشارك أكبر قدر ممكن من الناس فرحه، لذا يحرص على إطعام أكبر قدر ممكن منهم (سواء كان قانعا أو معترا) من تلك الوليمة الاحتفالية. وحري بكل مسلم أن يجتهد بأن يوزعها على أكبر قدر ممكن من الناس، وعلى الجميع أن يحرصوا على الأكل منها، لأنها لا تقع في باب الصدقات، بل هي مناسبة احتفالية على شرف الإله نفسه، فالله لن ينال لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منها. وما دام أن هذه الأضحية قد نال الله منها التقوى من عباده، فهي إذن لا محالة مباركة، والأكل منها فيه خير كبير لا يجب أن يفوته أي مسلم مؤمن بربه.

السؤال: ما هي تلك الجائزة التي نالها المسلم بعد أداء مناسك الحج وتوجها بالأضحية؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: بداية، لابد أن نسطر الافتراء الخطير التالي الذي هو من عند أنفسنا ومفاده أن الله يعطي. انتهى.

السؤال: ما الذي يمكن أن يعطيه الله لنا؟

جواب مفترى: لابد أن نسطر الرأي التالي للتميز بأن العطاء والإتيان، فالله هو من يعطي والله هو من يؤتي، لكن ما الفرق بين أن يؤتيك الله شيئا وأن يعطيك الله شيئا؟

رأينا المفترى: تعرضنا لهذه الجزئية في جزء سابق من المقالة، وزعمنا الظن بأن العطاء يكون دفعة واحدة بينما يكون الإتيان تدريجيا. (للتفصيل انظر الأجواء السابقة)

السؤال: ما الذي يمكن أن يعطيه الله لنا عطاء (أي جملة واحدة)؟

جواب مفترى: لو رجعنا إلى قصة النبي الكريم مع ربه، لوجدنا الآيات التالية تسطر وعدا إلهيا لمحمد بالعطاء المستقبلي، قال تعالى:

- ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥﴾ [الضحى: 5]

فهذا وعد إلهي لمحمد بأن يعطيه شيئا محددا في المستقبل، ولو تفقدنا هذه الآية الكريمة في سياقها الأوسع، لوجدنا أن محمدا في تلك اللحظة قد كان ضالا عندما وجده الله:

- ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ٥ أَلَمۡ يَجِدۡكَ يَتِيمٗا فَـَٔاوَىٰ ٦ وَوَجَدَكَ ضَآلّٗا فَهَدَىٰ ٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلٗا فَأَغۡنَىٰ ٨ فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنۡهَرۡ ١٠ وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 5-11]

والله هو من طلب من محمد في هذا السياق القرآني أن يحدث بنعمة ربه:

- ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 11]

ولو تفقدنا الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن محمدا لم يكن مجنونا بنعمة ربه:

- ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ [القلم: 2]

السؤال: كيف ولماذا ربطت نعمة الله لمحمد بنفي الجنون عنه؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما كانت نعمة الله لا تحصى:

- ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: 18]

فإننا نتجرأ على الظن بأن نعمة الله كثيرة، بدليل أنها لا تحصى، أليس كذلك؟

السؤال المربك لنا: كيف إذن يطلب الله من محمد أن يحدث بنعمة ربه مادام أن نعمة الله لا تحصى؟

- ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 11]

جواب مفترى من عند أنفسنا: تعرضنا لهذه القضية في مقالات سابقة لنا، وافترينا الظن بأن مفردة نعمة في السياق القرآني تطلق على النعمة الواحدة والنعمة الكثيرة، فهي إذن مفرد وجمع معا، كما في الجدول التوضيحي التالي:

مفرد (نعمة)	جمع (نعمة)
﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 11]	﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨﴾ [النحل: 18]

فالنعمة الواحدة تسمى نعمة، والنعمة الكثيرة تسمى نعمة أيضا. وبهذا المنطق المفترى يمكننا أن نفهم (إن صح منطقنا) قوله تعالى:

- ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ ١١﴾ [الضحى: 11]

فهناك نعمة واحدة محددة طلب الله من محمد أن يحدث بها، وهناك نعمة واحدة ربطت بنفي الجنون عن محمد:

- ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ [القلم: 2]

السؤال: ما هي تلك النعمة المحددة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن من بين جميع نعمة الله التي أنعمها على محمد، هناك نعمة واحدة اختص الله بها محمدا، وطلب منه أن يحدث بها، وهي ذاتها (برأينا) التي ارتبط فيها نفي الجنون عن محمد.

السؤال الآن هو: ما هي تلك النعمة؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن تلك النعمة يمكن أن يتم التحدث بها، ولا يستطيع أن يتحدث بها على الوجه الصحيح شخص آخر غير محمد، ونفتري أيضا بأنه ما أن يقوم محمد بالتحدث بتلك النعمة حتى تكون ردة فعل من حوله الظن بأن محمدا قد أصابه شيء من الجنون:

- ﴿مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢﴾ [القلم: 2]

السؤال: ما هي تلك النعمة؟ لقد أهلكتنا بالمراوغة في الكلام ربما يريد صاحبنا أن يقول.

جواب مفترى من عند أنفسنا: لكي تستبين عزيزي القارئ وجاهة ما نحاول الوصول إليه، فعليك أن تأخذ هذه الآية في سياقها الأوسع، قال تعالى:

- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ٢ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤ فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ٥ بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ٦ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ٧ فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٨ وَدُّواْ لَوۡ تُدۡهِنُ فَيُدۡهِنُونَ ٩ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ١٣ أَن كَانَ ذَا مَالٖ وَبَنِينَ ١٤ إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ١٥﴾ [القلم: 1-15]

ولو حاولنا تدبر هذا السياق القرآني الذي وردت فيه هذه الآية الكريمة، لوجدنا الحقائق التالية:

⇐ جاءت هذه الآية مسبوقة بالآية الكريمة التالية:

- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ١﴾ [القلم: 1]

⇐ لحقت هذه الآية الآيةُ الكريمة التي تتحدث عن الأجر غير المنون الذي سيحصل عليه محمد جراء التحدث بهذه النعمة

- ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ٣﴾ [القلم: 3]

⇐ ارتبطت هذه الآية بالخلق العظيم لمحمد

- ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: 4]

⇐ ارتبطت هذه الآية بالإبصار المتوقع لمحمد مقابل إبصارهم المتوقع:

- ﴿فَسَتُبۡصِرُ وَيُبۡصِرُونَ ۝٥﴾ [القلم: 5]

⇐ ارتبطت هذه الآية بحتمية وقوع الفتنة لطرف دون طرف:

- ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلۡمَفۡتُونُ ۝٦﴾ [القلم: 6]

⇐ ارتبطت هذه الآية بعلم الله بمن ضل عن سبيله وبعلمه كذلك بالمهتدين:

- ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ۝٧﴾ [القلم: 7]

⇐ ارتبطت هذه الآية بالتوجيه الإلهي لمحمد بعدم إطاعة المكذبين:

- ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ۝٨﴾ [القلم: 8]

⇐ الخ

⇐ ارتبطت هذه الآية بتلاوة الآيات من قبل محمد، وهي الآيات التي نعتها من يسمعها بأنها ليست أكثر من أساطير الأولين:

- ﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝١٥﴾ [القلم: 15]

السؤال: ما هي إذن تلك النعمة الخاصة بمحمد التي ربطها البعض باحتمالية أن يكون محمد مجنونا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نظن أن تلك النعمة الخاصة التي طلب الله من محمد أن يحدث بها (وربطها البعض باحتمالية حصول الجنون عند محمد) هي العلم الذي أودعه الله في محمد على وجه التحديد.

السؤال: ما هو ذلك العلم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن لهذا علاقة مباشرة بما جاء في الآية الأولى من هذه السورة العظيمة، وهي قوله تعالى:

- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ۝٢﴾ [القلم: 1-2]

السؤال: ماذا يعني ذلك؟ لم أفهم، ربما يريد صاحبنا أن يسأل.

رأينا المفترى: نحن نظن أن لهذا علاقة بمباشرة بـ (نٓ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ). فنحن نفهم أن تلك النعمة لها علاقة أولا بـ (ن) ثم بـ (وَٱلۡقَلَمِ) ثم بـ (وَمَا يَسۡطُرُونَ).

السؤال: ما معنى ذلك؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا بأن المقارنة قد عقدت بين محمد من جهة وصاحب الحوت من جهة أخرى:

- ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ ۝٤٨﴾ [القلم: 48]

ولو دققنا أكثر في السياق القرآني، لوجدنا الآية تحث محمد على الصبر، أي عدم الاستعجال، حتى لا يكون كصاحب الحوت. ولو حاول ربط هذا الكلام بالآية الكريمة التالية التي تتحدث عن صاحب الحوت، لوجدنا بأنه هو نفسه ذو النون:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

فصاحب الحوت هو إذا ذو النون، أليس كذلك؟

ولو دققنا في السياق القرآني أكثر، لوجدنا بأن (ن) قد ارتبطت بـ (وَالْقَلَمِ) وبـ (وَمَا يَسْطُرُونَ):

- ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١﴾ [القلم: 1]

ولو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله يطلب من نبيه أن يذكر، وفي الوقت ذاته يثبت للجميع بأن محمدا ليس بكاهن ولا مجنون:

- ﴿فَذَكِّرۡ فَمَآ أَنتَ بِنِعۡمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٖ وَلَا مَجۡنُونٍ ۝٢٩﴾ [الطور: 29]

السؤال: ما هي نعمت الله التي يطلب الله من محمد أن يذكر بها، ويثبت لنا بأنه متى قام محمد بذلك لا يجب أن ينعت تذكيره بأنه يقع في باب ما يقوم به الكاهن أو من قبل ما يقوم به المجنون.

فما يقوم به الكاهن يقع في باب التنبؤ بأحداث مستقبلية، وما يقوم به المجنون يحدث بسبب المس من الشيطان، أي من به جنّة. ومادام أن محمدا ليس بكاهن ومادام أن محمد ليس به جنّة، فإن ما يقوله محمد يقع في باب الحق الذي أكثرهم له كارهون:

- ﴿أَمۡ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةُۢۚ بَلۡ جَآءَهُم بِٱلۡحَقِّ وَأَكۡثَرُهُمۡ لِلۡحَقِّ كَٰرِهُونَ ۝٧٠ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ ۝٧١﴾ [المؤمنون: 70-71]

ولو تدبرنا قولهم بأن في محمد جنّة، لوجدناه قد ارتبط بخسف الأرض أو إسقاط السماء كسفا:

- ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾ [سبأ: 8-9]

السؤال: ما هي إذن تلك النعمة التي طلب الله من محمد أن يحدث بها، وأن يذكر بها:

- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11]
- ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: 29]

جواب مفترى: نحن نظن أنها هي تلك الأعطية التي وعد الله به نبيه من ذي قبل:

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]

السؤال: ما الذي وعد الله نبيه محمدا أن يعطيه إياها؟ وهل فعلا أعطاه أياها لاحقا؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: لو تفقدنا القرآن كله لنبحث عن ما أعطاه الله محمد (جملة واحدة)، وجاء بنص اللفظ القرآني بصيغة العطاء، لما وجدنا إلا ما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾﴾ [الكوثر: 1-3]

تساؤلات

⇐ ما هو الكوثر؟
⇐ لماذا أعطى الله نبيه الكوثر؟
⇐ متى أعطى الله نبيه الكوثر؟
⇐ لماذا طلب الله من نبيه أن يصلي بعد أن أعطاه الكوثر مباشرة؟
⇐ لماذا طلب الله من نبيه أن ينحر بعد أن أعطاه الكوثر مباشرة؟
⇐ لماذا ارتبط هذا العطاء بكل من كان شانئ للنبي؟
⇐ وكيف يكون شانئ النبي هو الأبتر؟
⇐ وهل كان هذا العطاء مرضيا لمحمد كما وعده الله من قبل؟

- ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾﴾ [الضحى: 5]

⇐ الخ.

بعيدا عن التأويلات المجازية التي ظهرت مع توالي الأيام عند الفرق الإسلامية المختلفة حول هذه السورة العظيمة (أي سورة الكوثر)، فإننا نحاول افتراء القول بأن الذي وعد الله نبيه به من ذي قبل (وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ) وبالفعل أعطاه الله لنبيه لاحقا كان هو الكوثر (إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ)، وهذا العطاء كان مرضيا لمحمد، ولم يكن محمد ليرضى بأقل من ذلك العطاء الإلهي المباشر له، وأن هذا العطاء هو ما جعل محمدا في صلة دائمة مع ربه، بينما يجعل كل شانئ لمحمد هو الأبتر، أي المقطوع الصلة بربه. وما أن حصل محمد على هذا العطاء العظيم حتى كانت فرحته قد تمثلت بالصلاة لربه (فَصَلِّ لِرَبِّكَ) وبالنحر (وَٱنْحَرْ).

السؤال: ما هو ذلك الكوثر الذي أعطاه الله لمحمد؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الكوثر الذي أعطاه الله لمحمد هو ليس أكثر من كأس (أو إبريق)، ولكنه كأس الفوز (أي الجائزة الكبرى)، وهو – برأينا- عبارة عن "كأس" يستقي منه محمد العلم الإلهي، أي نافورة العلم الإلهي. فلقد حاز محمد على العلم الإلهي، فمن كان موصولا بذلك الكأس وشرب منه، فهو إذن من الموصولين بربهم، ومن كان شانئ لمحمد، غير راغب بالشرب من ذلك الكأس، فهو لا محالة أبتر.

افتراء خطير جدا من عند أنفسنا: نحن نظن أن ذلك الكوثر هو النعمة المحددة التي طلب الله من نبيه أن يحدث بها:

- ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: 11]

كما نفتري القول من عند أنفسنا أنه ما أن حاز محمد على تلك النعمة حتى كان قادرا على أن يُذكِّر:

- ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾﴾ [الطور: 29]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن محمدا كان قادرا على أن يحدث بنعت ربه تلك لأنه قد حاز على الكوثر، فكان قادرا على التذكير، لأن الله هو من نزل الذكر على عبده ليبين لهم ما نزل إليهم من ربهم:

- ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل: 44]

(دعاء: اللهم أسألك وحدك أن أكون أول من يشرب من ذلك الكأس، فلا يكون أبترا- آمين).

وهنا نتوقف عن قضية مفصلية في التنزيل تعرضنا لها سابقا، ولازلنا نظن أن لها تبعات جمة في التفكير العقائدي المبني على هذا الكتاب العظيم، ألا وهي التمييز بين كل ما أنزل إلى محمد، فنحن نعتقد أن ما أنزل على محمد هو على النحو التالي:

1. الكتاب
2. القرآن
3. الذكر

وهنا يجدر بنا الإشارة إلى أن الكتاب هو ما أنزل على محمد باللغة الإلهية (الوحي). فقام محمد بتفصيل ذلك الكتاب قرآنا عربيا بلسان قومه، ولكن حتى يكون هذا الكتاب وهذا القرآن تبيانا لكل شيء كان لابد من ربط الآيات بعضها ببعض بطريقة محكمة، فكان الذكر. والله هو من يسر الذكر لكل من أراده، فقال تعالى:

- ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٧﴾ [القمر: 17]

فإن أنت كنت من المدكرين، وأردت تبيان أي حقيقة من كتاب الله، فما عليك إلا أن تتبع خيوط الشبكة العنكبوتية في كتاب الله، وذلك بربط الآيات بعضها ببعض، فهذه هي – برأينا - الطريقة المثلى للاستنباط، التي ستبين لك كيف أن هذا القرآن محكم في تفصيله لكل شي:

- ﴿... مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ٣٨﴾ [الأنعام: 38]
- ﴿... وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا ١٢﴾ [الإسراء: 12]

مثال: دعنا نطرح التساؤل المبدئي التالي: لماذا لم تتكشف حقائق القرآن الكونية التي تخرجنا من الظلمات إلى النور بعد أكثر من ألف وأربعمائة عام من التنزيل بالرغم أن الله قد بين لنا أنه ما فرط في الكتاب من شيء وبالرغم أن الله قد بين لنا بأن كل شيء مفصل في كتابه تفصيلا؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب الذي منعنا من اكتشاف حقائق القرآن العظيمة (كالقضايا الخاصة بالحج التي نتعرض لها في سلسلة مقالاتنا هذه) حتى الساعة لها علاقة مباشرة بالآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَيَوۡمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيۡهِ يَقُولُ يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا ٢٧ يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا ٢٨ لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا ٢٩ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 27-30]

فنحن نفهم هذه الآيات على نحو أن الناس قد ضلوا عن الذكر، فلو تتبع الناس الذكر في كتاب الله (كما يجب) لتوصلوا – لا محالة- إلى حقائق عظيمة، ربما يصعب على العقل البشري الحالي أن يتخيلها، فالذين ضلوا عن الذكر هم الذين لم يتخذوا مع الرسول سبيلا (يَٰلَيۡتَنِي ٱتَّخَذۡتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلٗا)، وآثروا

اتخاذ الخليل الذي أضلهم عن الذكر (يَٰوَيۡلَتَىٰ لَيۡتَنِي لَمۡ أَتَّخِذۡ فُلَانًا خَلِيلٗا)، وهو الذي أضلهم عن الذكر (لَّقَدۡ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكۡرِ بَعۡدَ إِذۡ جَآءَنِيۗ)، وكان هذا كله يقع في باب خذلان الشيطان لهم (وَكَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لِلۡإِنسَٰنِ خَذُولٗا).

ليكون السؤال الآن هو: لماذا ضل الناس عن الذكر؟ وكيف حصل ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول بأن الإجابة على هذا التساؤل ربما يمكن استنباطها من الآية الكريمة الأخيرة التي جاءت في هذا السياق القرآني وهي قوله تعالى:

- ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: هل هناك أمة على وجه الأرض تحفظ كتابها كما تحفظ هذه الأمة القرآن؟ ألا نجد الأطفال من أبناء المسلمين يحفظون القرآن نصا كاملا من أوله لآخره عن ظهر قلب؟ فهل هناك أمة أخرى تفعل ذلك غير أمة المسلمين؟ ثم، ألا نجد أبناء المسلمين (صغيرهم وكبيرهم، عالمهم ومتعلمهم) يقرؤون كتاب الله ليلا ونهارا؟ ألا نجدهم يستخدمون آيات الكتاب في كل حادثة؟ ألا يقتبسون من القرآن أكثر من أي مصدر آخر للمعلومة؟

منطقنا المفترى: إن كان هذا هو حال أبناء المسلمين مع القرآن، فكيف إذا نجد النبي يشتكي إلى ربه أن قومه قد اتخذوا هذا القرآن مهجورا؟

- ﴿وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا ٣٠﴾ [الفرقان: 30]

السؤال المحوري: هل فعلا هجر قوم الرسول محمد القرآن؟

جواب مفترى: نعم، بالرغم من كثرة أبناء المسلمين الذين يحفظون القرآن، وبالرغم من القراءة المتكررة لهذا الكتاب من قبل الغالبية الساحقة من أبناء الإسلام على مر الزمان، إلا أنهم اتخذوا القرآن فعلا مهجورا.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: لكي نفهم شكوى الرسول إلى ربه، فعلينا أن ندقق في مفردات الآية الكريمة نفسها، فالآية الكريمة ترشدنا أن الذين هجروا القرآن هم قوم الرسول (إِنَّ قَوۡمِي ٱتَّخَذُواْ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ مَهۡجُورٗا)، أليس كذلك؟

السؤال: وما الفرق؟

جواب مفترى: دعنا إذن نطرح التساؤل التالي: من هم قوم الرسول؟ هل هم من بعث لهم الرسول كما يمكن أن نفهم عند قراءة هذه الآية الكريمة الوهلة الأولى؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، نحن نظن أن علينا التمييز بين قوم الرسول من جهة ومن بعث لهم الرسول من جهة أخرى. فالله قد بعث محمدا للناس كافة، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ: 28]

فمحمد إذن مبعوث من الله للناس كافة، أليس كذلك؟ فمن هم إذا قوم الرسول الذين اتخذوا هذا القرآن مهجورا؟

جواب مفترى: لو دققنا في الآية الكريمة التالية، لوجدنا أن قوم الرسول هم فقط من كان الرسول يتحدث بلسانهم، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٤﴾ [إبراهيم: 4]

لتكون النتيجة المفتراة الخطيرة جدا جدا التي سيكون لها تبعات جمة (إن صحت) هي أن الذين هجروا القرآن هم قوم الرسول فقط، أي من كان الرسول محمد يتحدث بلسانهم، أي الأعراب، وليس كل من بعث لهم الرسول.

فالحال التي نحن عليها من هجران للقرآن هي بسبب الأعراب الذين هجروا هذا القرآن، وهم قوم الرسول محمد، فما دام هذا القرآن حبيس سجن الأعراب، ومادام أن الأعراب هم وكلوا أنفسهم مهمة فهم هذا الكتاب ثم تصدير أفهامهم إلى الأمم الأخرى، فسيبقى القرآن مهجورا، لا ينفذ نوره إلى البشرية كلها، لأن من أهم سمات الأعراب هي أنهم الأجدر بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله:

- ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [التوبة: 97]

نصيحة سريعة: نحن نسدي النصيحة لأنفسنا أولا ولكل من يشاركنا الرأي ثانيا أن نجهد أنفسنا في إخراج هذا القرآن من بين أيدي الأعراب، فمتى خرج هذا القرآن من حبسه (العربي)، فإن العقول البشرية الأخرى قادرة على تدبره بالطريقة الصحيحة، لأنها ستكون قادرة على اتباع الذكر فيه، فهم من سيستطيعون ربط آيات الكتاب الحكيم بعضها ببعض لاستنباط الأحكام التشريعية الصحيحة والحقائق الكونية التي ستملأ الأرض نورا. وحينها فقط (نحن نرى) سيأتي تأويله، وسيقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق:

- ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ فَيَشۡفَعُواْ لَنَآ أَوۡ نُرَدُّ فَنَعۡمَلَ غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ قَدۡ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَضَلَّ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ ٥٣﴾ [الأعراف: 53]

عودة على بدء: تساؤلات

⇐ كيف يمكن أن نستنبط الغاية الصحيحة من مناسك الحج التي تعرضنا لها كقضية النظر في ملكوت السماوات والأرض مثلا؟
⇐ وكيف يمكن أن نستنبط الغايات الحقيقة من كل العبادات الأخرى؟
⇐ وكيف يمكن أن نتوصل إلى الحقائق الكونية التي سبقتنا إليها الأمم الأخرى؟
⇐ الخ.

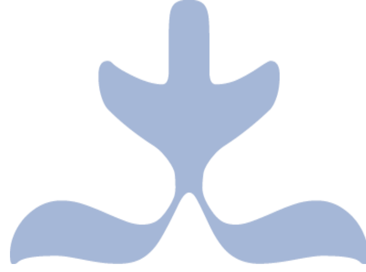
جواب مفترى من عند أنفسنا: ربما أتجرأ على الاعتقاد الجازم بأن قلة من الأعراب يستطيعون ذلك، ولكن الجهد الأكبر يقع على عاتق العالمين جميعا.

(دعاء: اللهم ربنا فاطر السموات والأرض، أعوذ بك أن أكون ممن اتخذوا هذا القرآن مهجورا، أدعوك وحدك أن أكون أول العالمين بتأويل هذا الكتاب، إنك أنت العليم الحكيم - آمين.

وللحديث بإذن الله بقية

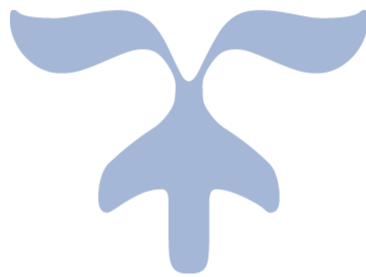
(دعاء: فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم، وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، وأعوذ به أن أكون ممن يفترون عليه الكذب أو ممن يقول عليه ما ليس لهم بحق، إنه هو السميع العليم - آمين)

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 آب 2016



فقه الحج

الجزء العاشر



فقه الحج – الجزء العاشر

افترينا القول في الأجزاء السابقة من هذه المقالة بأن مكان البيت هو ميزان السموات والأرض، فلو حصل أي خلخلة لهذا المكان لاختل توازن الكون بأكمله، لذا جعله الله حرما آمنا:

- ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَـٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾ [البقرة: 125]
- ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٥٧﴾ [القصص: 57]
- ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَـٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ٦٧﴾ [العنكبوت: 67]

وهو قيام للناس كافة (وليس للمسلمين فقط):

- ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَـٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَـٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ٩٧﴾ [المائدة: 97]

فلا يمكن لأي قوة بشرية التلاعب فيه مادام أنه تحت المراقبة الإلهية المباشرة، فكان فيه آيات بينات:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ٩٦ فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 96-97]

فكان مباركا، وهو لا شك هدى للعالمين:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَـٰلَمِينَ ٩٦﴾ [آل عمران: 96]

وفيه آيات بينات، منها لا شك مقام إبراهيم، وقد فرض الله على الناس حج هذا البيت:

- ﴿فِيهِ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ٩٧﴾ [آل عمران: 97]

فكانت الكعبة هي البيت الحرام نقطة ارتكاز الكون. وزعمنا الظن بأن الكعبة هي مفرد لكواعب التي ترد في الآية الكريمة التالية:

- ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣﴾ [النبأ: 31-33]

فزعمنا الظن بأن الكعبة هي أحد بيوت الجنة، كما نزعم القول بأن لمفردة الكعبة علاقة مباشرة بما جاء في الآية الكريمة التالية:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُواْ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٦﴾ [المائدة: 6]

فنحن مأمورون أن نغسل أرجلنا إلى الكعبين، ونحن نفتري الظن بأن الكعب هو نقطة ارتكاز الجسم كله، فبدون الكعب يستحيل أن يعتدل الجسم بكليته، فمتى ما انهار الكعب، انهار الجسم كله، وكذلك (نحن نفتري الظن) هي الكعبة في وظيفتها على الأرض، فهي نقطة ارتكاز الكتلة كلها.

ولما كان الله هو من جعل لكل أمة منسكا هم ناسكوه:

- ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُواْ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِۗ فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَلَهُۥٓ أَسْلِمُواْۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ۝٣٤﴾ [الحج: 34]

كان منسك المسلمين (نحن نفتري القول من عند أنفسنا) موجودا في هذا البيت، كما نفتري الظن بأن الحجر الأسود هو منسك المسلمين الأول، فكان لزاما على من حج البيت أن يصل إلى هذا المكان، فيكون أول فعل يقوم به هو الطواف بالبيت العتيق (لِلطَّآئِفِينَ)، ثم يكون في حالة اعتكاف (وَٱلْعَٰكِفِينَ)، فيعمد إلى إقامة الصلاة بالركوع والسجود (وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ) في مقام إبراهيم، وهو المنطقة القريبة من هذا البيت (وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى)، ويكون عكوفه عبارة عن حالة انتظار وترقب دائمين، حتى يتدلى الإله بنفسه في يوم الحج الأكبر. وفي هذا اليوم (أي يوم الحج الأكبر) تعلن براءة الله ورسوله من المشركين:

- ﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝١ فَسِيحُواْ فِي ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِي ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٢ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي ٱللَّهِۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٣﴾ [التوبة: 1-3]

ولقد ظننا أن المناسك هي الأماكن التي يجب على الحاج زيارتها والمكوث فيه فترة من الوقت، وذلك من أجل الحصول على الهُدى، فالبيت العتيق هو هدى للعالمين:

- ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [آل عمران: 96]

ليكون السؤال الآن هو: ما هو الهدى المنشود في ذلك البيت؟ أو بكلمات أخرى كيف يكون البيت العتيق بذاته هدى للعالمين؟ نحال نسأل.

رأينا المفترى: من أجل الإجابة على مثل هذا التساؤل، تعرضنا في المقالة السابقة إلى محاولة التمييز بين الشعائر من جهة والمناسك من جهة أخرى، فزعمنا القول من عند أنفسنا بأن المناسك خاصة بالناس بينما الشعائر فهي لله، فوجدنا الآيات التالية تبين لنا ما هي شعائر الله:

- ﴿۞ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ [البقرة: 158]
- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا ۘ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾﴾ [المائدة: 2]
- ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ ۖ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ عِندَ رَبِّهِ ۗ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ۖ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾﴾ [الحج: 27-32]
- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُم مِّن شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: 36]

وحاولنا افتراء الظن بأن الشعائر هي التي تجلب التقوى (ذَٰلِكَ ۖ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ)، فكانت البدن (أي بهيمة الأنعام) مثلا واحدة من هذه الشعائر:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

وحاولنا التمييز بين ثلاث حالات لهذه الأنعام، وهي

1. بدن صواف
2. بدن بدون صواف
3. بدن قد وجبت

أما البدن الصواف فهي – برأينا- الأنعام التي لازالت تحمل جلودها وأشعارها وأوبارها:

- ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80]

ونحن نرى أنه لا يجوز أن تذبح تلك الأنعام إلا بعد ذكر اسم الله عليها وهي لازالت في حالة أن تكون صواف:

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ ... ٣٦﴾ [الحج: 36]

وما أن تذبح تلك البدن الصواف باسم الله حتى يتم سلخ جلودها، فتصبح إذن بدن بلا صواف. ولكن لو دققنا في الآية الكريمة نفسها جيدا، لوجدنا (نحن نفتري القول) أنه لا يجوز الأكل من تلك البدن إلا بعد أن تكون قد وجبت، مصداقا لقوله تعالى (فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا):

- ﴿وَٱلۡبُدۡنَ جَعَلۡنَٰهَا لَكُم مِّن شَعَٰٓئِرِ ٱللَّهِ لَكُمۡ فِيهَا خَيۡرٞۖ فَٱذۡكُرُواْ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا صَوَآفَّۖ فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرۡنَٰهَا لَكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٣٦﴾ [الحج: 36]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم أن تلك البدن قد وجبت؟ أو ما معنى أن تكون تلك البدن قد وجبت؟ نحن نسأل

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن لا تكون قد جبت جنوبها إلا متى ما أصبحت وجبة طعام (أي طعاما جاهز للأكل)، فنحن نظن أن مفردة وجبت التي ترد في هذه الآية الكريمة لها علاقة مباشرة بعبارة "وجبة الطعام" التي نستخدمها على الدوام، فوجبة الطعام هي – برأينا - ما تم تجهيزه من طعام للأكل، فبالرغم أن الطعام يكون متوافرا في السوق وفي المطبخ (أو حتى في الثلاجة)، إلا أنه لا يصبح وجبة إلا عند تجهيزه وتقديمه على مائدة الطعام، فتصبح وجبة بعد أن كانت طعاما.

الدليل

نحن نظن أن مفردة "وجبت" مشتقة من الاستجابة، فأنت لا تستطيع أن تأكل كل الطعام مباشرة، فبعضه (كاللحوم مثلا) يحتاج إلى إعداد، ويكون ذلك بالطبخ، وذلك حتى يستجيب ذلك الطعام لك في عملية المضغ، فالطعام (كل الطعام) يصبح وجبة عندما يحضر، فيكون جاهزا للأكل. وقد وردت مفردة الاستجابة في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ [آل عمران: 172]
- ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ [الرعد: 18]
- ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: 14]
- ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38]

فالله هو من يجيب دعوة العبد:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾ [البقرة: 186]

والله هو من أجاب دعوة موسى التالية:

- ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: 88-89]

السؤال: كيف يمكن أن نفهم هذا كله في سياق الحديث عن الآية الكريمة قيد البحث حيث ترد مفردة (وَجَبَتْ)؟

- ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ ۖ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ ۖ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَٰلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الحج: 36]

رأينا المفترى: نحن نفهم الأمر (ربما مخطئين) على النحو التالي: عندما يكون هناك مشكلة ما، ربما تكون مستعصية على صاحبها، فإنه يحاول بشتى الطرق أن يحل هذه المشكلة، فتصبح المشكلة على صيغة تساؤل قائم يحتاج إلى إجابة، كحالة المضطر الذي يسأل ربه بالدعاء:

- ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ [البقرة: 186]

لذا، عندما يكون عندك سؤال، فإنك تحاول أن تبحث له عن إجابة، أليس كذلك؟

السؤال: كيف يمكن أن تصل لإجابة مرضية لأي سؤال تطرحه أو يطرح عليك على طاولة البحث؟

رأينا: عندما تحاول البحث عن إجابة، فإنك تحاول أن تضع على طاولة البحث شتى الاحتمالات التي يمكن أن توصلك إلى إجابة مرضية على التساؤل قيد التدبر، فتحاول مناقشة كل الطروحات الممكنة عندما تبدأ النظر إلى الموضوع من جميع جوانبه الممكنة. وفي هذه الحالة، فإن جل ما تحاول فعله هو محاصرة الإجابة الصحيحة من كل الزوايا، ويكون ذلك بمحاولة سد المنافذ التي يمكن أن تخرق هذه الإجابة. فإذا ما استطعت أن تسد جميع المنافذ، فإنك ستصل في نهاية المطاف إلى طريق واحدة ستوصلك في نهاية المطاف إلى الإجابة الصحيحة التي تبحث عنها. لذا، نحن نفتري الظن بأن الإجابة الصحيحة هي التي لا يمكن اختراقها من منفذ آخر إذا ما أخذت جميع الاحتمالات بعين الاعتبار. فإبطال النظرية (أي نظرية) يتحصل بمجرد وجود دليل واحد على عدم صحتها. فالنظرية الصحيحة هي التي لا يمكن اختراقها من أي منفذ، وبذلك تكون هي الطريق الوحيد الموصل إلى القول الحق. ومتى ما وصلت إلى ذلك، فإن سؤالك يكون قد تمت الإجابة عليه، فما عاد مستعصى عليك.

بناء على هذا المنطق المفترى من عند أنفسنا، فإننا نؤمن يقينا بأنه لما كان كلام الله هو القول الحق، فهو إذن الطريق الوحيدة الصحيحة التي توصلك إلى بر الآمان لجميع التساؤلات التي يمكن أن تبحث لها عن إجابات شافية، فسبيل الله هي سبيل واحدة (لا ثاني لها)، قال تعالى:

- ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨﴾ [يوسف: 108]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: لو توصلنا إلى سبيل الله (الطريق الصحيح)، فهي إذن كافية شافية، لأنه لا يمكن اختراقها من أي منفذ آخر، أي لا يمكن إيجاد الدليل على بطلانها. وبالتالي تصبح هي الإجابة الحقيقية على تساؤلك:

- ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ۝٣٣﴾ [الفرقان: 33]

ومن أراد المجادلة بعد ذلك، فإنه يقع على عاتقه جلب البرهان إن كان من الصادقين:

- ﴿... قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ۝٦٤﴾ [النمل: 64]

السؤال: كيف يمكن أن نصل إلى سبيل الله الوحيدة؟

رأينا المفترى: عندما يكون هناك قضية ما قيد البحث، فإنك تحاول أن تضع كل التصورات الممكنة لحلها. ولا شك عندنا أن أي تصور بشري (غير مضبوط بالنص الإلهي) سيكون له الهفوات والعثرات، لأنه من الممكن اختراقه (نحن نتخيل) من جوانب أخرى ربما لم يحسب لها حساب. ولتوضيح الصورة دعنا نتصور أنفسنا (في حالة طرح المشكلة، أي السؤال) أننا أمام نفق غير واضح المعالم، فعند بداية النفق نجد تشعبات كثيرة نظن بداية أن أي واحدة منها هي طريق سالكة قد توصلنا إلى بر الآمان. لكن لما كان هذا نفق واحد، فإننا نتخيل بأنه من بين جميع هذه التشعبات فإن هناك شعبة واحدة فقط يمكن أن تخرجك من هذا النفق وتوصلك إلى بر الآمان، بينما تؤدي بك كل التشعبات الأخرى إلى طرق مسدودة (أي cul de sac أو dead end بالمفردات الأجنبية). وهذا بالضبط (نحن لا زلنا نتصور) ما يحصل عند وضع أي قضية (أو تساؤل) على طاولة البحث. فجميع الخيرات المتاحة للحل ستؤدي بك إلى طريق مسدود في نهاية المطاف باستثناء طريق (أو سبيل) واحدة. ونحن نؤمن يقينا بأن هذه الإجابة الصحيحة هي الإجابة المضبوطة تماما بالنص الإلهي. فإن استطعت أن تسلك هذه الطريق في ضوء الهدي الإلهي، فإنك ستصل في نهاية المطاف إلى بر الآمان والخروج من هذا النفق سالما بإذن الله، فالله هو من يهدي من يشاء من عباده إلى نوره:

- ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾﴾ [النور: 35]

فالباحث عن الإجابة بين آيات الكتاب الحكيم هو – برأينا- كمن يدخل هذا النفق وفي يده مصباح ينير له طريقه، وبخلاف ذلك يصبح الشخص لا نور له، لأنه بحث عن المسألة غير مسترشد بنور الله:

- ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 40]

(دعاء: اللهم ربنا أنت وحدك من تهدي من يشاء من عبادك إلى نورك، اللهم ربنا ندعوك وحدك أن نكون ممن تهديهم إلى نورك، ونعوذ بك أن نكون كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها، إنك بكل شيء عليم - آمين).

نتيجة مفتراة: نحن نفتري القول بأنه من لم يجعل الله له نور، فما له من نور. وهذا هو النور الذي نسترشده ونهتدي به حتى لا نكون كما الميت الذي لا حياة فيه، قال تعالى:

- ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [الأنعام: 122]

نعم، عندما نقع في مشكلة ما، فإننا نكون في بداية المشكلة كمن هو في الظلمات، فيظن أنه ليس بخارج منها، ولكن لو كنا ممن يشاءون أن يكون من المهتدين بنور الله، فإن الله لا محالة سيجعل لنا نورا نمشي به بين الناس، فلا نبقى قابعين في تلك الظلمات.

(دعاء: اللهم رب أدعوك وحدك أن تجعل لي نورا أمشي به بين الناس – إنك أنت السميع البصير- آمين)

ولكن دعنا نعود إلى آلية الخروج من تلك الظلمات أو من ذلك النفق المتشعب. فنحن إذن أمام نفق متشعب، ونحن كذلك في ظلمات بعضها فوق بعض، عندها نحاول أن نتلمس الطريق في كل الاتجاهات، لكن يجب أن نكون على وعي تام بأن هناك طريق واحدة فقط هي الموصلة إلى بر الآمان، وهي الالتزام بالهدي الإلهي والبحث عن النور الإلهي. فكل الأطروحات التي لا تلتزم بهذا الهدي الإلهي ستؤدي في نهاية الأمر إلى طريق مسدود، وبالتالي العودة من جديد إلى نقطة الصفر للبحث مرة أخرى عن المخرج الصحيح الذي يؤدي إلى بر الآمان في نهاية المطاف. لذا وجب علينا عند الوصول إلى كل مفترق طرق أن نبحث عن عيوب تلك المفترقات، ومتى وجدنا أن هناك عيبا واحدا في هذا المفترق، فعلينا أن نتركه لنبحث عن غيره، وهكذا حتى نصل في نهاية الأمر إلى المفترق الصحيح (أي السبيل الصحيح) الذي لا يمكن إيجاد عيب واحد عند سلوكه. وهذا بالضبط ما يحصل (نحن نرى) عند طرح كل الإجابات المحتملة على تساؤل واحد. فالجميع يجب أن يحاول البحث عن العيب في كل طرح من هذه الأطروحات حتى نصل في نهاية المطاف إلى الطرح الوحيد الخالي تماما من العيوب، والذي لا يمكن نقضه. فلو وجدنا هذا الطرح، لحق لنا أن نقول أن هذا هو سبيل الله الصحيح والوحيد.

منطقنا المفترى في سطور

ما هو السؤال؟

جواب مفترى: هو الوقوع في مشكلة.

ما هي الإجابات؟

جواب مفترى: هي كل الطروحات (أي الإجابات) المحتملة

ما هو الجواب الخاطئ؟

جواب مفترى: هو كل جواب يمكن إيجاد الدليل على بطلانه

ما هو الجواب الصحيح؟

جواب مفترى: هو الجواب الذي لا يمكن إيجاد الدليل على بطلانه

كيف تتم التوصل إلى الإجابة الصحيحة؟

جواب مفترى: يحصل ذلك بمحاولة محاصرة كل الإجابات الممكنة والنظر إلى إليها من جميع الجوانب.

أين يمكن أن نجد هذه الإجابة الصحيحة والوحيدة؟

جواب مفترى: في الهدي الإلهي.

السؤال: ما علاقة هذا كله بمفردة وجبت جنوبها؟

جواب مفترى: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن للمفردة وجبت علاقة مباشرة بمفردة "جَابُواْ" التي ترد في الآية الكريمة التالية التي تتحدث عن ثمود (قوم صالح):

- ﴿وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩﴾ [الفجر: 9]

السؤال: ما معنى أن ثمود قد جابوا الصخر بالواد؟

رأينا المفترى: مادام أن ثمود قد جابوا الصخر بالواد، فهم إذا قد استطاعوا أن يدخلوا النفق، ويسلكوا الطريق التي تؤدي بهم في نهاية المطاف إلى نهايته، والوصول إلى مبتغاهم.

السؤال: أين هو ذاك الصخر الذي جابوه؟

رأينا المفترى: لما كانت ثمود هي الحضارة التي نشأت على أعقاب عاد التي لم يخلق مثلها في البلاد، جاء التلازم واضحا بين هذه الحضارة من جهة وحضارة عاد التي سبقتها وحضارة فرعون التي لحقتها من جهة أخرى، كما نفهم ذلك من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ بِٱلۡوَادِ ۝٩ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ۝١١﴾ [الفجر: 6-11]

فلو دققنا في هذه الآيات الكريمة جيدا، لوجدنا أن هذه الحضارات جميعا (كما نفهم النص القرآني) قد سكنت المنطقة الجغرافية نفسها، بدليل أنهم جميعا قد طغوا في البلاد (ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ). فهذه البلاد هي نفسها التي أحدثوا فيها الطغيان. وهم من أهلكهم الله جميعا، وهم الذين كانوا – برأينا- يقومون بفعل التنقيب في البلاد:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: 36]

ولا شك عندنا أن التنقيب هو عبارة عن عملية إحداث طريق (أو ممر) في عائق مسدود، كما فعل من حاولوا نقب الردم الذي أحدثه ذو القرنين:

- ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾﴾ [الكهف: 93-97]

فهذا ذو القرنين يردم الطريق التي تصل بين القوم الذين طلبوا منه المساعدة من جهة ويأجوج ومأجوج من جهة أخرى (فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا). وما أن أصبح الردم هو الحاجز بين الطرفين حتى حاول الطرف الذي يريد الفساد في الأرض (وهم يأجوج ومأجوج) النقب فيه، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبا (فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا). فمن حاول النقب هو إذن من يريد إحداث ما يشبه النفق في ذلك العائق من أجل الوصول إلى مبتغاه. (للتفصيل انظر سلسلة مقالاتنا تحت عنوان: قصة يأجوج ومأجوج).

لذا، نحن نتخيل أن ثمود كانوا من بين الأقوام التي نقبت في البلاد:

- ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾ [ق: 36]

فهم إذن من القرون التي أهلكها الله، وكانت غايتهم من التنقيب (نحن نتخيل) هو إحداث النفق في ذلك الصخر الموجود في ذاك الواد وذلك من أجل الوصول إلى مكان محدد بعينه.

السؤال: ما هو المكان الذي حاولت ثمود النقب فيه؟

جواب مفترى: نحن نظن أن المكان هو الصخر الموجود في واد النيل.

السؤال: وما هو المكان الذي يحاولون الوصول إليه جراء هذا التنقيب؟

جواب مفترى: نحن نفتري الظن بأن القوم كانوا يحاولون الوصول إلى قاعدة الأهرامات (أي إرم ذات العماد).

السؤال: لماذا عمدت ثمود إلى إحداث هذا النقب ومن ثم الوصول إلى قاعدة الأهرامات؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن أن غايتهم كانت على نحو الوصول إلى مكامن القوة في تلك الحضارة التي سبقتهم وهي حضارة عاد.

السؤال: وكيف ذلك؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نشأت حضارة ثمود في واد النيل على أعقاب حضارة عاد، ووصلت من الحضارة مبلغا عظيما، وكانت أهم انجازاتهم الحضارية كلها هي – برأينا- أنهم استطاعوا أن ينقبوا في البلاد، فشقوا طرقا لهم في باطن الأرض، فكانت ما يعرف اليوم بصحراء النقب واحدة من المناطق التي نقبوها، ولكنهم لم يتوقفوا عند هذا الحد، فتكللت جهودهم (نحن لازلنا نتخيل) بإحداث النقب في الصخر من الجهة الجنوبية حيث المنطقة الصخرية التي تقع في واد النيل، وبالفعل استطاعوا أن يجيبوا الصخر بالواد، فأحدثوا ما يشبه النفق في ذلك الصخر حتى تمكنوا بالفعل (نحن نفتري القول) من الوصول إلى قاعدة الأهرامات، فتكللت جهودهم (نحن لازلنا نتخيل) بإحداث ذلك الأخدود الذي جاء ذكره في الآيات الكريمة التالية (كما نفهمها بالطبع):

- ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ ١ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡمَوۡعُودِ ٢ وَشَاهِدٖ وَمَشۡهُودٖ ٣ قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ ٤ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلۡوَقُودِ ٥ إِذۡ هُمۡ عَلَيۡهَا قُعُودٞ ٦ وَهُمۡ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ شُهُودٞ ٧ وَمَا نَقَمُواْ مِنۡهُمۡ إِلَّآ أَن يُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ٨ ٱلَّذِي لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ثُمَّ لَمۡ يَتُوبُواْ فَلَهُمۡ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمۡ عَذَابُ ٱلۡحَرِيقِ ١٠ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡكَبِيرُ ١١ إِنَّ بَطۡشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبۡدِئُ وَيُعِيدُ ١٣ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلۡوَدُودُ ١٤ ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ ١٦ هَلۡ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلۡجُنُودِ ١٧ فِرۡعَوۡنَ وَثَمُودَ ١٨﴾ [البروج: 1-18]

وكان هدفهم (نحن لازلنا نتخيل) جلب الطاقة المخزّنة في قاعدة تلك الأهرامات. فاستطاعوا نقل الطاقة المخزنة في تلك الأهرامات إلى مكان سكناهم (أي ذاك الواد الذي كانوا يسكنون فيه) من خلال ذاك الأخدود.

ونحن نتجرأ أيضا على الظن بأن هذا بالفعل هو ما استطاع فرعون أن يستفيد منه في يوم المحرقة العظيمة. فلقد استطاع فرعون في يوم المواجهة الكبرى بين سحرته من جهة وموسى من جهة أخرى أن يشعل نارا عظيمة بواسطة ذاك الأخدود عندما جلب الطاقة (النار) من قاعدة الأهرامات إلى مكان المحرقة التي وقعت على جوانبها تلك المواجهة بين الطرفين. ونحن نتجرأ على الظن أن فوهة ذلك الخدود تبدأ من عند مكان المحرقة التي لازالت بقاياها ظاهرة للعيان على الخريطة الجغرافية للمنطقة. (للتفصيل انظر الأجزاء السابقة من المقالة)

وكانت تلك الطاقة هي التي أمدت السحرة بالقوة الرهيبة التي أحدثت في نفس موسى نفسه الخيفة:

- ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه: 67]

وكان ذلك بعد أن ألقى السحرة عصيهم وحبالهم التي خيل للحاضرين أنها تسعى :

- ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧﴾ [طه: 66-67]

الدليل

لو دققنا في تتمة هذا السياق القرآني العظيم، لوجدنا بأن جلّ ما حصل في تلك المواجهة لم كن أكثر من كيد ساحر واحد:

- ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ٦٧ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٦٨ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩ فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ٧٠﴾ [طه: 66-70]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت – في السياق جيدا، لتجد أن السياق قد بيّن لنا (كما نفهمه طبعا) بأن جل فعل السحر الذي وقع على الأرض في تلك الحادثة قد جاء من صنع ساحر واحد:

- ﴿... إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ٦٩﴾ [طه: 69]

لكن الذين ألقوا سجدا كانوا السحرة جميعا:

- ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا ... ٧٠﴾ [طه: 70]

السؤال: من هو الساحر الذي صنع ذلك الكيد؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن الساحر الذي صنع الكيد كله هو فرعون. انتهى.

السؤال: من هم السحرة الذين القوا سجدا؟

جواب: إنهم السحرة الذين حشرهم فرعون من أجل تلك المواجهة المرتقبة:

- ﴿قَالُوٓاْ أَرۡجِهۡ وَأَخَاهُ وَٱبۡعَثۡ فِي ٱلۡمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ٣٦ يَأۡتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٖ ٣٧ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ [الشعراء: 36-38]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن المواجهة الفعلية في ذلك اليوم المعلوم كانت بين فرعون نفسه من جهة وموسى من جهة أخرى.

السؤال: لماذا جمع فرعون السحرة إذن؟

رأينا المفترى: لما كان فرعون لا يريد أن يظهر لمن حوله بأن المواجهة الفعلية هي بينه وبين موسى، استخدم فرعون السحرة كأداة للتغطية على فعله. فإذا ما كانت الغلبة للسحرة، اتبعهم الجميع وبان للحاضرين جميعا بأن المنتصر الأكبر هو فرعون نفسه وأن الخاسر هو موسى ومن معه:

- ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلۡ أَنتُم مُّجۡتَمِعُونَ ٣٩ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُواْ هُمُ ٱلۡغَٰلِبِينَ ٤٠﴾ [الشعراء: 38-40]

ولكن إذا ما كانت الغلبة لموسى، فإنه سيظهر بأن المهزوم (في نظر جميع الحاضرين من حوله) هم السحرة، وسيظل عندها فرعون بشخصه في موقف قوة لا في موقف ضعف، فلا يخسر جميع أوراقه في تلك المواجهة مرة واحدة.

السؤال: كيف فعل فرعون فعلته تلك؟

جواب مفترى: لقد كان فرعون ينفذ مراده بطريقة غير مباشرة، وكان ذلك من خلال ما أمد السحرة به من قوة.

السؤال: كيف استطاع فرعون أن يمد السحرة بالقوة في بداية المواجهة؟

جواب مفترى خطير جدا جدا: نحن نتخيل أن فرعون قد فعل ذلك من خلال الأخدود وبواسطة حبال السحرة.

السؤال: وكيف ذلك؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن ذلك قد تم بجلب الطاقة المتوافرة تحت الأهرامات من خلال الأخدود الذي تنتهي فوهته عند ذلك الواد، حيث المواجهة دائرة بين الطرفين المتخاصمين.

نتيجة مفتراة خطيرة جدا جدا: نحن نظن أن فرعون قد جلب النار (الطاقة) من تحت الأهرامات من خلال ذلك الأخدود وذلك ليمد السحرة بالسحر.

السؤال: وكيف ذلك؟

جواب مفترى: عندما حصلت المواجهة بين الطرفين كان كل ما يملكه موسى هو تلك العصا، أليس كذلك؟ ونحن نتصور بأنه كان يكفي السحرة أن يحضروا معهم العصي، لكن الملفت للانتباه أن السحرة قد جلبوا معهم العصي والحبال أيضا. ليكون السؤال الآن هو: لم جلب السحرة حبالهم مع عصيهم؟ فما فائدة تلك الحبال في المواجهة المرتقبة بين الطرفين؟

رأينا: لو تفقدنا مفردة الحبال في النص القرآني على مساحته، لوجدنا أن الحبل ليس أكثر من حلقة وصل بين نقطتين متباعدتين، كما نفهم ذلك من الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾ [ق: 16]

ومادام أن الحبل هو عبارة عن أداة وصل بين نقطتين، فقد يتواجد عند نهاية كل طرف من الحبل أحد ما، والآية الكريمة التالية تصور لنا بأن الإله نفسه يتواجد في نهاية طرف الحبل في حين يكون الطرف الآخر المتواجدون عند نهاية الحبل الأخرى هم الناس، قال تعالى:

- ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103]

وهذا لا يمنع أن يكون الطرفان المتواجدان عند طرفي الحبل هم جميعا من الناس، مصداقا لقوله تعالى:

- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: 112]

وهذه الآيات الكريمة جميعا تبين لنا (كما نفهمها) بأن المتواجد عن نهاية أحد طرفي الحبل يقوم بفعل المساندة للطرف الثاني من خلال هذا الحبل، فالله هو من يساندنا بحبله المتين:

- ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103]

وتبين لنا هذه الآيات أيضا (كما نفهمها) أن الطرف الثاني قد لا يستطيع (لضعفه) أن يتغلب على خصمه إلا من خلال ما يتحصل له من مساندة من الطرف الأول من خلال هذا الحبل، وبخلاف ذلك تضرب عليه الذلة والمسكنة:

- ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [آل عمران: 112]

السؤال: ما علاقة هذا كله بحبال السحرة؟

- ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ٦٦﴾ [طه: 66]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: نحن نظن أن حبال السحرة كانت مرتبطة في طرفها الثاني مع فرعون مباشرة، وليس أدل على ذلك – برأينا- مما جاء في الآية الكريمة التالية على لسان السحرة:

- ﴿فَأَلۡقَوۡاْ حِبَالَهُمۡ وَعِصِيَّهُمۡ وَقَالُواْ بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٤٤﴾ [الشعراء: 44]

فالسحرة إذن يظنون أنهم هم الغالبون بِعِزَّةِ فرعون، أليس كذلك؟

السؤال: لماذا قال السحرة ذلك؟ وما علاقة عزة فرعون بالمواجهة الدائرة بين الطرفين؟

رأينا المفترى: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن فرعون هو من كان يعزز موقف السحرة في المواجهة الدائرة مع موسى. وليس أدل على ذلك من قولهم عندما حسم الصراع لصالح موسى:

- ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ٧٣﴾ [طه: 72-73]

السؤال: لماذا قال السحرة لفرعون ما نصه (وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ)؟ فهل كان فرعون هو فعلا من أكره السحرة على السحر؟ أليسوا هم أصلا سحرة من "دار أهلهم" (كما نقول باللسان الأردني الدارج)؟

جواب مفترى خطير جدا: نعم، نحن نظن أن فرعون هو من أكره السحرة على السحر الذي وقع على الأرض في ذلك اليوم المعلوم على وجه التحديد. انتهى.

وربما يبين لنا مثل هذا الرأي المفترى من عند أنفسنا سبب تخلي السحرة عن فرعون في الحال بغض النظر عن ما ستؤول إليه الأمور بعد ذلك. فلهجة التحدي لفرعون بشخصه واضحة على لسان السحرة عندما قالوا له مباشرة بملّ الفيه (فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ). ليكون السؤال الآن: لم تخلى السحرة عن فرعون على الفور؟ ولم آثروا اللحاق بركب موسى على الفور؟ ولم لم ينشق أحد من السحرة عن رأي الجمع فيهم؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: لمّا حصلت المواجهة بين طرفين، ظن الحاضرون من الناس بأن المواجهة هي فعلا بين موسى من جهة والسحرة من جهة أخرى، فاعتقدوا أن الغالب سيكون إما موسى أو السحرة. ولكن لمّا كان السحرة أنفسهم يعلمون يقينا بأن المواجهة الفعلية هي بين موسى من جهة وفرعون من جهة أخرى، وأنهم ليسوا أكثر من أداة ينفذ فرعون فيها مآربه، وأن جل السحر الذي أحدثوه كان من صنيعة فرعون نفسه مادام أن حبالهم موصولة مع فرعون نفسه، وهو الذي لازال حتى الساعة في نظرهم الإله الذي يظنون أنه وهو ربهم الأعلى، بان لهم جميعا (أي للسحرة جميعا) ضعف حيلة فرعون في مواجهة موسى الذي كان معتصما بحبل من ربه. فكان السحرة إذن على دراية تامة بأن المواجهة الحقيقية هي أصلا بين إله موسى من جهة وفرعون المدّعي الإلوهية من جهة أخرى. وما أن بان للسحرة جميعا ضعف حيلة

فرعون في مواجهة إله موسى حتى أدركوا على الفور بأن الحق مع موسى، وأنه لا طاقة لفرعون بموسى ومن معه ما دام أن إله موسى قادر على غلبة هذا الإله الكاذب.

تلخيص ما سبق: نحن نتجرأ على الظن بأن حضارة ثمود هي الحضارة التي نشأت في واد النيل، فهم الذين جابوا الصخر بالواد، فأحدثوا ذلك الأخدود، فاستفاد فرعون منه في يوم المحرقة.

خروج عن النص: تخيلات غريبة جدا غير مضبوطة بالدليل

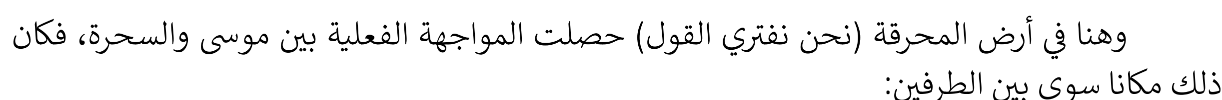
دعنا نضع خريطة المنطقة التي نظن أنها كانت مسرحا لتلك الأحداث العظيمة لنتفقدها من خلال ما نظن أنها شطحات فكرية غريبة جدا ربما غير موجودة إلا في ذهن كاتب هذه السطور، لذا سنحاول (بما أذن الله لنا به من علم في ذلك) أن نجلب الدليل على إثباتها، وفي الوقت ذاته فإننا ندعو الجميع إلى إيجاد الدليل على بطلانها.



Source

أما بعد،

هذه هي خريطة وادي النيل والبحر الأحمر، ففي مكان ما على هذه الخريطة نجد أرض المحرقة التي تظهر في الخريطة التالية



وهنا في أرض المحرقة (نحن نفتري القول) حصلت المواجهة الفعلية بين موسى والسحرة، فكان ذلك مكانا سوى بين الطرفين:

- ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾﴾ [طه: 58]

وهذه المنطقة هي منطقة التقاء الجبال من الشرق مع السهل من الغرب، فكان موسى ومن معه في الجهة الشرقية حيث الجبال وكان فرعون ومن معه في الجهة الغربية حيث السهل والأنهار:

- ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الزخرف: 51]
- ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: 25-27]

حصلت المواجهة بين الطرفين في ذلك المكان، وخسر فرعون ومن معه تلك المواجهة، واتجه موسى ومن معه مشرقين صوب البحر بأمر من ربه:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: 52]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 23-24]

فاتبعهم فرعون ومن معه مشرقين باتجاه البحر الأحمر:

- ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: 60-61]

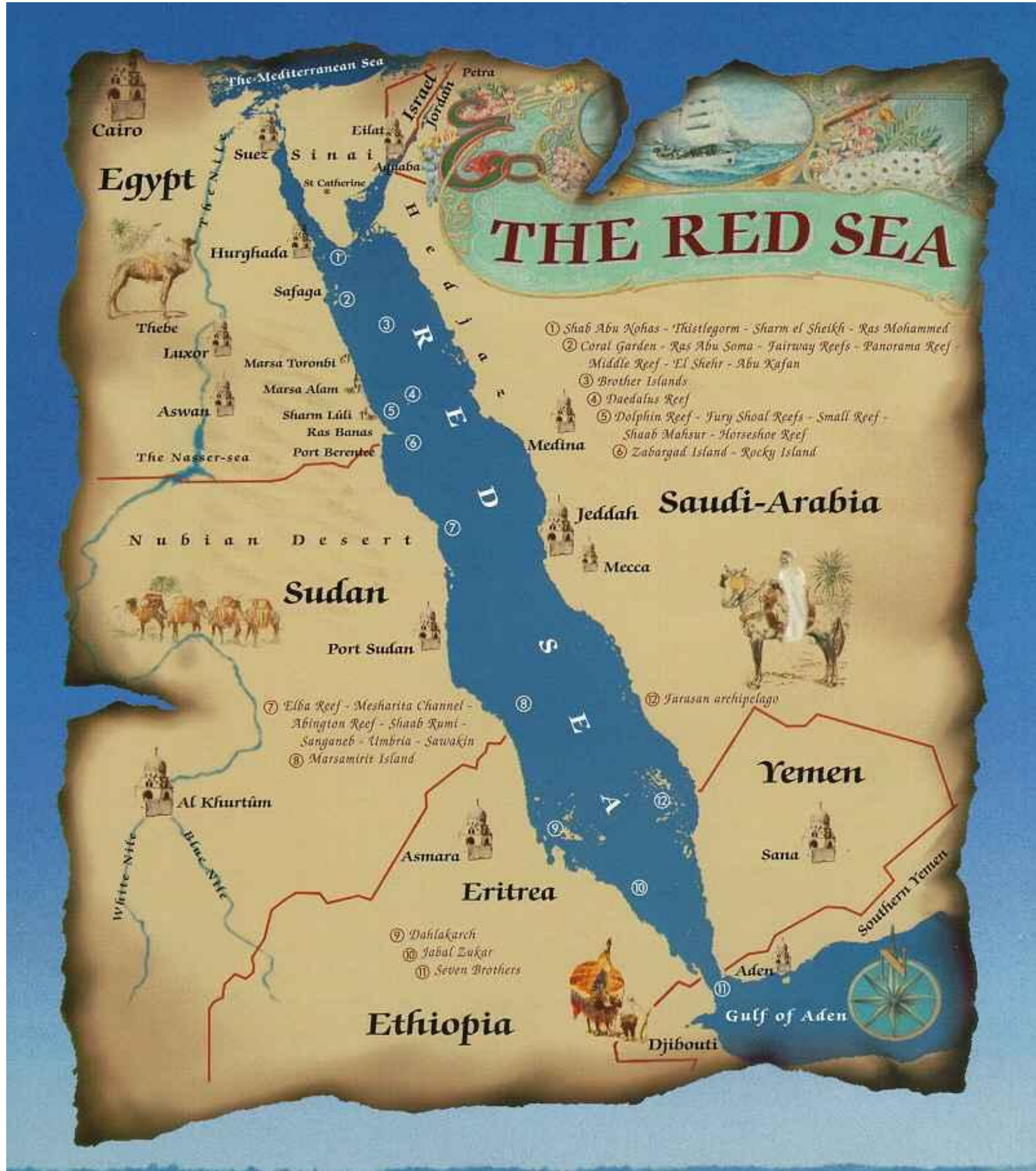
وجاء الأمر الإلهي لموسى بأن يضرب بعصاه البحر، فحصل ذلك (نحن لازلنا نتخيل) في المنطقة التي تشبه فرج المرأة على البحر كما نوضحها في الخريطة التالية:



وهي المنطقة المواجهة لمدينة جدة من الطرف المقابل (انظر الخريطة جيدا)، حيث تظهر المنطقة القوسية التي تشبه في تفاصيلها فرج المرأة الذي يضربه الرجل بعصاه (أي بعضوه الذكري). وهناك ضرب موسى البحر بعصاه.

الخيال الأول:

في هذه المحطة من النقاش الذي لا شك هو مفترى من عند أنفسنا نقدم للقارئ الكريم معلومة هي في ظننا أغرب من الخيال نفسه ربما لا توجد (كما أسلفنا) إلا في ذهن كاتب هذه السطور، والمعلومة الجديدة الخيالية تتلخص في أن ندقق مليا فيما يمكن أن نراه على الخريطة في تلك المنطقة خاصة عند منطقة الفرج (حيث ضرب موسى البحر بعصاه) والتي تظهر على الخريطة التالية تحت النقطة رقم 7.



دقق مليّا عزيزي القارئ، ألا تجد عند تلك المنطقة بالذات ما يشبه الرجل الواقف على حافة البحر. فما الذي يفعله هذا الرجل الواقف هناك، ألا تجد ويكأنه يقوم بفعل ما، فما هو؟

خيالنا المفترى: نحن نظن أن الرجل يظهر علينا ويكأنه يقوم بفعل ما بواسطة يده اليمنى، فما هو ذلك الفعل؟

جواب مفترى: نحن نظن أن هذا الرجل هو موسى نفسه حيث يقوم بضرب البحر بعصاه هناك.

السؤال: كيف تم ذلك؟ ولماذا بقي أثر هذا الرجل قائما حتى الساعة على الأرض؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: عندما وقف موسى عند حافة البحر، جاءه الأمر الإلهي بالضرب:

- ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرۡقٖ كَٱلطَّوۡدِ ٱلۡعَظِيمِ ٦٣﴾ [الشعراء: 63]

فقام موسى على الفور بإدخال العصا التي في يمينه في ذلك الفرج، كما يدخل الرجل عصاه (عضوه الذكري) في فرج المرأة. ولا شك عندنا أن إدخال الرجل لعضوه الذكري في فرج المرأة يتم من أسفل الفرج وليس من أعلاه. وهذا – برأينا - واضح في الصورة حيث يدخل موسى العصا في ذلك البحر من أسفل المنطقة التي تشبه فرج المرأة. وعندما انفلق البحر ظل موسى واقفا في تلك المنطقة، وبدأ الانفلاق من هناك، لكن لما كان الوقت هو النهار بدليل أن الجمعين قد تراءى:

- ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ٦١﴾ [الشعراء: 61]

كانت الشمس ساطعة على موسى من الجهة الشرقية الجنوبية، فكان خيال موسى واضحا على الأرض، فشكل الفلق صورة واضحة لخيال موسى على الأرض، وبكأنها قد رسمت بريشة فنان ماهر.

الخيال الثاني:

لو دققنا في الصورة التالية المأخوذة من جوجل إرث لامتداد شاطئ البحر الشرقي لوجدنا أن هناك ما يشبه النتوءات على طول ساحل البحر، انظر الصورة التالية جيدا:



ونحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأن هذه النتوءات على طول شاطئ البحر هي خيالات هامان وجنوده الذين نكصوا على عقبيهم عندما دخل فرعون وجنوده البحر:

- ﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ ٤٧ وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّي جَارٞ لَّكُمۡۖ فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلۡفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكُمۡ إِنِّيٓ أَرَىٰ مَا لَا تَرَوۡنَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَۚ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٤٨﴾ [الأنفال: 47-48]

فالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله هم فرعون وجنوده، والذي زين لهم أعمالهم هو الشيطان هامان:

- ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَنُرِيَ فِرۡعَوۡنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنۡهُم مَّا كَانُواْ يَحۡذَرُونَ ٦﴾ [القصص: 6]

ولكن ما أن وصلهم الشيطان إلى حتفهم حتى نكص على عقبيه، فكان الغرق لفرعون وجنوده:

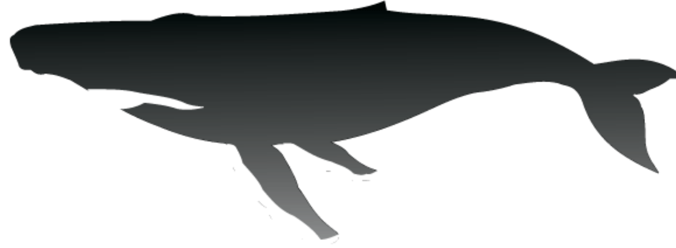
- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤٠﴾ [القصص: 40]
- ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذاريات: 40]

وظل الشيطان هامان وجنوده يراقبون عن بعد ما حلّ بفرعون وجنوده. فظلت آثار تواجدهم ذاك (نحن نتخيل) شاهدة على مراقبتهم لذلك الحدث العظيم.

الخيال الثالث:

لو حاولنا النظر إلى البحر الأحمر كله، لوجدنا (كما نتخيل ذلك) أن البحر برمته يشبه شكل الحوت (السمكة الكبيرة)، فالمنطقة الشمالية حيث مجمع البحرين (التقاء خليج العقبة مع خليج السويس) نجد زعانف الحوت الخلفية، وفي هذه المنطقة حصل اللقاء بين موسى والعبد الصالح (للتفصيل انظر قصة موسى)، بينما تشكل المنطقة الجنوبية (آخر البحر) حيث يلتقي البحران ما يشبه رأس الحوت، ويكون جسم الحوت هو المنطقة الواصلة بين الزعانف الخلفية والرأس. انظر صورة البحر جيدا من هذا الجانب:





وهذه المنطقة هي منطقة التقاء البحرين حيث الحاجز الذي يحول دون أن يبغي أحدهما على الآخر:

- ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ١٩ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ لَّا يَبۡغِيَانِ ٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ٢١﴾ [الرحمن: 19-21]

السؤال: ماذا يعني لك ذلك؟

خيالنا المفترى: نحن نرى أن هذا البحر قد تشكل على شكل الحوت الذي التقم يونس:

- ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٣٩ إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ ١٤١ فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات: 139-142]

فحوت يونس موجود في هذا البحر، لذا حاول نفر من بني إسرائيل الاعتداء في يوم سبتهم من أجل الظفر بهذا الحوت:

- ﴿وَسۡـَٔلۡهُمۡ عَنِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلَّتِي كَانَتۡ حَاضِرَةَ ٱلۡبَحۡرِ إِذۡ يَعۡدُونَ فِي ٱلسَّبۡتِ إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٣﴾ [الأعراف: 163]

فكان العقاب الإلهي لهم على نحو أن جعلهم قردة خاسئين:

- ﴿وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعۡتَدَوۡاْ مِنكُمۡ فِي ٱلسَّبۡتِ فَقُلۡنَا لَهُمۡ كُونُواْ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ٦٥﴾ [البقرة: 65]

(للتفصيل انظر مقالاتنا السابقة تحت عنوان قصة موسى وقصة يونس)

الخيال الرابع:

لو نظرنا إلى البحر الأحمر من زاوية أخر، لوجدنا أنه يشكل ما يشبه حورية البحر، ففي المنطقة الشمالية الواقعة تحت مجمع البحرين نجد رأس المرأة المتوج، ثم تنتفخ منطقة الصدر تحت ذلك، ثم تضيق منطقة الخضر، وتعود للانتفاخ عند منطقة الحوض، ثم تبدأ تضيق تدريجيا حتى تصل منطقة الرجلين المغطاة بالثوب الفضفاض. انظر صورة البحر من هذا الجانب مرة أخرى:



السؤال: من هي هذه المرأة، ومن هي حورية البحر هذه؟

رأينا المفترى: نحن نظن (ربما مخطئين) بأنها هي تلك المرأة التي كانت تملك قومها واستطاعت أن تحتجب عن سليمان فترة من الزمن. فهذا البحر كان يشكل الحاجز الذي منع سليمان من الوصول إلى تلك المرأة، فكان الهدهد هو كشف له خبرها (للتفصيل انظر مقالة ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته)

عودة على بدء

إن ما يهمنا في هذا الطرح هو الظن بأن في هذا البحر من العجائب ما تحير فيه العقول، ولعل أغرب الخيال الذي نحاول الوصول إليه هو الخيال الخامس التالي حيث جاء قوله تعالى لموسى:

- ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]

الخيال الخامس:

دعنا نركز على نهاية الآية الكريمة هذه، وهي قوله تعالى لموسى (لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ)، ليكون السؤال الآن هو: ما معنى هذا الكلام الإلهي الموجه لموسى في تلك اللحظة؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: لما كان الله هو من قال لموسى (لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ)، فإننا نفهم ذلك (ربما مخطئين) أن موسى كان يواجه حينئذ خطرين اثنين، والخطران هما:

1. الخوف من الدرك (لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا)
2. الخشية (وَلَا تَخۡشَىٰ)

السؤال: ما الفرق بين أن يخاف موسى الدرك أو أن يخشى؟

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن موسى في تلك اللحظة كان أمامه خطران اثنان، وهما:

1. البحر نفسه
2. فرعون

فحتى لو نجا موسى من قبضة فرعون، فإن الخطر الداهم هو البحر. وبكلمات أكثر بساطة نحن نفتري القول بأن موسى كان يواجه البحر من أمامه وفرعون من خلفه.

السؤال: هل كان البحر يشكل خطرا على موسى؟ ألم يفلق الله البحر لموسى؟

جواب مفترى: نعم، لقد فلق الله البحر لموسى، فكان كل فرق كالطود العظيم، ولكن ماذا لو سار موسى في ذلك الواد (البحر المفلوق) ثم وجد نفسه أما تضاريس أرضية خطيرة؟ فهل فلق البحر سيجعل البحر ممهدا أمام موسى حتى النهاية؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا، فلقد كان موسى يعلم يقينا أن فلق البحر سيؤدي إلى إيجاد طبقات أرضية متفاوتة في الارتفاع، فالدرك هو عبارة عن طبقة ربما تعلوها طبقة أخرى، وهكذا.

الدليل

قال تعالى:

- ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾ [النساء: 145]

مادام أن المنافقين في الدرك الأسفل من النار، فإننا نستطيع أن نتخيل النار، وكأنها عبارة عن طبقات (أي درك)، فهناك الدرك الأسفل من النار، وهناك درك فوقه، وهكذا.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: بهذا المنطق المفترى نفسه، نحن نستطيع أن نتخيل ما حصل للبحر عندما فلق بعصا موسى وكأنه عبارة عن درك، أي طبقات بعضها فوق بعض، فكان موسى خائفا الدرك، فجاءه التطمين الإلهي بأن لا يخشى دركا، لأن الله قد مهد له الطريق حتى نهايتها.

لكن الأمر كان بالنسبة لفرعون مختلفا تماما، وذلك لأن فرعون قد أدركه الغرق:

- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: 90-92]

السؤال: ما معنى أن فرعون قد أدركه الغرق؟

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: لما لحق فرعون بموسى في عرض البحر المفلوق حصل له ومن معه الغرق أجمعين:

- ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: 136]
- ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْـَٔاخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف: 54-56]

السؤال: كيف حصل لهم الغرق؟

جواب مفترى: في اليم:

- ﴿فَٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ ١٣٦﴾ [الأعراف: 136]

السؤال: إذا كانت الحادثة قد حصلت كلها في البحر مادام أن موسى قد ضرب البحر بعصاه (فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ)، فكيف تم لهم الغرق في اليم (فَأَغۡرَقۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ)؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن اليم هو عبارة عن الماء الساقط من فوق إلى الأسفل. فهذه أم موسى قد أمرت أن تقذف التابوت (حيث الطفل موسى متواجدا) في اليم، فما كان من ذلك اليم إلا أن يلق بالتابوت بمن فيه بالساحل:

- ﴿أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39]

لذا، فإن اليم (كماء جاري يصب الماء من فوق إلى تحت) يمكن أن يلق بمن فيه في منطقة أخرى. ونحن نتخيل ذلك على نحو شلال من الماء يصب في منطقة محددة من ارتفاع، فلو كان فيه شيء (كالتابوت)، فإن قوة دفع الماء ستلقي بذلك التابوت في طرف الماء، أي حيث الساحل.

السؤال: كيف يمكن (في ضوء هذا الفهم المفترى من عند أنفسنا) أن نتصور ما حصل من أمر غرق فرعون ومن معه في اليم؟

رأينا: لمّا فلق البحر، ولمّا كان كل فرق كالطود العظيم، كف الماء من الجهتين الشمالية والجنوبية، فأحدث طريق في البحر يبسا، كما في الشكل التوضيحي التالي:



Source

فعبر موسى ومن معه البحر سالكين تلك الطريق، وفي هذه الأثناء لحق فرعون وجنوده بموسى ومن معه، وما أن وصلا إلى النقطة التي لا رجعة فيها، تساقط عليم الماء من الجهتين (لأن الماء أصبح يشكل اليم)، فغرق جنود فرعون أجمعين، ولكن فرعون من بينهم جميعا، كان قد أدركه الغرق:

- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: 90-92]

السؤال: ما معنى أن فرعون بنفسه قد أدركه الغرق؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الماء قد جرف فرعون إلى درك في البحر، لم يعد باستطاعة فرعون حينها النجاة منه، وفي هذه اللحظة انطلق لسان فرعون بكلمة الإيمان، فقال

- ﴿... قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: 90]

السؤال: أين نطق فرعون بتلك الكلمة؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون قد نطق بتلك الكلمة عندما وصل ببدنه إلا منطقة الدرك، أي المنطقة السفلى في ذلك البحر. فأصبح حاله هو – برأينا – ما تصوره الآية الكريمة التالية:

- ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٤٠﴾﴾ [النور: 39-40]

تخيلات مفتراة من عند أنفسنا: في خضم تلاطم الأمواج بعد سقوط ماء اليم من الاتجاهين، حاول فرعون المقاومة حتى النفس الأخير (كما نقول باللسان الدارج)، وفي تلك اللحظة وصل به الأمر إلى درجة الإنهاك، فكان الظمأ هو ما أصابه، فحاول فرعون أن يبحث عن مصدر الماء للشرب، فتشكلت أمامه السراب البقيعة، فظن أنه ماء، ولكن لما جاءه لم يجده شيئا، وهناك وجد الله وحده، فوفاه حسابه، على النحو التالي:

- ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: 91-92]

السؤال: لماذا استطاع فرعون المقاومة حتى النهاية؟ لِم لَم يستسلم من البداية؟

جواب مفترى: نحن نظن أن السبب في ذلك يعود إلى ما نفهمه من الآيات الكريمة التالية:

- ﴿أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: 40]

لقد وجد فرعون نفسه في بحر لجي، فغشاه الموج الأول، ثم غشاه من بعد ذلك الموج الثاني، وتشكل السحاب من فوق ذلك.

السؤال: وما علاقة فرعون بهذا كله؟

جواب مفترى: دعنا ندقق بما جاء في الآية الكريمة نفسها في قوله تعالى (إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا)، ليكون السؤال: كيف يمكن أن نتخيل شخص ما قد أدركه الغرق في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب سيخرج يده؟ فأين هي يده حتى يخرجها؟ ومن أين سيخرجها؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن لا نتخيل أن الغارق في الماء يستطيع أن يخرج يده من فوق الماء، فهذا أمر من الصعوبة بمكان أن نتصوره. فأين إذا سيخرج يده؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن اليد لا يمكن أن تخرج إلا إن كانت موضوعة في مكان ما. فأين يمكن أن توضع اليد لتخرج؟ ومن أين يمكن أن يُخرِجَ الشخص الغارق في مثل هذا الماء يده؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنه من أجل الإجابة على مثل هذا التساؤل، فلابد من العودة إلى السياقات القرآنية التي تصور لنا إخراج اليد على وجه التحديد، لنجد قوله تعالى واضحا (كما نفهمه) في الآيات الكريمة التالية:

- ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ ۝١٠ إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسۡنَۢا بَعۡدَ سُوٓءٖ فَإِنِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝١١ وَأَدۡخِلۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖۖ فِي تِسۡعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَقَوۡمِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝١٢﴾ [النمل: 10-12]
- ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ۝٣٢﴾ [القصص: 32]

لتكون النتيجة التي نحاول جاهدين الوصول إليها هي أن اليد لا يمكن أن تخرج إلا إن كان صاحبها قد (1) أدخلها أو سلكها في جيبه أو (2) أن يكون قد ضمها من ذي قبل إلى جناحه:

- ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخۡرَىٰ ۝٢٢﴾ [طه: 22]

تخيلات مفتراة: نحن نظن أن فرعون كان في خضم تلاطم الأمواج سالكا يده في جيبه أو ضاما إياها إلى جناحه.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى: لمّا كان موسى يدخل أو سلك يده في جيبه، ولمّا كان يضمها إلى جناحه كانت تخرج بيضاء من غير سوء، فكانت عبارة عن كتلة مضيئة تنير الطريق له.

السؤال: ما علاقة ذلك بفرعون؟

رأينا المفترى: نحن نفتري القول (ربما مخطئين) بأن فرعون كان قادرا على فعل ذلك، أي كان قادرا على أن يسلك يده في جيبه أو أن يضمها إلى جناحه لتخرج بيضاء من غير سوء، فكان يظن فرعون أن يده تلك ستفيده في تلك الظلمات، ولكن لما أحكم الله على فرعون القبضة، كانت الظلمة أشد من قدرة يد فرعون أن تفيده في شيء، فكان الضوء الخارج منها لا يكاد يفيد فرعون في أن يبصرها بنفسها، فحتى لو أخرج فرعون يده، لم يكد ليراها بذاتها، فكيف بها ستنير له تلك الظلمات:

- ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور: 40]

هناك أدرك فرعون أن لا ملجأ إلا الله، وهناك أدرك ضعف قوته وقلة حيلته، فنطق بكلمة التوحيد:

- ﴿۞ وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٩٠﴾ [يونس: 90]

فجاءه الرد الإلهي المباشر على هذا النحو:

- ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٩١ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ۝٩٢﴾ [يونس: 91-92]

السؤال: أين هو ذلك المكان الذي نطق فيه فرعون بكلمة التوحيد؟

الخيال السادس:

نحن نتخيل (ربما مخطئين) أنه نفس المكان الذي انطلق لسان يونس بالدعاء إلى الله أن يخرجه من تلك الظلمات في بطن الحوت:

- ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء: 87]

وهناك وجد الله، فجاءته الاستجابة الفورية على النحو التالي:

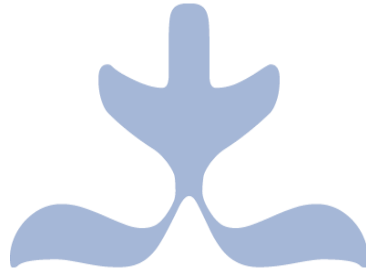
- ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٨٨﴾ [الأنبياء: 88]

(دعاء: لا إله إلا أنت سبحانك، أعوذ بك أن أكون من الظالمين)

وللحديث بقية

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم. وأعوذ به وحده أن أكون ممن يفترون عليه الكذب، أو ممن يقولون ما ليس لهم بحق، إنه هو العليم الحكيم - آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان
بقلم د. رشيد الجراح
10 كانون ثاني 2017



فقه الحج

الجزء الحادي عشر



فقه الحج – الجزء الحادي عشر

تلخيص ما سبق

- ⇐ تحصل المواجهة الفعلية بين موسى من جهة وفرعون وسحرته من جهة أخرى في منطقة المحرقة
- ⇐ تكون الغلبة لموسى على فرعون وسحرته
- ⇐ يتحول السحرة إلى صف موسى، متحدين فرعون نفسه، لعلمهم بأن المواجهة الحقيقية كانت بين موسى وفرعون، لأن فرعون هو من أكره السحرة على السحر في تلك المواجهة
- ⇐ يأتي الوحي من الله لموسى بأن يتجه ببني إسرائيل وبمن آمن معه جهة البحر
- ⇐ ينطلق موسى بمن معه باتجاه البحر سالكين الطريق الجبلي (وسنرى لاحقا سبب ذلك بحول الله وتوفيق منه)
- ⇐ يبعث فرعون في المدائن حاشرين أن هؤلاء شرذمة قليلون
- ⇐ يعقد فرعون مشاورات مع ملئه ومع عِلية القوم من المدائن كلها (وسنرى الدليل على هذا لاحقا)
- ⇐ يلحق فرعون وجنوده وهامان وجنوده موسى ومن معه، فيتراءى الجمعان عند البحر
- ⇐ يظن أصحاب موسى أنهم مدركون
- ⇐ يؤكد موسى لهم بأن الله معه سيهديه طريق النجاة
- ⇐ يأتي الوحي لموسى هناك بأن يضرب بعصاه البحر
- ⇐ انفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم
- ⇐ يضرب موسى لمن معه طريقا في البحر يبسا (وسنرى لاحقا كيف يكون الطريق في البحر يبسا)
- ⇐ يترك موسى البحر رهوا (وسنرى لاحقا كيفية ترك البحر رهوا)
- ⇐ يتراجع هامان وجنوده عند تلك اللحظة إلى الوراء
- ⇐ يلحق فرعون وجنوده بموسى في البحر
- ⇐ يغرق الله جنود فرعون أجمعين باليم
- ⇐ يدرك فرعون الغرق، فيحاول أن يستخدم كل ما لديه من إمكانات للخروج، فيفشل
- ⇐ يقتنع فرعون في تلك اللحظة أن رب العالمين هو الوحيد القادر على أن ينجيه مما هو فيه، فينطلق لسانه بكلمة التوحيد
- ⇐ ينجي الله فرعون ببدنه ليكون لمن خلفه آية
- ⇐ ينجي الله موسى ومن معه إلى الطرف الآخر من البحر، فتكون محطتهم الأولى هي تلك القرية التي وصلها بنو إسرائيل في طريق رحلتهم مع موسى وهارون إلى الأرض المقدسة
- ⇐ كانت تلك القرية هي (نحن نفتري الظن) ما يعرف اليوم بمدينة جدة في أرض الحجاز (انظر الخريطة حيث تكون هذه القرية هي المواجهة تماما في الجهة الشرقية للمكان الذي ضرب موسى بعصاه البحر من الجهة الغربية)
- ⇐ تبدأ رحلة بني إسرائيل من هناك باتجاه الأرض المقدسة، فتبدأ الرحلة باتجاه الشمال
- ⇐ يصل موسى مع قومه إلى المحطة الثانية في طريق رحلتهم

⇐ هنا في هذه المحطة الثانية يترك موسى قومه (ويخلف هارون آخاه فيهم) مستعجلا ميقات ربه (وسنرى هذه المحطة على الخريطة بعد قليل بحول الله وتوفيقه)
⇐ يتوجه موسى إلى مكة حيث البيت الحرام
⇐ يلاقي موسى ربه عند الجبل (عرفات)
⇐ يدك الله ذلك الجبل، فيصبح يعرف بجبل النور
⇐ يأتي العلم لموسى من ربه مباشرة بأن قومه قد فتنوا وأن السامري قد أضلهم
⇐ يعود موسى من هناك غضبان أسفا، حاملا الألواح التي كتب الله له فيها موعظة وتفصيلا لكل شيء
⇐ يعمد موسى مباشرة إلى معالجة المشكلة التي أحدثها السامري الذي أخرج للقوم من حليهم عجلا جسدا له خوار
⇐ يحرق موسى العجل وينسفه في اليم نسفا (وسنرى بإذن الله لاحقا الدليل على الأرض لذلك العجل)
⇐ يترك موسى السامري ليذهب، حتى يكون له موعدا لن يخلفه (وسنرى تبعات ذلك لاحقا بحول الله وتوفيق منه)
⇐ تبدأ رحلة موسى مع بني إسرائيل باتجاه الأرض المقدسة، فتكون عبارة عن محطات، حيث تحصل في هذه المحطات أمور عظيمة (سنتعرض لها في الأجزاء القادمة ن أذن الله لنا بشيء من علمه فيها، فالله وحده أسأل أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو العليم الحكيم - آمين)
⇐ الخ

قبل أن نبدأ الحديث عن هذه المحطات في رحلة موسى ومن معه باتجاه الأرض المقدسة، لابد (نحن نرى) من تجلية بعض الأمور التي ربما بقيت عالقة في ذهن القارئ الكريم، فأثارت في رأسه تساؤلات عدة حول تصوّرنا المفترى هذا من عند أنفسنا عن قصة خروج موسى مع بني إسرائيل من أرض مصر.

القضية الأولى: الطريق التي سلكها موسى ببني إسرائيل في رحلتهم باتجاه البحر

لو تفقدنا رحلة موسى مع قومه من مصر باتجاه الأرض المقدسة، لوجدنا أنها قد بدأت بالوحي الإلهي التالي لموسى:

- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ٧٧﴾ [طه: 77]

ونحن نفهم (ربما مخطئين) أن الله هو من أمر رسوله موسى بأن يتجه ببني إسرائيل صوب البحر، فكان لابد لموسى أن يتجه إلى هناك، فسار موسى ببني إسرائيل صوب البحر، وقد بدأت الرحلة ليلا:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٥٢﴾ [الشعراء: 52]
- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ٢٣ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ٢٤﴾ [الدخان: 23-24]

فكان لابد لموسى (نحن نتخيل) أن يختار طريقا محددة باتجاه البحر، ولعلي أكاد أجزم الظن بأن موسى قد اختار أن يسلك طريقا جبلية وعرة جدا، وذلك من أجل غاية محددة، وهي (نحن نرى) أن لا يترك لفرعون وجنوده ميزة السرعة للحاق بهم. فنحن نعلم أن إمكانات فرعون المادية حينئذ كانت – لا شك عندنا – أكبر بكثير من إمكانات موسى وقومه. ففرعون يملك مثلا من أدوات التنقل ما لم يكن يملكه موسى وقومه حينئذ، ولا يجب أن نغفل أن فرعون يقود جيشا منظما يستطيع اللحاق بالقوم في غضون وقت أقل بكثير من الوقت الذي سيستغرقه موسى ومن معه للوصول إلى البحر. لذا، كان على موسى (نحن لازلنا نتخيل) أن يأخذ طريقا محددة تعيق حركة فرعون وجنوده، فلا يكون لهم السبق للحاق بموسى ومن معه قبل وصولهم إلى البحر. فكانت طريقهم (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) بين الجبال الوعرة التي ربما تعيق حركة جيش فرعون، فلا يستطيع فرعون اللحاق بهم إلا عند البحر، كما أمره ربه.

لذا، نحن نطلب من المتتبع لمسار الرحلة على أرض الواقع أن لا يبحث عن آثار رحلة القوم في المناطق السهلة لأن موسى – برأينا- أكثر ذكاء من أن يضع نفسه وقومه في قبضة فرعون بسهولة.

القضية الثانية: كيفية لحاق فرعون وجنوده بموسى ومن معه

لو تدبرنا ردة فرعون الأولى على خروج موسى وقومه من أرض مصر، لوجدنا أنها قد اتسمت بالتأني والحذر، فنحن نقرأ في كتاب الله الآيات التالية التي تصور لنا ما فعله فرعون عندما علم أن موسى قد أخذ قومه وخرج بهم من أرض مصر باتجاه البحر:

- ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء: 52-56]

دقق عزيزي القارئ – إن شئت- في هذه الآيات الكريمة جيدا، لتجد أن أول ما فعله فرعون عندما انتهى له خبر خروج موسى ومن معه من أرض مصر هو أنه قد بعث في المدائن حاشرين، وهذا يدعونا إلى أن نعيد النظر في التصور الشعبي لما حصل حينئذ. فغالبا ما ظن القارئ لكتاب الله (ربما بما ترسخ في أذهانهم مما وصلهم من عند أهل الدراية) بأن فرعون قد لحق بموسى ومن معه على الفور. فهذا التصور الشعبي الدارج هو – برأينا – تصور غير دقيق لما حصل فعلا على أرض الواقع. فنحن نفهم من الآيات السابقة أن فرعون لم يعمد إلى اللحاق بموسى فورا بمجرد علمه بخروجه من قومه، بل جلّ ما فعل فرعون هو أنه قد بعث رسالة في المدائن حاشرين (فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ)، ليكون السؤال هو: لماذا بعث فرعون في المدائن حاشرين؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون كان يتّبع أعلى معايير "الديمقراطية" باستشارة من حوله والأخذ برأيهم، ومن ثم جعلهم في صورة ما يجري من أحداث حينئذ، فلا يقوم بفعل فردي من تلقاء نفسه دون الأخذ برأي ملئه وعِلية القوم في المدائن كلها، بل كان يعمد إلى أخذ موافقة القوم على كل ما هو مقدم على فعله. فلو تفقدنا مفردة حَاشِرِينَ في النص القرآني التي جاءت في سياق الحديث عن قصة فرعون مع موسى في أرض مصر، لوجدناها قد وردت مرتين، ففي المرة الأولى أرسل فرعون في المدائن حاشرين للسحرة لمنازلة موسى في المواجهة المرتقبة حينئذ بين الطرفين:

- ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: 111-110]
- ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: 34-37]

وفي المرة الثانية أرسل في المدائن حاشرين عندما بدأ موسى ومن معه رحلتهم بالخروج من أرض مصر:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝﴾ [الشعراء: 52-56]

ولو تفقدنا هذه السياقات القرآنية، لوجدنا الدليل على ديمقراطية فرعون في استشارة من حوله عندما قال لهم (فَمَاذَا تَأْمُرُونَ)

- ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝﴾ [الأعراف: 111-110]
- ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُۥٓ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ۝ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ۝ قَالُوٓاْ أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ ۝﴾ [الشعراء: 34-37]

ولو تفقدنا السياق القرآني الخاص بخروج موسى ومن معه، لوجدنا أن فرعون قد أرسل في المدائن حاشرين، ولا نجد ذكر للسحرة هذه المرة، وانظر عزيزي القارئ – إن شئت- في السياق القرآني نفسه مرة أخرى:

- ﴿۞ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝﴾ [الشعراء: 52-56]

ففي هذه المرة، بعث فرعون (نحن نتصور) في المدائن حاشرين لأصحاب الرأي، وذلك من أجل اتخاذ القرار "الديمقراطي" بما سيفعله بخصوص خروج موسى ومن معه من أرض مصر.

السؤال: ما الذي يمكن أن نستفيده من هذا الافتراء؟ يسأل صاحبنا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نتصور أن الأمر الفرعوني للحاق بموسى ومن معه قد تطلب بعضا من الوقت، فما أن أطلق فرعون نداء الحشر هذا:

- ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ۝﴾ [الشعراء: 53]

حتى حضر عِلية القوم إلى مجلس فرعون، فخطب فيهم فرعون قائلا:

- ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمۡ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ۝٥٦﴾ [الشعراء: 54-56]

ولما كان هذا قد تطلب بعضا من الوقت، تأخر لحاق فرعون وجنوده بموسى ومن معه فترة من الزمن، وخلال هذه المدة من الزمن، كان موسى (نحن لا زلنا نتخيل) قد قطع شوطا لا بأس به بمن معه في رحلة الذهاب باتجاه البحر.

السؤال: لماذا تأخر فرعون للحاق بموسى ومن معه؟ لِم لم يلحق به على الفور؟

رأينا المفترى: نحن نظن أن فرعون قد فعل ذلك لأمرين رئيسيين، وهما:

1. لأن فرعون كان شخصا ديمقراطيا، فلا يفعل ما يريد فعله إلا بعد مشورة القوم (فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ)
2. لأن فرعون يعلم يقينا بأن موسى متجها صوب البحر، لذا كان تصور فرعون على نحو أن موسى لن يتمكن من عبور البحر إلا ويكون قد لحق به وبقومه. ففرعون يتصور بأن سرعة موسى ومن معه باتجاه البحر لن تفيده مادام أن هذا البحر (كما يتصور فرعون) سيكون حاجزا مانعا لأن يخرج موسى من أرض مصر قبل أن يلحق به فرعون وجنوده، فمهما تعجل موسى بقومه فإن فرعون (أظنه كان يظن) لا محالة لاحق بهم عند البحر.

الدليل

لو تدبرنا ما أمر الله به موسى أن يفعله حينئذ، لربما حق لنا أن نفتري الظن أن تفاصيل الأحداث لم تكن واضحة تماما حتى لموسى نفسه، فالله قد أمر موسى أن يتجه صوب البحر، والله هو من طلب من موسى أن يترك البحر رهوا، لكن الله (نحن نظن) لم يخبر موسى عن طريقة النجاة من البحر، فكل ما يعلمه موسى هو أن الله منجيهم لا محالة، لكنه ربما لم يكن يعلم حتى اللحظة شيئا عن كيفية النجاة من البحر:

- ﴿فَأَسۡرِ بِعِبَادِي لَيۡلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَٱتۡرُكِ ٱلۡبَحۡرَ رَهۡوًاۖ إِنَّهُمۡ جُندٞ مُّغۡرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: 23-24]

لذا، عندما تراءى الجمعان عند البحر، ظن أصحاب موسى أنهم مدركون:

- ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلۡجَمۡعَانِ قَالَ أَصۡحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدۡرَكُونَ ۝٦١﴾ [الشعراء: 61]

لكن ردة فعل موسى كانت على النحو اليقيني التالي:

- ﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ۝٦٢﴾ [الشعراء: 62]

فموسى (نحن نظن) كان يعلم حتى اللحظة أن الله لا محالة منجيه وقومه من فرعون وجنوده، لكنه لا يعلم كيف سيحصل ذلك على أرض الواقع. وهنا فقط جاء الوحي لموسى بأن يضرب بعصاه البحر:

- ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾﴾ [الشعراء: 63]

لذا، نحن نفتري القول من عند أنفسنا بأن موسى نفسه لم يكن يعلم كيف سينجيه الله ومن معه من البحر، ولكنه على يقين أن الله لا محالة منجيهم. فلو كان موسى (نحن نرى) يعلم طريقة النجاة بضرب البحر بالعصا، لفعل ذلك فورا دون الحاجة لانتظار الوحي الإلهي.

السؤال: لماذا لم يخبر الله موسى عن كيفية النجاة من البحر من قبل؟ ولم جاء الأمر الإلهي لموسى الأولى على النحو التالي؟

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان: 23-24]

فجل ما كان عند موسى من علم في تلك اللحظة هو التالي:

1. أن يسر بعباد الله ليلا (فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا)
2. أنهم متبعون (إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ)
3. أن يترك البحر رهوا (وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا)
4. أن عدوهم جند مغرقون (إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ)

رأينا المفترى: نحن نفهم أن ذلك تدبير إلهي لاستدراج الذين مكروا إلى حتفهم من حيث لا يعلمون، كان الهدف من عدم معرفة موسى نفسه لطريقة إغراق جنود فرعون في البحر (نحن نرى) حتى لا يشيع الخبر بين الناس، فينتهي العلم به إلى فرعون نفسه وإلى جنوده من بعده. فلو شاع خبر ذلك بين الناس قبل وصول موسى إلى البحر، لربما قام فرعون (نحن نتخيل) باللحاق بموسى ومن معه على الفور. وبكلمات أخرى نحن نفتري القول بأنه لو شاع خبر بأن الله قد أمر موسى بالذهاب إلى البحر وأنه سيفلق البحر بعصا موسى، لربما أحدث ذلك زعزعة في نفس فرعون وجنوده، أي لعلم جنود فرعون أن البحر سينفلق بعصا موسى، ولربما أحدث ذلك شيئا من الريبة في نفوسهم، ولربما تلكئوا عن اللحاق بموسى ومن معه خاصة عند البحر. لذا لم يخطر ببال فرعون وجنوده بأن البحر سينفلق بعصا موسى، لذا كانوا جميعا متيقنين (حسب ظنهم) أن نهاية موسى ومن معه ستكون لا محالة عند البحر، فخرج فرعون وجنوده مطمئنين لنتيجة الأحداث المستقبلية، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا.

القضية الثالثة: طريق في البحر يبسا

السؤال: كيف نفهم أن الله قد طلب من موسى أن يضرب لهم طريقا في البحر يبسا؟

- ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: 77]

السؤال مرة أخرى: كيف يمكن أن يكون طريقا في البحر وفي الوقت ذاته يكون يَبَسًا ؟

رأينا المفترى: لعل الفكر الشعبي السائد قد تخيل ذلك على نحو أن تكون الطريق في البحر كما الطريق على اليابسة، أي تخلو تماما من المياه، أليس كذلك؟

جواب مفترى: نحن نظن بأنه لو كانت الطريق التي ضربها موسى في البحر طريقا يبسا، بمعنى أنها تخلو تماما من الماء، لما أصبحت إذا طريق في البحر أصلا. فمن أهم ميزات البحر وجود الماء، فلو كانت الطريق خالية تماما من الماء، لما كانت طريقا في البحر أصلا.

السؤال: كيف يمكن أن نتصور ذلك إذن؟

رأينا المفترى: نحن نظن أنها كانت طريقا في البحر (فكان الماء متواجدا في الطريق) بالرغم أنها طريقا يبسا؟

السؤال: وكيف يكون ذلك؟ ألا ترى أنك تهذي؟ يرد صاحبنا قائلا.

جواب مفترى: كلا، وألف كلا، فدعنا نتفقد معنى مفردة يَبَسًا أولا.

لو تفقدنا السياقات القرآنية الخاصة بمفردة يَبَسًا ومشتقاتها على مساحة النص القرآني، لما وجدنا أنها قد وردت إلا في الموضعين التاليين:

أولا، اليابس هو عكس الرطب، كما في قوله تعالى:

- ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأنعام: 59]

ثانيا، واليابس يقابله الأخضر كما في السياقات القرآنية التالية:

- ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [يوسف: 43]
- ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: 46]

ليكون السؤال الآن هو: ما معنى اليابس؟

رأينا المفترى: عندما نرى ورق الشجر نستطيع على الفور أن نصنفه إلى نوعين: رطب ويابس، ولعلنا لا نختلف أن الرطب هو الذي لازال الماء متوافرا بداخله، أما اليابس فهو الذي جف الماء من داخله.

وهنا نجد أن من المهم التنبيه إلى أن اليابس هو ما جف الماء من داخله وليس من خارجه، فلو أنت سكبت الماء على الورق اليابس، فهل يعني ذلك أنه قد أصبح رطبا؟

جواب مفترى: كلا وألف كلا. فلا يمكن لشيء أن يكون رطبا إلا إذا تخلله الماء إلى الداخل. فلو أنت سكبت الماء على قطعة من الحديد، فهل يعني ذلك أنها يمكن أن تصبح رطبة؟ لكن لو سكبت – بالمقابل- الماء على التراب اليابس، فإنه سيصبح رطبا لأن الماء يتخلله إلى الداخل، أليس كذلك؟

وهذا المنطق المفترى من عند أنفسنا ينطبق على السنبلات أيضا. فالسنبلات تبقى خضر مادام الماء متوافر فيها من الداخل، ولكن ما إن يجف ماؤها من الداخل حتى تصبح يابسة، فكلما كثر الماء في داخلها كلما ازدادت رطوبتها، وكلما قل الماء في داخلها كلما قلت رطوبتها وازداد يباسها، ويستحيل أن تعود خضراء مرة أخرى حتى لو سكبت الماء عليها من الخارج.

السؤال: ما علاقة هذا بالطريق " يَبَسًا " التي ضربها موسى لقومه في البحر؟

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن الطريق كانت يبسا بالرغم من وجود الماء فوقها، لأنها (نحن نفتري الظن من عند أنفسنا) كانت طريقا صخرية لا يتخللها الماء إلى الداخل. فموسى قد ضرب لقومه طريقا في البحر، فانفلق البحر، فكان كل فرق كالطود العظيم، لكن الماء (نحن نتخيل) ظل متواجدا على سطح الطريق، لأنها كانت طريقا يبسا في البحر.

السؤال: لماذا ظل الماء متواجدا على سطح الطريق التي ضربها موسى لقومه في البحر؟ لم لم يجف الماء كليا (كما تزعم)؟ يسأل صاحبنا مستغربا.

جواب مفترى من عند أنفسنا: نحن نفتري الظن بأن الحكمة الإلهية (كما نتصورها طبعا) قد جاءت على هذا النحو ليشكل الماء المتوافر على سطح تلك الطريق عائقا طبيعيا أمام فرعون وجنوده، فلا يكون لهم أفضلية اللحاق بموسى ومن معه مادام أن فرعون وجنوده يملكون من أدوات التنقل السريعة ما لا يملكه موسى وقومه. فلو تخيلنا أن فرعون كان يملك الخيل والبغال والعربات التي تجرها هذه الدواب السريعة (كما شاهدنا ذلك في أفلام هوليود التي تصور الحدث) لشكّل لهم الماء المتواجد على سطح الطريق عائقا طبيعيا يحول دون تحركهم بسرعة أكبر من سرعة موسى ومن معه. فالعربات التي تجرها الخيول، والخيول نفسها، لا تستطيع السير في البحر بسرعة كبيرة جدا كما هي الحال في البر. فحتى لو لحق فرعون وجنوده موسى ومن معه مستخدمين العربات والخيول، فإن ذلك لن يعطيهم ميزة السبق للحاق بموسى ومن معه اللذين ربما لم يكونوا يركبون مثل تلك الدواب. فالخيل والعربات يعيقها الماء المتواجد على سطح الطريق اليبس في البحر، فلا تسير بسرعة أكبر بكثير من السرعة الطبيعية للإنسان العادي الذي يقطع ذلك الماء الضحل على رجليه .

القضية الرابعة: اترك البحر رهوا

لو تفقدنا ألآية الكريمة التالية، لوجدنا أن الله قد أخبر موسى بأن يترك البحر رهوا:

- ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٢٣ وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ۝٢٤﴾ [الدخان: 23-24]

السؤال: كيف يمكن أن نتخيل أن موسى قد ترك البحر رهوا؟ وكيف يمكن أن نتخيل موسى قد ترك البحر رهوا وهو الذي ضرب لهم طريقا في البحر يبسا؟

رأينا المفترى: نحن نتخيل أن البحر كان رهوا، مادام أن الماء الموجود على سطح الطريق لم يكن عميقا جدا، وإنما كان ماء ضحلا، لدرجة أن يتمكن السائر على أقدامه (كحالة موسى ومن معه) أن يتجاوزوه. فلقد خاض موسى ومن معه (نحن لا زلنا نتخيل) البحر عندما كان رهوا، فوجدوا طريقهم في البحر يبسا، فلم تكن أقدامهم لتغرز في الطين، مادام أن الأرض تحت أقدامهم يابسة، أي صخرية، لا تؤدي بهم إلى الغرق. وعندما لحق فرعون وجنوده بموسى ومن معه، شكّل لهم ذلك الماء الذي لازال متواجدا على سطح الطريق اليبس في البحر عائقا طبيعيا، فلم يستطيعوا اللحاق بموسى ومن معه بالرغم من حيازتهم لأدوات التنقل السريعة لتي ربما لم يكن يملكها موسى ومن معه.

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا: نحن نستطيع أن نتخيل تلك الطريق على نحو أنها كانت طريقا صخرية تحت أقدامهم، مادامت طريقا يبسا، فالماء لم يكن ليتخللها إلى الداخل، ولكنها كانت مغمورة بكمية كافية من الماء لتعيق سرعة السالك فيها سواء كان إنسانا أو دابة. ونحن نكاد نجزم الظن بأن تلك الطريق كانت مغمورة بالماء من فوقها بارتفاع ربما لا يتجاوز النصف متر، فكانت أقدام القوم والدواب يغمرها الماء حتى الركبة، فشكل ذلك عائقا طبيعيا أما الجميع للسير تقريبا بنفس السرعة، فلا يكون لفرعون وجنوده أفضلية السرعة للحاق بالقوم على الفور.

القضية الخامسة: باب العجل

بعد أن أغرق الله فرعون وجنوده، وبعد أن حصلت النجاة لموسى ومن معه، وجد القوم أنفسهم على الطرف الآخر من البحر، فكانت محطتهم الأولى هي تلك القرية التي وجدوا فيها أهلها يعكفون على أصنام لهم، فطلب القوم من رسولهم أن يجعل لهم آلهة كما لهؤلاء آلهة:

- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا...۝١٣٨﴾ [الأعراف: 138]

فكانت ردة فعل موسى على طلبهم على النحو التالي:

- ﴿...قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ۝١٣٨ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٣٩ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ۝١٤٠ وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ۝١٤١﴾ [الأعراف: 138-141]

فكانت تلك محطتهم الأولى بعد أن جاوز الله بهم البحر، ونحن نفتري الظن بأن تلك القرية هي ما يعرف اليوم بمدينة جدة في الحجاز الواقعة على الطرف الشرقي من البحر الأحمر.

ما أن تجاوز موسى بمن معه من بني إسرائيل تلك القرية حتى كانت محطتهم التالية هي الأرض التي تقع إلى الشمال من مدينة جدة، وهناك حصل الوعد الإلهي لموسى بملاقاته بعد أربعين ليلة. انظر عزيزي القارئ – إن شئت- النص القرآني السابق في سياقه الأوسع:

- ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف: 138-142]

فترك موسى قومه مخلفا أخاه هارون فيهم، وتعجل موسى للقاء ربه، وهنا جاء العلم لموسى من ربه مباشرة بأن القوم قد فتنوا، وأن السامري هو من أضلهم:

- ﴿۞ وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه: 83-85]

عندما أخرج لهم عجلا جسدا له خوار:

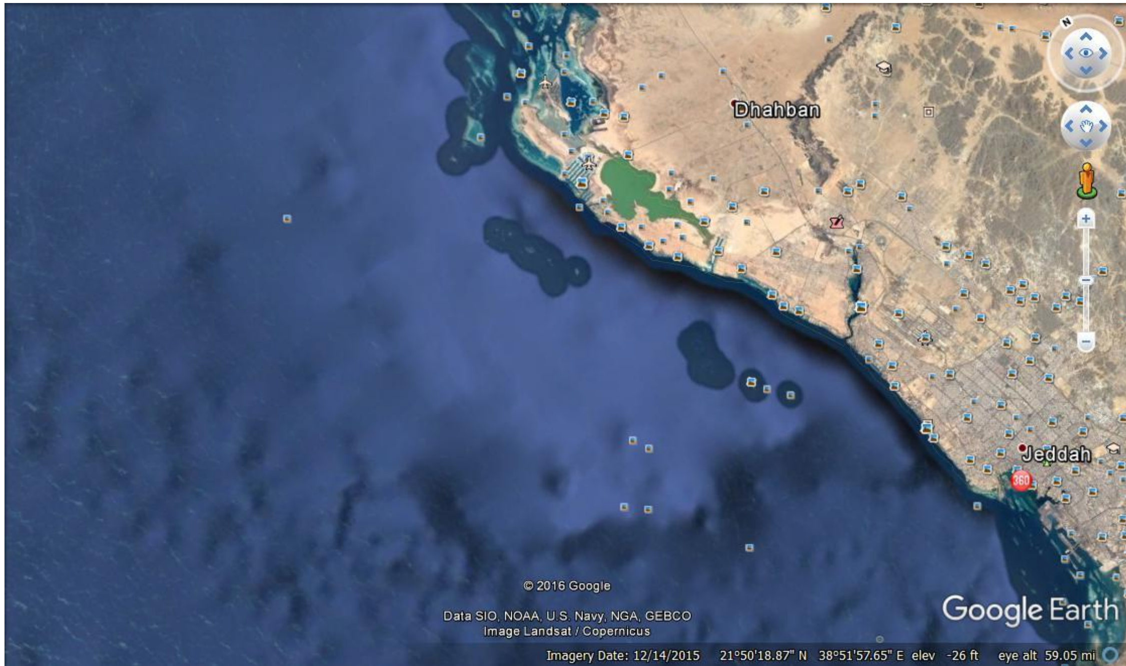
- ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُواْ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: 88]

السؤال: أين أخرج السامري العجل للقوم؟

تخيلات أغرب من الخيال نفسه: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا بأننا نستطيع تحديد المنطقة الجغرافية التي حصل فيها إخراج السامري العجل للقوم من بعد ذهاب موسى لملاقاة ربه. ولا يفوتني القول قبل كل شيء بأن الإشارة إلى ذلك قد جاءتنا من أحد القراء المتابعين لمقالاتنا والمهتمين بالبحث في مثل هذه القضايا الفكرية وهو السيد عيد خلف الغليلات الذي بعث لنا بالخريطة الجغرافية التي تصور لنا مكان العجل الذي أخرجه السامري للقوم الذي يظهر (حسب مخيالنا طبعا) في الشكل التوضيحي التالي على الخريطة الجغرافية للمنطقة الواقعة إلى الشمال من مدينة جدة:



فلو أنت نظرت (عزيزي القارئ) في هذه الخريطة، لوجدت أن صورة العجل (أو لنقل مكان حرقه) لازالت واضحة المعالم (كما نتخيلها طبعا) على مقربة من ذلك البحر، وهي المنطقة الواقعة إلى الشمال من مدينة جدة، كما توضح ذلك الخريطة الجغرافية التالية للمنطقة المحيطة:



هنا (نحن نفتري القول) كانت المحطة الثانية في الرحلة حيث أخرج السامري للقوم من حليهم عجلا جسدا له خوار. وهنا بالضبط (نحن نفتري الظن) حرق موسى العجل الذي أخرجه السامري للقوم. فآثار العجل عند منطقة التحريق قد بقيت آثارها على الأرض شاهدة على ما حصل لذاك العجل في تلك

المنطقة بالضبط. ونحن نفتري القول بأن التنقيب الأثري العلمي الجاد سوف يبين للناس (إن صح منطقنا هذا المفترى من عند أنفسنا) تفاصيل أكثر دقة لما حصل على أرض الواقع حينئذ.

فالله وحده نسأل أن لا نكون ممن يفترون عليه الكذب، ونعوذ به وحده أن نكون ممن يقولون عليه ما ليس لهم بحق. إنه هو السميع البصير- آمين.

القضية السادسة: باب السامري

في هذه المحطة كانت مفارقة السامري للقوم على النحو التالي:

- ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا ٩٧﴾ [طه: 97]

وقد تعرضنا لهذه الجزئية في مقالاتنا السابقة وافترينا الظن بأن موسى لم يكن يستطيع التخلص من السامري كما تخلص من العجل، بل جل ما طلبه موسى من السامري هو أن يذهب (قَالَ فَٱذۡهَبۡ)، وبالفعل ذهب السامري، وكان من أهم ميزات هذا الرجل أنه يستطيع القول (فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ)، وهذا يعني برأينا أن السامري ما عاد عرضة للمس، فما يكون للشيطان أن يمسه بضر ولا بنصب وعذاب:

- ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ٤١﴾ [ص: 41]

وما كان للضر أن يمسه:

- ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣﴾ [الأنبياء: 83]

وما كان للسوء أن يمسه:

- ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨﴾ [الأعراف: 188]

والأهم من هذا كله هو أن الكبر لم يكن ليمسه:

- ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ٥٤﴾ [الحجر: 54]

نتيجة مفتراة من عند أنفسنا خطيرة جدا: نحن نفتري الظن من عند أنفسنا أن السامري منذ تلك اللحظة قد ذهب، فما كان الشيطان يستطيع أن يمسه بنصب وعذاب، وما كان الضر يمسه، وما كان السوء يمسه، وما كان الكبر يمسه. فالرجل لازال موجودا بهيئته التي ذهب فيها. انتهى.

السؤال: لماذا؟

رأينا المفترى من عند أنفسنا: نحن نظن أن السبب في ذلك يتمثل في أن السامري قد أخذ جائزته في الدنيا بسبب ما تحصل له من تلك القبضة التي قبضها من أثر الرسول:

- ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ۝٩٦﴾ [طه: 96]

فكانت قبضة من أثر الرسول (أي قبضة من العصا)، فكانت تلك القبضة كفيلة أن تبعد عنه الضر بكل أشكاله، لذا فالرجل لا يمكن أن يمسه الضر. كما أن هذا كان له على مدى الحياة (فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ)، لذا فالرجل لازال موجودا في تلك المنطقة ينتظر ذلك الموعد الذي لن يخلفه:

- ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾ [طه: 97]

السؤال: ما هو ذلك الموعد الذي لن يخلفه السامري؟

رأينا المفترى: لما كان موسى لا يستطيع أن ينهي على حياة السامري بفضل تلك القبضة التي قبضها من أثر الرسول، كان لزاما على ذلك الرجل أن ينتظر موعدا، لا يمكن للسامري أن يخلفه وحينها ستكون المواجهة الفعلية بين السامري وذاك الذي أيده الله بما يفوق ما عند السامري.

السؤال: من هو هذا الذي سيواجه السامري في ذلك الموعد؟ ومتى سيحصل ذلك على أرض الواقع؟

جواب مفترى: هذا ما سنتناوله لاحقا بحول الله وتوفيق منه في مقالات لاحقة مستقلة متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها. فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو الواسع العليم – آمين.

القضية السابعة: باب الفيل

في الوقت الذي كنت أبحث فيه مع آخرين من حولي خاصة صديقي عبد الملك عن بقية الآثار المتبقية حول ذلك البحر، وفي الوقت الذي وقعت فيه أعيننا على آثار نظن أنها عظيمة لأحداث مفصلية

في التاريخ، جاءتنا الصورة نفسها من بعيد من عند صاحبنا السابق السيد عيد خلف الغليلات، كما في الشكل التوضيحي التالي الذي أرسله لنا.

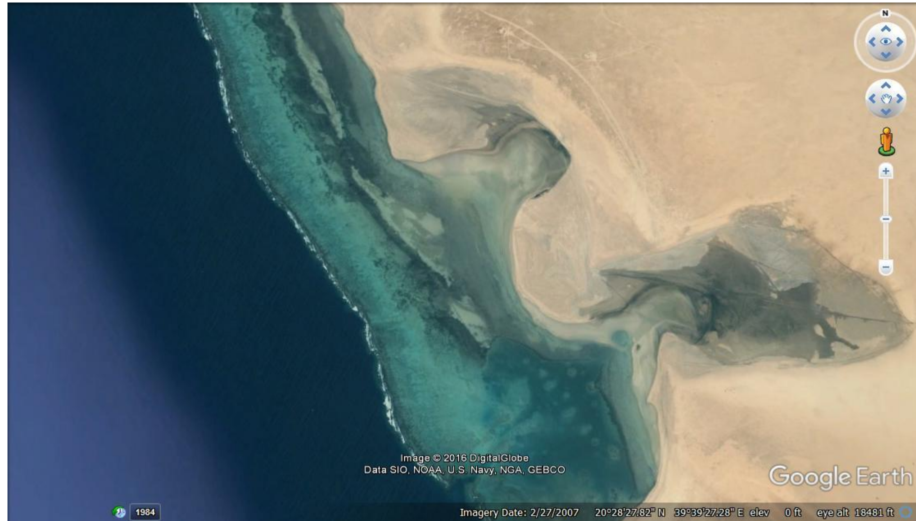






باب النمل

لا يقتصر الأمر عند البحر الأحمر على هذا الحد، فهناك نجد واد النمل كما يمكن أن تبين الأشكال التالية الموجودة على الطرف الشرقي للبحر:





وهذا ما سنتحدث عنه بحول الله وتوفيقه في مقالات مستقلة لاحقا متى ما أذن الله لنا بشيء من علمه فيها.

فالله وحده أدعوه أن يعلمني ما لم أكن أعلم وأن يزدني علما وأن يهديني لأقرب من هذا رشدا، إنه هو السميع العليم -

آمين.

المدّكرون: رشيد سليم الجراح & علي محمود سالم الشرمان & عيد خلف الغليلات

بقلم د. رشيد الجراح

26 كانون ثاني 2017